www.quranonlinelibrary.com

عمادة البحث العلمي
DSR.UQU
جامعة أم القرى
كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم
King Abdullah bin AbdulAziz Chair For The Holy Quran

الوافي

في هدايات كلام الله الكافي

(تفسير وهدايات جزء عمّ)

في ضوء تناسقه الموضوعي

إعداد
أ.د. طه بن عابدين طه حمد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

المجلد الأول

www.Quranonlinelibrary.com

الوافي

في هدايات كلام الله الكافي

«تفسير وهدايات جزء عمَّ»

الجزء الأول

إعداد

العبد الفقير لربه في علاه

أ. د. طه بن عابدين طه حمد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

نسخة إلكترونية

للتواصل مع المؤلف

proftaha11@gmail.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

مقدمة

كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى

الله سبحانه وتعالىٰ هو (الهادي)، يهدي جميع خلقه هدايات متعددة بحسب حاجاتهم وتقلب أحوالهم.. فالأعمىٰ هدايته أن يسير علىٰ الطريق، وهداية الأصم أن يفهم ما يقال، وهداية العاجز أن يصل إلىٰ مبتغاه.

والقرآن العظيم.. أصل الهدايات؛ جعله الله تعالىٰ طريقًا لإرشاد عباده، وضمَّنه أسباب الرشد والهداية: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]، وحين تتفرق بالناس السبل، وتتكاثر بالأمة المحن، تتعدد المسالك هربًا من المهالك، فينجو أصحاب المنهج الأحكم، الذي زكاه الإله الأعظم، فقال سبحانه -وهو أعلم-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومن تأمل أحوال الخلق في اهتدائهم بالقرآن العظيم، وكيف هدىٰ الله بعضًا من خلقه بآية يسمعها أو يقرؤها أو يتدبرها أو يفهمها فيفتح الله قلبه لنور الإيمان، ويشرح صدره بهُدىٰ القرآن.

هدايات القرآن: فتوحات ربانية، ودلالات إرشادية يمن الله بها علىٰ من يشاء من عباده، ممن صدق، وفي آيات الله تدبر وتأمل، وفي كلمات الله تفكر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

هل يستوي من تمر الآيات علىٰ أذنيه فحسب، مع من يمرر الآيات علىٰ قلبه تفكرًا وتدبرًا، ويدعو ربه أن يرزقه علمًا وفهمًا؟ وهداية وعملًا؟

ليس عبثًا أن يبيت النبي ﷺ ليلة كاملة وهو يردد آية واحدة من كتاب الله، يرددها ويبكي ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

أدرك العلماء الربانيون، أن ثمت معان عظام، يفتح الله بها علىٰ من اصطفاه من عباده، قد لا تظهر لكل أحد قرأ شيئًا من القرآن.

يخرج شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من بين البيوت والمساكن وقد ازدحمت الأقوال عنده في تفسير آية، وتعددت الآراء أمامه، فيمرغ وجهه في التراب يبكي ويدعو «اللهم يا معلم داود علمني، ويا مفهم سليمان فهمني» فيعود وقد ترجحت عنده الأقوال، وتفتحت في قلبه المعاني بنور الهداية الربانية.

هدايات القرآن: مشروع حضاري، تحتاجه أمة الإسلام، لتجدد علاقتها بالقرآن الكريم، وتنهض من بين آياته لتقود البشرية إلىٰ بر الأمان، فهي الأمَّة الشاهدة علىٰ الأمم، ولا خلاص للإنسانية بغير منهج القرآن ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

ولأجل هذا وذاك عُني كرسي الملك عبدالله للقرآن الكريم بجامعة أم القرىٰ بالتأسيس العلمي لمجال الهدايات القرآنية تأصيلًا وبحثًا ودراسةً وتدريبًا ونشرًا.

وهذا الإصدار «الوافي في هدايات كلام الله الكافي، تفسير هدايات جزء عمَّ في ضوء تناسقها الموضوعي» لأستاذ الهدايات، ولعلم من أعلام الأمة في المشاريع القرآنية فضيلة أ. د. طه عابدين طه، يأتي ضمن سلسلة إصدارات

www.Quranonlinelibrary.com

الكرسي في هذا المجال، وهو مؤلف فريد في مجاله، عميق في استنباطاته، رصين في عباراته، حوىٰ نحو ألفي هداية يضعها المصنف بين يدي أمة القرآن ليكون نموذجًا تطبيقيًّا في الكشف عن الدلالات وبيان الإرشادات وربطها بواقع الحياة.

وبعد شكر الله تعالىٰ أشكر جامعة أم القرىٰ متمثلة في عمادة البحث العلمي وعمادة كلية الدعوة وأصول الدين؛ لما تقومان به من جهود موفقة في دعم كرسي الملك عبدالله للقرآن الكريم وخدمة كتاب الله في أحب البلاد وأقدس البقاع، سائلًا الله تعالىٰ أن يبارك الجهود ويسدد الخطىٰ ويحقق الآمال، إنه سميع مجيب.

كتبه: أ. د. يحيىٰ بن محمد زمزمي

أستاذ كرسي الملك عبد الله للقرآن الكريم

بجامعة أم القرىٰ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابًا يهدي للتي هي أقوم، فأنار به الوجود، وأحيا به القلوب، والصلاة والسلام علىٰ من اصطفاه الله تعالىٰ بين سائر خلقه فأنزل علىٰ قلبه النور المبين، وجعله رحمة للعالمين، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأخيار الصادقين، ومن سار علىٰ دربهم إلىٰ يوم البعث والدين. أما بعد:

فإني أقدم بين يدي القارئ الكريم باكورة مشروع هذا العمل العظيم «الوافي في هدايات كلام الله الكافي(١)»؛ الذي بذلتُ فيه سنوات العمر وزهرته «دراسة، ومطالعة، ومدارسة، وتدريسًا، وبحثًا، وتأليفًا»، وأنا مطمئن فرح مسرور بذلك ولله الحمد والمنة؛ كيف لا وقد ظل القرآن الكريم قرة عيني، وسكن قلبي، وآثرته حبًا علىٰ كل ما ضمه فؤادي، حتىٰ بات حبُّه حب نفسي؛ بل أشد، وظلت ألفاظه سكن سمعي، ونور بصري وبصيرتي، وأمست معانيه متعة عقلي، وما تقومت حياتي إلا من خلال هديه، وما اطمأنت نفسي إلا

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فهو آية كافية عن سائر الآيات، وكتاب يغني عن سائر الكتب في التوحيد والأخلاق والعبادة والتشريع وسائر ما الناس في حاجة إليه، فقد بلغ الغاية في نهاية الكفاية قال السعدي: «فلا كفىٰ اللّه من لم يكفه القرآن، ولا شفىٰ اللّه من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدىٰ به واكتفىٰ، فإنه خير له ورحمة» تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٦٣٣).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من خلال تلاوته وتدبره، وما لامست بصمات اليقين قلبي إلا من خلال حججه وأدلته، كيف لا وهو الذي عرفت من خلال هديه عظمة ربي، ومنزلة نبيي صلوات الله وسلامه عليه، وطريق عبوديتي، ومنهج أخلاقي، واستقامة فكري، وصلاح ديني ودنياي؛ ومفاتح السعادة لحياتي.

ومما سهل عليَّ مسلك هداياته، وقرَّب إليَّ ما بعد عني من دلالاته وحكمه تلك الكتابات القيِّمة، والكلمات النافعة التي سطرها علماؤنا الأفذاذ من خلال تفاسيرهم المتباينة من حيث الاتجاهات، والمتباعدة من حيث الزمان والمكان، والمتنوعة من حيث الأسلوب والبيان، والغنية من حيث المعاني والدلالات؛ لأنَّ كلًا أخذ من بحر القرآن الذاخر حسب علمه واهتمامه وقدرته وطاقته، وما أتاحته له فرص زمانه، وما هيأه الله له من الظروف والأحوال، دون الإحاطة بمعانيه؛ وأنَّىٰ لهم ذلك؛ ولذلك سجل كل واحد منهم عجزه واستسلامه لسعة علومه، ودقة أحكامه، وقوة بيانه، وغور معانيه، وطود مراميه ومقاصده، ومن هنا كانت جميع الدراسات السابقة حول تفسيره يكمل بعضها بعضًا، ويزين بعضها بعضًا، كلٌ له ميزته وخصائصه وفضائله وعلمه، والمجال واسعٌ لمن يتدبره من بعدهم مستنيرًا بعلمهم، ومستهديًا بإيمانه، وجامعًا لفكره في تدبر هداياته، وسائرًا وفق منهجه المستقيم في استنباط دقائقه، وقد جاءت هذه الدراسة متوشحة بثوب منيف غزل خيطه الأوائل، ونسجه الأواخر، وتركز دورنا في حسن تفصيله وعرضه، فهي دراسة جمعت دررهم المبثوثة، وأخرجت من علومهم المكنوزة، وحسبي أن أخرجها بهيجة تناسب زماننا الذي نعيش فيه؛ ولكنها تميزت بميزات جعلت لها طعمها ولونها الخاص التي تمثل القيمة الإضافية الحقيقية لها.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

أولًا: مميزات الدراسة:

تميزت هذه الدراسة بمميزات عديدة أجملها في الآتي:

١- سهولة العبارة، ووضوح المعنىٰ، وسلاسة الأسلوب، وحسن التقسيم والترتيب بصورة تهدف إلىٰ زيادة تيسير فهم القرآن الكريم وهو ميسر، وتنشر فقهه وتقرب معانيه لكل مسلم في هذا العصر، فالناس أشبه بزمانهم من شبههم بآبائهم.

٢- البدءُ بمقدمةٍ عن فضلِ السورةِ وما ورد عنها من أحاديث في السنة النبوية، وموضوعِها ومحاورها، لإعطاء صورة كلية عن السورة قبل الدخول في تفسيرها، بصورة تسهل فهمها، وهذه من العلومِ الدقيقةِ والمهمة في التفسير التي قلَّ اهتمام العلماء به وتدوينه في كتبهم.

٣- الاعتناء بالربط بين السور والآيات، وربط الخواتيم بالمقدمات، والكشف عن بعض وجوه المناسبات، والتناسق بين الموضوعات، بما يخدم الوحدة الموضوعية في السورة والكشف عن بعض أوجه مناسباتها، فإنها تحمل أسرارًا تنقطع دونها الأنفاس، ودررًا يسكن في خباياها الفؤاد، وهو عمل ظل طودًا شامخًا أمام جهابذة العلماء، وباب عميق في تدبر هذا الكتاب المجيد، وأحد أسراره الذي ينبغي أن تذكر، ومن كماليات حسنه التي ينبغي أن تبرز؛ بل وجدت الكثير من الهدايات مكنونة من وراء أسرار هذا العلم العظيم؛ ولكنه باب قائم علىٰ النظر والاجتهاد والتدبر أسأل الله تعالىٰ أن أكون قد وفقت فيه[1]، وقد سرت فيه علىٰ القاعدة التي تقول: «المناسبة

(١) وقد رجعت إلىٰ عدد من الكتب المهمة في هذا الباب واستفدت منها فائدة كبيرة منها: كتاب

www.Quranonlinelibrary.com

أمر معقول إذا عرض علىٰ العقول تلقته بالقبول»[١].

٤- السعي الجاد للوصول إلىٰ خلاصة ما كُتبَ من المعاني الظاهرة والدقيقة التي عاش لها الجهابذة من العلماء الأوائل بصورة توقف علىٰ لطائف الألفاظ، وعمق الدلائل والهدايات، ولما كان همي أن ألخص زبدة أقوالهم، وأجمع خلاصة أفكارهم جاءت هذه الدراسة عميقة في دلائل المعاني، ترشح بعبير الإيمان في السياقة، سهلة في العبارة؛ بعيدة عن الأساليب الجافة في الكتابة، لم أعزو الأقوال إلىٰ أصحابها غالبًا؛ وذلك لأني حذفت وأضفت وغيرت وداخلت بما يكمل المعنىٰ ويزين السياق، في محاولة للجمع بين طريقة المفسرين في التعامل مع أقوال من سبقهم، ومنهج البحث العلمي الحديث، بما يحقق مصلحة وأهداف الكتاب الذي قصدت به العامة ليستفيدوا مما كتب وجمع من هدايات لها ارتباطها المباشر بقول الله تعالىٰ فيكون ذلك أدعىٰ للقبول، فلا يتشتت ذهنهم بين قول فلان وفلان الذي هو صناعة المفسرين، كما قصدت افادة الخاصة من طلاب العلم من خلال بيان أوجه الدلالة ليتدربوا علىٰ طرق الوصول إلىٰ الهدايات، وما من تفسير قديم أو حديث إلا وحاولت الرجوع إليه والاستفادة منه، وقد أرجع أحيانًا لأكثر من خمسين مرجعًا في تفسير الآية، وربما فتح الله عليَّ به فتحًا أثبته كذلك ضمن فوائد وهدايات الآية أو مناسباتها ؛ ولكن التزمت بتخريج الأحاديث،

مفاتيح الغيب للرازي، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، والبرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي، وإرشاد العقل السليم في مزايا الكتاب العزيز لأبي السعود، ونظم الدرر للبقاعي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وتفسير المراغي لمصطفىٰ المراغي وغيرها.

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ٥٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والحكم على ما هو في غير الصحيحين، وإذا نقلت قولاً بنصه أشرت إلى مصدره، وإذا نقلت هداية ولي عليها تعقيب جعلته في الهامش مع بيان مَنْ ذكرها.

٥- التزمت في تفسير الآية بالآيات المشابهة لها في القرآن، وبما يفسرها من هدى خير المرسلين، وإذا ثبت للصحابة قول في معنى الآية لا أتجاوزه؛ ولكن يمكن أن نضيف عليه بما لا يتعارض مع أقوالهم أو منهجهم في الفهم والاستنباط، مع الاهتمام بمعاني الكلمات، وما يرتبط بفهم الآيات في جوانب الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وأوجه القراءات ونحوها من المباحث المهمة في علوم القرآن متى ما يستدعي معنى الآية ذلك.

٦- سعيت أن تكون الاختيارات للأقوال راجحة دون التطويل في أمور الخلاف؛ إلا ما رأيت الحاجة تدعو إليه؛ وحاولت أن أوظف جميع الأقوال المحتملة في هدايات الآية التي يمكن الجمع بينها، محافظًا على أن يظل طابع الدراسة تفسيريّ، فأبعدت كل كلام لا يخدم المعنى، ولا يوصل لهداياته؛ وذلك لتوفير وقت القارئ لفهم أكبر قدر من آيات القرآن في حدوده المعقولة.

٧- السعي لجمع أكبر قدر من الفوائد والهدايات العلمية والعملية حول الآية في صورة تساعد على العلم والعمل التي قلما جُمعت في غيره، وهي خلاصة الفهم والتدبر والتتبع لما جاء منثورًا في كتب التفسير، وإن كانت الهدايات لم تكن عملًا مقصودًا للمفسرين، لأنهم هدفوا إلى بيان المعنى، والهداية هي ثمرة فهم المعنى، ولم أجد من قصد الهدايات والفوائد بالتأليف إلا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لبعض طوال السور، وقد استفدت من كتابته غاية الفائدة؛ لأني وجدته سار على نفس

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المنهج الذي أردته في بعض الجوانب؛ ولذا جاء هذا الكتاب وافيًا بفوائد متعددة، وهدايات متنوعة قلما توجد في غيره من كتب التفسير، جمعتها من مدارس التفسير المختلفة عبر عصوره الممتدة، من خلال مطالعات متأنية، وتدريس زاد عن ربع قرن من الزمان، ومدارسات جادة استمرت لسنوات دون انقطاع مع بعض زملائي الأخيار الذين جمعتني بهم سنوات الهجرة في شمال المملكة ـ حائل الخير ـ فكانوا خير إخوة وأصحاب، ذكَّروني إن نسيت، وشجَّعوني إن فترت، وأفادوني بمداخلاتهم الرائعة المعبِّرة عن علمهم وأدبهم، عرفتهم بصدق العزيمة، وعلو الهمة، وحب القرآن والصبر علىٰ تعلمه في تواضع جم ووعي كبير، فجزاهم الله خيرًا، وقد منحني الله عز وجل فرصة أخرىٰ أطيب وأبرك في رحاب بلده الحرام - العاصمة المقدسة - منبع الرسالة ومهبط الوحي، مع نخبة منتقاة في دروس أخرىٰ امتدت لسنوات ولله الحمد والمنة، أطرت لهذا العمل ووجهته وأنضجته خاصة بعد انضمامي للفريق الإداري لكرسي الملك عبد الله للقرآن وعلومه بجامعة أم القرىٰ، وتولي رئاسة الفريق العلمي في الدراسة التأصيلية للهدايات القرآنية التي تعبر المدخل لعلم الهدايات، وحسمت فيها الكثير مما تتباين فيه الأفكار والآراء.

٨- بيان علل الأحكام والتشريعات، وبث روح الإيمان بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر من خلال ما يذكر من هدايات بما يزرع اليقين في القلوب، ويوضح سماحة الشريعة، ويرغب في الطاعة، ويزهد في المعصية، ويرد سهام الأعداء علىٰ نحورهم فينقلبوا خاسرين بما أثاروه من شكوك، وبما بثوه من شبهات قصدوا من خلالها إقصاء الدين عن مناحي الحياة المختلفة، وحصره في شعائر تعبدية وأمور شكلية.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ثانيًا: أهداف الدراسة:

هدفت هذه الدراسة تحقيق عدة أمور من أبرزها:

١- جمع واستنباط هدايات آيات وسور «جزء عمَّ»، بما يقرب وييسر معاني القرآن وهداياته للناس، ويوسع مداركهم في فهمه، وينبههم علىٰ معان قد لا تخطر علىٰ بالهم.

٢- التطبيق العملي للدراسة التأصيلية في الهدايات القرآنية في بعض جوانبها المهمة بما يبني ملكة التدبر والفهم والاستنباط عند طلاب العلم بصورة عامة، ويسهم في تطبيق الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية بصورة خاصة.

٣- نشر هدايات القرآن الكريم بهدف ربط الأمة بها؛ بما يزكي قلوبهم ويجعل القرآن منهجا للحياة بهدف إسعاد الإنسانية بهدي ربِّ البرية.

٤- إبراز موضوعات السور، وخصائصها ودقة تناسقها وتناسبها بما يظهر مقاصد وجمال القرآن الكريم ودقة إحكامه.

٥- ربط الواقع المعاصر بهدايات القرآن الكريم، وجعلها في سياقات قابلة للتنفيذ والقياس.

ثالثًا: منهج الدراسة وخطواتها الإجرائية:

وقد سرت في هذا العمل وفق الخطوات الآتية:

١- قدمت لكل سورة بمدخل يشتمل علىٰ فضلها، وما ورد من أحاديث عنها، وموضوعاتها، ومناسبتها لما قبلها من السور.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٢- ذكر معاني مفردات كل سورة بطريقة محررة ميسرة تسهل الفهم وتعمق في جوانب الهدايات.

٣-الحديث عن هدايات كل آية بصورة متسلسلة أبدأ بأول كلمة وأنتهي بآخرها ذاكرا ما تيسر من فوائد وهدايات.

٤-الحديث عن التناسق الموضوعي بين آيات الموضوع الواحد في محاولة لربط الآيات بموضوعها وربط كل موضوع بالموضوع الآخر في السورة بما يبرز وحدتها الموضوعية.

٥-بيان وجه المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها بما يربط المقدمات بالنتائج.

٦-إبراز خصائص كل سورة، وما تميزت به من موضوعات وهدايات وأساليب بما ينبه للجوانب المهمة في السورة وما تميزت به.

٧-ذكر بعض التكاليف الإيمانية والعملية من هدايات السورة بما يربط العلم بالعمل.

فتلك الجوانب السابقة هي التي تميزت بها هذه الدراسة عن سائر من كتبوا في مجال الدراسات القرآنية.

وقد ترددت طويلا ولسنوات عديدة أن أخرج ما جمعته من معان وهدايات تهيبًا واستجلالًا من القول في كلام الله، ولبضاعتي المزجاة في بحر علومه؛ ولكن بعد ملاحقات متكررة من زملاء لي أحسنوا بي الظن، ومراجعتي لكثرة الأدلة التي جاءت تحث علىٰ تعلم القرآن وتعليمه، وبعد استخارة واستشارة قوي عزمي؛ خصوصًا بعد ما رأيت من خلال تدريسي حاجة طلابي الكبيرة لما جمعت، ولما قرأته من كلمات مشجعة ممن حكموا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مادة هذا الكتاب من أساتذة أجلاء لهم علمهم وفضلهم بدأت بإخراج نواة هذا العمل، سائلًا الله ﷻ الرشد والسداد، وأعوذ بالله من الغي والضلال، واستغفر الله تعالىٰ من كل قول أو كلمة جانبت الهدىٰ والصواب.

وقد بدأت هذا السفر الوافي بمقدمات مهمة لا يستغني عنها طالب علم التفسير أفردتها في مؤلف خاص في كتاب: «التحرير في أصول التفسير» وهو يعتني بإبراز منهج الصحابة والعلماء الراسخين في هذا الباب، ثم جاء الحديث عن سورة الفاتحة، فاتحة أنوار الكتاب المجيد، المسماة بأم الكتاب، والقرآن العظيم، لما حوته من المعاني الجامعة، والهدايات الشافية لكل مقبل علىٰ تعلم هديه القويم، وعلمه المستقيم، وقد كتب الله لها من القبولِ ما كتب، بما حفزني علىٰ إتباعها بإخراج هذا الجزء المهم من القرآن - جزء عمَّ - الذي يكثر حفظه وتلاوة سوره وآياته بين المسلمين في الصلاة وغيرها، وهي سور في غالبها مكية مركزة علىٰ أصول الدين ومكارم الأخلاق التي عليها بناء الإنسان وصلاحه.

وبإذن الله تعالىٰ سوف يتتابع هذا العمل العظيم حتىٰ يخرج في موسوعة علمية متكاملة، خاصة بعد أن توجنا هذه الجهود بدراسة تأصيلية في الهدايات قام بالإشراف علىٰ إعدادها كرسي الملك عبد الله للقرآن وعلومه بجامعة أم القرىٰ، لا يستغني عنها متبحر في هذا العلم.

وإني لأرجو أن يكون هذا العمل قد بلغت به ما قصدت من القربة من ربي، والنفع لأمتي، كما أرجو أن يعذرني من قرأه عن خطأ قصر في إصلاحه علمي، أو كان سببه تعجلي، أو ألفته العين عند قراءته، فالعمل كبير، والكمال عزيز، وأبىٰ الله الكمال إلا لكتابه، والعصمة إلا لرسوله ﷺ، والناس بعد ذلك

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مصيب ومخطئ، ولكل مجتهد أجره أصاب أو أخطأ، وكل يؤخذ من قوله ويرد، والحمد لله علىٰ فضله وإحسانه، والشكر له علىٰ توفيقه وامتنانه، فمنه كل نعمة وتوفيق، وبيده كل خير وبر وإحسان، وجزىٰ الله خيرًا كل من أسهم معي في إخراج هذا العمل، وأخص منهم زوجتي أم عبد الله التي أسهمت بإشراقات ضخمة في حياتي، وكانت خير معين لي علىٰ الخير حيث ما توجهت ركابي، وأشكر كذلك كل من أسهم في هذا العمل من أبنائي وأصحابي خاصة ابني عبد الله ساعدي الأيمن، والدكتور محمود التوم صاحب النفس السخية في خدمة كتاب الله تعالىٰ، والفريق الإداري في كرسي الملك عبد الله للقرآن وعلومه، وأخص منهم الأستاذ الدكتور يحيىٰ بن محمد زمزمي الذي ما بخل علي بجهد ورأي سديد في خدمة مشروع الهدايات، وبذل جهده في تحكيم ومراجعة هذه الدراسة حتىٰ تخرج في حلتها المناسبة وصورتها المرضية.

وقد سميته «**الوافي في هدايات كلام الله الكافي**»، رجاء أن يفي بمطلوب الطالبين، وأن يكون هاديًا للمتقين، وشافيًا للمستشفين، وقد حوىٰ جزء عمَّ -بحمد الله وتوفيقه وفضله ومنته- ما يزيد عن ستمِائة وألفين هداية.

وإني أسأل الله بلوغ الغاية، فباسمه تعالىٰ أبدأ، وعليه أتوكل، وبه أستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله أولًا وآخرًا علىٰ منِّه وتوفيقه.

كتبت في غرة محرم ١٤٣٤هـ،

وتمت المراجعة في رمضان ١٤٣٨هـ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة النبـــأ

موضوع السورة:

إثبات البعث وبيان أحداثه

من خلال ثلاث موضوعات:

- أدلة وبراهين البعث الذي يختلفون فيه
- ما يسبق القيامة من أحداث، ومصير الطغاة والتقاة فيه
- وصف بعض أحوال اليوم الآخر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

مدخل لدراسة السورة

أولًا: موضوعُ السورةِ:

موضوعُ السورةِ الدلالةُ علىٰ أنَّ يومَ القيامةِ الذي اختلفَ الكفارُ في ثبوتهِ معَ المؤمنين واقعٌ وقوعًا لا يحتملُ شكًا ولا خلافًا بوجه، وخُدِمَ هذا الموضوعُ من خلالِ ثلاثِ موضوعاتٍ جاءت علىٰ النحوِ الآتي:

الموضوعُ الأول: الحديث ُعن اختلافِ الناسِ في البعثِ؛ وبيانِ دلائلِ قدرةِ الله العظيمةِ علىٰ كلِّ شيء (١- ١٦).

الموضوعُ الثاني: بيانُ ما يسبقُ القيامةَ من أحداثٍ، ومصيرُ الطغاةِ والتقاة فيه (١٧ - ٣٦).

الموضوعُ الثالث: وصفُ بعضِ أحوالِ اليومِ الآخر، إنذارًا للجاحدين، وتحفيزًا للمؤمنين (٣٧ - ٤٠).

ثانيًا: المناسبةُ بين سورةِ المرسلات وعمَّ:

كان الكلام في سورةِ المرسلاتِ علىٰ أن يومَ القيامة الذي وعدَهم اللهُ به واقعٌ لا محالة، وذكرَ لهم بعضَ العلاماتِ التي تسبقُه من طمسِ النجومِ، وفرجِ السماء، ونسفِ الجبال، وهنا بيَّنَ لهم أن وقتَه محددٌ عنده جل وعلا، وأن هنالكَ علاماتٍ بينةٍ تسبقُه من النفخِ في الصورِ، وتفتُّحِ السماءِ أبوابًا، وتسييرِ تلك الجبالِ التي نسفت لتكونَ سرابًا، وفي كلا السورتين يشيرُ القرآنُ

إليه بيومِ الفصل، وهنالك يشيرُ إليه بالتهويل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وهنا بالترهيبِ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾.

هنالك هددَ بالويلِ للمكذبين به بصورةٍ متكررة، وذكرَ بعضَ أدلةِ قدرتهِ من خلالِ بيانهِ بإهلاكهِ للأولين وإتباعهِ للآخرين، وخلقِ الإنسانِ من ماءٍ مهين، وجعلهِ للأرضِ كفاتا، وجعلهِ فيها رواسي شامخاتٍ، وسقياه لعبادهِ الماءَ الفرات، وهنا هددَهم حين بيَّنَ لهم أنهم سيعلمونَ عاقبةَ تكذيبِهم، وذكرَ كذلك أدلةَ قدرتهِ علىٰ البعثِ من جعلِ الأرضِ مهادًا، والجبالِ الراسياتِ أوتادًا، وكيف أنزلَ من المعصراتِ ذلك الماءَ الفرات إلىٰ أن ختمَ بإخراجِ الحبِّ والنبات.

هنالك بيَّنَ بعضَ صفاتِ النار، وعذابَ أهلِها قبلِ أن يدخلوها، وهنا بيَّنَ بعضَ صفاتِها، وعذابَهم فيها بعد أن يدخلوها، وفي كليّهما كان التكذيبُ هو الذي أوصلَهم إليها.

هنالك بيَّنَ أنهم لا ينطقون، ولا يؤذنُ لهم فيعتذرون، وهنا بيَّنَ أنهم لا يتكلمونَ إلا بإذنِ من الرحمن، ولا يقولون إلا حقًا وصوابا.

هنالك بينَ جزاءَ المتقين وما هم فيه من الظلالِ والعيونِ والفواكَه مما يشتهون، وهنا بين ما للمتقينَ من المفازةِ فذكرَ منها: الحدائقَ والأعناب، والكواعبَ الأتراب، والكأسَ الدهاق، وعدمَ سماعِ اللغو والكذب بما يكمل وصف ذلك النعيم، إلىٰ غير ذلك من مناسبات كثيرة تظهر لمن يتدبرها.

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الأول

اختلافُ الناسِ في البعثِ وبيانُ أدلتِه وبراهينِه

قال تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ
٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا
٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا
ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

[النبأ: ١ - ١٦].

أولًا: معاني الكلمات:

١. عَمَّ: لفظٌ مركبٌ من حرف الجر (عن)، و(مَا) التي هي اسمُ استفهامٍ، وأصلُ ترتيبِهِ: يتسَآءلون عَنْ ما، فقُدِّم اسمُ الاستفهام؛ لأنه لا يقعُ إلا في صدرِ الكلامِ، وإذا كان اسمُ الاستفهامِ مقترنًا بحرفِ الجرِ الذي تعدىٰ به الفعلُ إلىٰ اسمِ الاستفهام، وكان الحرفُ لا ينفصلُ عن مجروره قُدِّما معًا فصار ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقد جرىٰ الاستعمالُ الفصيحُ علىٰ أن (ما) الاستفهاميةَ إذا دخلَ عليها حرفُ الجرِ يحذفُ الألفُ المختومةُ به تفرقةً بينها وبين (مَا) الموصولة؛ وعلىٰ ذلك جرىٰ استعمالُ نُطقِهم، فلما كتبوا المصاحفَ جروا علىٰ تلك التفرقةِ في النطقِ فكتبوا (ما) الاستفهاميةِ بدونِ ألفٍ حيثما وقعت

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

مثل قوله تعالىٰ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات:٤٣]، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤] ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣] معناه عن ما يتساءلون فأدغمت النونُ في الميمِ وأسقطت الألفُ فصارَ عمَّ(١).

٢. ٱلنَّبَإِ: الخبرُ. قال الراغبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النبأ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظن، ولا يقالُ للخبرِ في الأصل نبأ حتىٰ يتضمنَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ»(٢)، وقيل في معناه: إنه البعثُ، وهو الأظهرُ حسب السياق، وقيل: إنه القرآنُ، وقيل: إنه أمرُ الرسولِ ﷺ.

٣. ٱلْعَظِيمِ: الجليل الشأن، ويستعارُ للأمرِ المهم.

٤. ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ: يخالفُ فيه بعضُهُم بعضا بين مصدقٍ ومكذب.

٥. كَلَّا: لفظٌ يستعملُ في الردعِ والزجر.

٦. مِهَٰدًا: ممهدةٌ للخلائقِ. والمهادُ: بكسرِ الميمِ: الفراشُ الممهدُ المُوطّأُ.

٧. أَوْتَادًا: جمعُ وَتِدٍ بفتحِ الواوِ وكسرِ المثناةِ الفوقية. والوَتِدُ: عودٌ غليظٌ شيئًا ما، أسفلُهُ أدقُّ من أعلاه، يُدقُّ في الأرضِ لتُشدُ به أطنابُ الخيمة.

٨. أَزْوَٰجًا: أصنافًا، فالرجلُ والمرأةُ زوج، وكذلك السماءُ والأرضُ، والليلُ والنهارُ وغيرُ ذلك من الخلقِ. وقيل: أزواجًا أي: متآلفين، تألفون أزواجكم.

٩. سُبَاتًا: السُّبَات: بضمِ السينِ وتخفيفِ الباءِ اسمُ مصدرٍ بمعنىٰ السَبْتِ، أي القطعُ، أي جعلناه لكم قطعًا لعملِ الجسدِ بحيث لابد للبدنِ منه لتحصلَ الراحةِ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٧).

(٢) غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٤٨١).

www.Quranonlinelibrary.com

١٠. لِبَاسًا: أي: سترًا لكم.

١١. ٱلنَّهَارَ: وهو الزمانُ الذي يكونُ فيه ضوءُ الشمسِ منتشرًا علىٰ جزءٍ كبيرٍ من الكُرةِ الأرضية.

١٢. مَعَاشًا: أي جعلناه مضيئًا مشرقًا ليتصرفَ الناسُ فيه للمعاش.

١٣. وَبَنَيۡنَا: والبناءُ: جعلُ الجاعلِ أو صُنعُ الصانعِ بيتًا أو قصرًا من حجارةٍ وطينٍ أو من أثوابٍ أو من أَدَمٍ علىٰ وجهِ الأرض، «والبناءُ يستلزمُ الإعلاءُ علىٰ الأرضِ فليس الحفرُ بناءً ولا نقرُ الصخورِ في الجبالِ بناءً»(١).

١٤. سَبۡعًا: يعني السمواتُ السبع.

١٥. شِدَادًا: جمعُ شديدة، وهي الموصوفةُ بالشدةِ، والشدةُ: القوةُ والصلابةُ. والمعنىٰ: أنها متينةُ الخَلقِ، قويةُ الأجرامِ، لا يختلُّ أمرُها ولا تنقصُ علىٰ مرِّ الأزمان.

١٦. سِرَاجًا: والسراجُ: حقيقتُهُ المصباحُ الذي يستضاءُ به.

١٧. وَهَّاجًا: وقادًا متلألئًا؛ لأن أصلَ الوهاجِ: الاتقادُ يقَال: وَهَجَت النارَ إذا اضطرمت اضطرامًا شديدًا. ويطلقُ الوهاجُ علىٰ المتلألئِ المضيءِ وهو المرادُ هنا؛ لأن وصفَ وهاجَ أُجريَ علىٰ سراجٍ، أي سراجًا شديدَ الإضاءةِ، ولا يقال: سراجٌ ملتهب. قال الراغبُ: «الوَهجُ حصولُ الضوءِ والحرِّ من النار»(٢).

١٨. ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ: أي السحابُ التي تتحلبُ بالمطرِ، كما يقال امرأةٌ معصر: إذا دنا حيضُها ولم تحض.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢).

(٢) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٥٣٣).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

١٩. ثَجَّاجًا: منصبًا بعضُه في إثرِ بعضٍ بكثرةٍ وقوةٍ.

٢٠. حَبًّا: والحَبُ: ما يدخرُ من قوتِ الناس، مثل: الحنطةِ، والشعيرِ، والذُّرةِ، والأرزِّ.

٢١. وَنَبَاتًا: ما يؤكل رطبًا. فهو النبات الذي لا يؤكلُ حبُهُ، بل الذي ينتفعُ بذاتِه، وهو ما تأكلُهُ الأنعامُ والدوابُ مثل التبنِ والبقدونسِ والخضرواتِ والحشيشِ وغيرِ ذلك.

٢٢. وَجَنَّٰتٍ: جمعُ جَنة، وهي القطعةُ من الأرضِ المغروسةِ نخلًا، أو نخلًا وكرْمًا، أو جميعِ الشجرِ المثمر بثمراتٍ متنوعةٍ الألوانِ والطعوم.

٢٣. أَلۡفَافًا: مجتمعةٌ وملتفة، والملتفةُ: الداخلُ بعضُها في بعض.

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ جمالَ وروعةَ الأسلوبِ القرآني حيث جمعَ من خلالِ الاستفهامِ والإجمالِ ثم التفصيلِ الذي افتتحت به هذه السورةُ بينَ التشويقِ، والتهويلِ، والتفخيمِ، والتعجبِ، فهو من الفواتحِ البديعةِ التي قصدَ بها تمكنُ الخبرِ في نفسِ السامعِ أكملَ تمكن ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾.

٢. تفيدُ فوائدَ الإبهامِ في الخطابِ؛ لتتوجَه إليه أذهانُهُم وتلتفتُ إليه أفهامُهُم، وأبْهَمَهُ ليناسبَ تساؤُلَهم، وليفسرَه ما بعدَه؛ ولذا فهو لا يجيبُ عن التساؤلِ، ولا يدلي بحقيقةِ النبأِ المسؤولِ عنه. فيتركُهُ بوصفِه العظيمِ.. وينتقلُ إلىٰ التلويحِ بالتهديدِ الملفوفِ ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾

٣. تفيدُ التعجبَ من الذين لا يؤمنون بالبعثِ، وقد قامت الأدلةُ القاطعةُ علىٰ قدرةِ اللهِ علىٰ ذلك، وحكمتهِ التي توجِبُه، فلم يكن السؤالُ بقصدِ معرفةِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الجوابِ منهم؛ إنما كان للتعجبِ من حالِهم وسؤالِهم.

٤. تفيدُ أن المنكرينَ للبعثِ سيعلمون حقيقَتَه بعدَ الموتِ، وسيعاقبون علىٰ إنكارِه، فتضمن هذا الإبطالُ وما بَعدَه إعلامًا بأن يومَ البعثِ واقعٌ، وتضمنَ وعيدًا؛ وقد وقعَ تأكيدُهُ بحرفِ الاستقبالِ الذي شأنُهُ إفادةُ تقريبِ المستقبل.

٥. تفيدُ نزاعَ الخلقِ واختلافِهم في قضيةِ البعثِ رغم بروزِ الأدلةِ القاطعة، وهو النبأُ الذي لا يقبلُ الشكَّ ولا يدخلُه الريبُ؛ ولكن المكذبين بلقاءِ ربهِم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتىٰ يروا العذابَ الأليم.

٦. تدلُّ علىٰ علمِه تعالىٰ بالغيبِ، بل بجميعِ ما يقعُ في الكون مما ظهرَ وبطن، وما يتحاورُ ويتجادلُ فيه العبادُ في كلِّ وقتٍ وحال.

٧. فيها فائدةُ ذكرِ الكلامِ في معرضِ السؤالِ والجواب؛ لأنه أقربُ إلىٰ التفهيمِ والإيضاحِ، ونظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

٨. تفيدُ أن الاستفهامَ التقريري من الأساليبِ الحواريةِ المسكتةِ للخصم؛ لأنه لا يَسعُهُ إلا الإقرار ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾.

٩. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ بسطِ الأرضِ وفرشِها وتذليلِها وتيسيرِها لمصالحِ العبادِ في السبلِ والسكنِ والحرثِ وغيرِها، بما يدلُ علىٰ قدرةِ اللهِ، ويذكرُ بنعمتِه ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾.

١٠. تفيدُ بلاغةَ القرآنِ الكريم حيث عبَّر بكلمةٍ واحدةٍ عن معانٍ يطولُ شرحها؛ لأن جعلَ الأرضِ مهادًا حقيقةٌ واسعةٌ يطولُ شرحُها، ويدركُ الإنسانُ معانيهَا كُلَما تقدمت علومُهُ، فاختلالُ ذراتِ الهواءِ مثلًا لا يجعلُ هذه الأرض مهدًا للحياةِ، ولهذا أجملَهَا القرآنُ ليدركَها كلُّ جيلٍ وإنسانٍ وفقَ عِلمِه وقدرته.

١١. تدلُّ علىٰ إبداعِ الخالقِ في الخلقِ والتيسيرِ علىٰ الناسِ، فهو استدلالٌ يتضمنُ امتنانًا، وفي ذلك الامتنانُ إشعارٌ بحكمةِ اللهِ تعالىٰ إذ جعلَ الأرضَ ملائمةً للمخلوقاتِ التي عليها، فإن الذي صنَعَ هذا الصنعَ لا يعجزُهُ أن يعيدَ الأجسامَ مرةً ثانيةً بعد بِلاها.

١٢. تفيدُ التذكيرَ بعظمِ خلقِ الجبالِ وبنعمتِها حيث ثبت اللهُ بها الأرضَ الممتدةَ حتىٰ تكون ساكنةً لا تضطرب، ولهم فيها منافعُ كثيرة، فمنها مسايلُ الأودية، وقراراتُ المياهِ في سفوحها، ومراعي أنعامِهم، ومستعصمُهُم في الخوفِ، ومراقبُ الطرقِ المؤديةِ إلىٰ ديارِهم إذا طرقها العدوّ وغيرها من المعادن والمنافعِ الشيء الكثير.

١٣. فيها دليلٌ من أدلةِ الإعجازِ في تشبيهِ الجبالِ بالأوتادِ، شكلًا وحقيقةً، شكلًا يدركُهُ الإنسانُ بنظرِه المجرد، أما حقيقتُهُ بأنه تثبتُ الأرضَ وتحفظُ توازنَها فلا تميدُ بفعلِ الزلازلِ والبراكينِ والاهتزازاتِ الجوفيةِ. وقد يكون لسببٍ آخر لم يكشف عنه بعد. وكم من قوانين وحقائق مجهولةٍ أشار إليها القرآن الكريم.

١٤. تفيدُ التذكيرَ بخلقِ الإنسانِ علىٰ البعث؛ لأن غرضَ السياقِ بيانُ ذلك ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، وعبر هنا بفعلِ الخلقِ دون الجعلِ؛ لأنه تكوينُ

ذواتِهم، فهو أدقُ من الجعل. ومن تأملَ في القدرةِ المدبرةِ التي تجعلُ من نطفةٍ ذكرًا وأنثىٰ علِمَ قدرتِه علىٰ البعثِ بعد الموتِ.

١٥. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ الزوجيةِ والتزاوجِ الذي يفيدُ التآلفَ بين الزوجين؛ لأنهما من جنسٍ واحدٍ، يسكنُ كلُّ منهُما للآخر، فتكون المودةُ والرحمةُ، وينشأُ عنهما الراحةُ والمتعة.

١٦. فيها إيماءٌ إلىٰ ما في ذلك الخلقِ من حكمةِ إيجادِ قوةِ التناسلِ من اقترانِ الذكرِ بالأنثىٰ، وهو مناطُ الإيماء إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إمكانِ إعادةِ الأجسادِ، فإن القادرَ علىٰ إيجادِ هذا التكوين العجيبِ ابتداءً بقوةِ التناسلِ قادرٌ علىٰ إيجادِ مثلِه بمثلِ تلك الدقةِ أو أدق.

١٧. تدلُّ علىٰ عظيمِ قدرةِ الله وحكمتِه، حيث خلَقهم بصورةٍ عجيبةٍ، وجعلَهم أزواجًا لحكمٍ عجيبة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، ولذلك صيغَ هذا التقريرُ بتعليقِ فعل ﴿وَخَلَقْنَكُمْ﴾ بضميرِ الناسِ، وجُعل ﴿أَزْوَاجًا﴾ حالًا منه ليحصلَ بذلك الاعتبارُ بكلا الأمرينِ دون أن يقالَ: وخلقنا لَكُم أزواجًا.

١٨. فيها إيماءٌ إلىٰ الحكمةِ من الزوجيةِ في الخلقِ عمومًا، لأنه قد يرادُ بـ﴿أَزْوَاجًا﴾ الذكرُ والأنثىٰ كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم:٤٥]، وقد يرادُ المتقابلات والأضدادُ في الخلقِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]؛ لأنه تعرفُ حقيقةُ الأشياءِ بضدِها، فالإنسانُ إنما يعرفُ قدرَ الشبابِ عند الشيب، وإنما يعرفُ قدرَ الأمنِ عند الخوف، فيكون ذلك أبلغَ في تعريفِ النعم.

١٩. فيهَا ما يحملُ علىٰ الشكرِ، وأنَّ إعراضَهم عن قبولِ الحقِّ

www.Quranonlinelibrary.com

ومكابرتَهم فيما بلغَهم من ذلكَ كفرانٌ لنعمةِ واهبِ النعمِ.

٢٠. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ النومِ وما فيه من راحةٍ؛ لأنَّ وصفَه بسُباتٍ امتنانًا، وهذا الامتنانُ بخلقِ نظامِ النومِ فيهم، لتحصلَ لهم راحةٌ من أتعابِ العملِ الذي يَكدحُون له في نهارِهم، فاللهُ تعالىٰ جعلَ النومَ حاصلًا للإنسانِ بدونِ اختيارِه لتحصلَ الراحة، ويستجدَّ العصبُ قواه التي أوهنَها عملُ الحواسِّ وحركاتُ الأعضاء.

٢١. تفيدُ أن النومَ من أدلةِ البعثِ والنشورِ اليومية، فانتقلَ من الاستدلالِ بخلقِ الناسِ إلىٰ الاستدلالِ بأحوالِهم، وخصَّ منها الحالةَ التي هي أقوَىٰ أحوالِهم المعروفةِ شبهًا بالموتِ الذي يعقبُه البعثُ، وهي حالةٌ متكررةٌ؛ لأن تدبيرَ نظامِ النومِ وما يطرأُ عليه من اليقظةِ أشبهُ حالًا بحالِ الموتِ وما يعقبُه من البعث.

٢٢. تفيدُ أنَّ النومَ ضرورةٌ من ضروراتِ تكوينِ الحي؛ وسرٌّ من أسرارِ القدرةِ الخالقة؛ ونعمةٌ من نعمِ اللهِ لا يملكُ إعطاءها إلا إياه سبحانه وتعالىٰ.

٢٣. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ الليلِ وما فيه من سترٍ وسكنٍ يتناسبُ مع ما يحتاجُه الإنسانُ في وقتِ سباتِه؛ لأَنَّ كونَ الليلِ لباسًا حالةٌ مهيأةٌ مع النوم، ومُعينةٌ علىٰ هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنه بظلمةِ الليل العارضةِ تحتجبُ المرئيات عن الأبصارِ فيعسرَ المشيُ والعملُ والشغلُ وينحطُ النشاطُ، فتتهيأُ الأعصابُ للخمولِ ثم يغشاها النومُ فيحصلُ السبات بهذه المقدماتِ العجيبة، فلا جرمَ أن نظامَ الليلِ آيةٌ علىٰ انفرادِ اللهِ تعالىٰ بالخلقِ وبديعِ تقديره.

٢٤. تدلُّ علىٰ عظمةِ تدبيرِه جل وعلا في جعلِه حركةَ الكونِ موافقةً لحركةِ الأحياء، فكمَا أودعَ الإنسان سرَّ النومِ والسبات، بعدَ العملِ والنشاطِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

في النهار، فكذلك أودعَ الكونَ ظاهرةَ الليلِ ليكون لباسًا ساترًا يتم فيه السباتُ والانزواءُ. وظاهرةُ النهارِ ليكونَ معاشًا تتمُّ فيهِ الحركةُ والنشاط.

٢٥. تفيدُ الامتنانَ بهذا النظامِ الدقيقِ في هذا الكون، بما يظهرُ حكمتَه ولطفَه ورحمتَه بهم، الذي لو قَدَّره العبادُ حقَّ قدرِه لشكروا وما أشركوا، ولعلموا أن الذي فعلَ ذلكَ قادرٌ علىٰ بعثِهم ومحاسبتِهم.

٢٦. تفيدُ بلاغةَ القرآنِ ودقتَه في التعبيرِ بوصفِ الليلِ لباسا، وأصلُ اللباسِ هو الشيءُ الذي يلبسُه الإنسانُ ليكونَ له سترًا، وجمالًا، ووقايةً، فظلمةُ الليلِ تسترُ الإنسانَ عن العيونِ إذا أرادَ هربًا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء ما لا يحبُ الإنسانُ إطلاعَ غيرِهِ عليه، فيختلِي بشؤونِه التي لا يرتكبُها في النهارِ، والإنسانُ بسببِ اللباس يزدادُ جمالُهُ وتتكاملُ قوتُهُ، ويندفعُ عنه أذَىٰ الحرِّ والبرد، فكذا لباسُ الليلِ بسببِ ما يحصلُ فيه من النومِ يزيدُ في جمالِ الإنسان، وفي طراوةِ أعضائِه، وفي تكاملِ قواه الحسية والحركية، ويندفعُ عنه أذىٰ التعبِ الجسماني، وأذىٰ الأفكارِ الموحشةِ النفسانيةِ، فإن المريضَ إذا نامَ بالليلِ وجد الخفةَ العظيمة(١). واللَّيلُ يقي الإنسانَ من الأخطارِ والاعتداءِ عليه، فكانَ العربُ لا يَغيرُ بعضُهُم علىٰ بعضٍ في الليلِ، وإنما تقعُ الغارةُ صباحًا، ولذلك إذا غِيرَ عليهم يصرخُ الرجل بقومِه بقولِهِ: يا صَبَاحَاه. ويقال: صَبَّحَهم العَدوُّ.

٢٧. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ النهارِ الذي جعلَه اللهُ مهيأ للحركةِ والمعاش، فلما ذكرَ خلقَ نظامِ الليلِ قوبلَ بذكرِ خلقِ نظامِ النهار، وفيه عبرةٌ بدقةِ الصنعِ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب الرازي (١٦/ ٢٨٧).

وإحكامِه إذ جُعِلَ نظامان مختلفان منشؤهُما سطوعُ نورِ الشمسِ واحتجابُه فوقَ الأرض، وهما نعمتان للبشرِ مختلفتان في الأسبابِ والآثارِ؛ فنعمةُ الليلِ راجعةٌ إلىٰ الراحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النهار راجعةٌ إلىٰ العمل والسعي؛ لأنَ النهارَ يعقبُ الليلَ فيكون الإنسانُ قد استجدَّ راحتَه واستعادَ نشاطَه، ويتمكنُ من مختلفِ الأعمالِ بسببِ إبصارِ الشخوصِ والطرق.

٢٨. تفيدُ أهميةَ السيرِ وفقَ سننِ الكونِ بجعلِ دوامِ العملِ بالنهارِ ليتوافقَ مع سننِ الله في الخلقِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

٢٩. تفيدُ التنبه لعظمِ السمواتِ التي هيَ في غايةِ القوةِ، والصلابةِ والشدةِ، وقد أمسكَها اللهُ بقدرتِه، وجعلَها سقفًا للأرضِ، بما يدلُ علىٰ عظيمِ قدرته.

٣٠. تفيدُ التنويه بما في السمواتِ من منافعَ للخلقِ عموما ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

٣١. تفيدُ التنويه بنعمةِ الشمسِ من خلالِ ذكرِ شيءٍ من منافعِها من النورِ الضروري للخلقِ ﴿سِرَاجًا﴾، وبالحرارة لما فيها من مصالح ﴿وَهَّاجًا﴾.

٣٢. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ الماءِ النازلِ من السحابِ بكثرةٍ تفي بحاجةِ الخلق، ويحققُ مصالحَ الخلقِ في إنباتِ النبات.

٣٣. تفيدُ الاستدلالَ بحالةٍ أخرَىٰ من الأحوالِ التي أودعَها اللهُ تعالىٰ في نظامِ الموجوداتِ، وجعلَها شبيهةً بحياتِهم بعدَ الموت، وهي إنزالُ ماءِ المطرِ من السحابِ، وإحياءُ الأرضِ الميتة.

٣٤. تفيدُ أن المخرجَ للنعمِ هو اللهُ بالأسبابِ التي يقدِّرُها فبينَ حكمةَ

www.Quranonlinelibrary.com

إنزالِ المطرِ من السحابِ بأنَّ اللهَ جعلَه لإنبات النبات من الأرضِ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾.

٣٥. تفيدُ دقةَ انسجامِ الألفاظِ مع المعنىٰ المرادِ إيصاله، فجيء بفعلِ ﴿لِّنُخْرِجَ﴾ دون نحو: (لننبت)، لأن المقصودَ الإيماءُ إلىٰ تصويرِ كيفيةِ بعثِ الناسِ من الأرضِ إذ ذلك المقصدُ الأول من هذا الكلام، ألا ترىٰ أنه لما كان المقصدُ الأولُ من آيةِ سورةِ (ق) هو الامتنانُ جيء بفعلِ ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧].

٣٦. فيها منّةٌ علىٰ المعْرِضِين عن النظرِ في دلائلِ صنعِ الله التي هي دواعٍ لشكرِ المنعمِ بها؛ لما فيها من منافعَ للناسِ من رزقِهم ورزقِ أنعامِهم[١].

٣٧. تفيدُ أهميةَ الحبوبِ من برٍ، وشعيرٍ، وذرةٍ، وأرزٍ، وغيرِ ذلك مما يأكله الآدميون ويدَّخرونه من الغذاءِ؛ ولذا قدمَه وامتنَ بإخراجه.

٣٨. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ سائرِ النبات والبساتينِ المتنوعة.

٣٩. فيها أن امْتَنانه سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ عبادِهِ بإِنزالِهِ الماءَ المُباركَ مِنْ السَّماءِ، وبإِخراجِهِ الحبَّ والنَّباتَ ولفيفَ الجنَّاتِ وكلُّ ما امتنَّ اللهُ بِهِ مِنْ النِّعمِ؛ ففيهِ حقُّ الصَّدقةِ بالشُّكرِ فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ شُكْرَ نِعْمَةِ الْمَالِ، كَمَا جعلَ الصَّلَاةَ شُكرَ نِعْمَةِ البدنِ[٢].

٤٠. تفيدُ أن إحياءَ الأرضِ بالنباتِ من أقوىٰ أدلةِ البعث، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٨/ ١١).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٤١. تفيدُ أن الاستدلالَ بهذِه الأمور من قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ [النبأ:١٦] وما ذكر فيها من أفعالِه يدلُّ دلالةً بينةً قاطعةً علىٰ صحةِ البعثِ وحقيقتِه من وجوه ثلاثة:

الأول: باعتبارِ قدرتِه تعالىٰ فإن من قدِرَ علىٰ إنشاءِ هٰذِه الأفعالِ البديعةِ من غيرِ مثالٍ يحتذيه، ولا قانونٍ ينتحيه؛ كان علىٰ الاعادةِ أقدر وأقوىٰ.

الثاني: باعتبارِ علمِه وحكمتِه فإن من أبدعَ هذه المصنوعات علىٰ نمطٍ رائعٍ مستتبعٍ لغاياتٍ جليلة ومنافعَ جميلةٍ عائدةٍ إلىٰ الخلقِ يستحيلُ أن يفنيَها بالكليةِ ولا يجعلَ لها عاقبة باقية.

والثالث: باعتبار نفسِ الفعلِ فإن اليقظةَ بعدَ النومِ أنموذجٌ للبعثِ بعد الموتِ يشاهدونَها كلَّ يومٍ، وكذا إخراجُ الحبِ والنباتِ من الأرضِ الميتة يعاينوه كلَّ حين، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعالِ الآفاقيةِ والأنفسيةِ الدالةِ بفنونِ الدلالاتِ علىٰ حقيقةِ البعثِ الموجبةِ للإيمانِ بِهِ فما لكم تخوضون فيه إنكارًا وتتساءلون عنه استهزاءً؟![(١)].

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

بيَّن اللهُ تعالىٰ أولًا إنكارَهم واختلافَهم في البعثِ والنشورِ، وعرضَه بصورةٍ مبهمة، فيها التهويلُ والتعجبُ فقال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، ثم تركهم مع ذلك التهديد والتهويل ليبين لهم الدلائل القاطعة والحججِ الدامغة من خلال جميلِ صنعِه وعظيمِ آياتِه ما يدلُّ علىٰ البعثِ والنشورِ.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ٨٨).

وقد ابتدئت هذه الدلائلُ بدلائلِ خلقِ الأرضِ وحالتِها؛ لأن البعثَ هو إخراجُ أهلِ الحشرِ من الأرضِ فكانتِ الأرضُ أسبقَ شيءٍ إلىٰ ذهنِ السامعِ عند الخوضِ في أمرِ البعثِ، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾. ثم جالت بهم علىٰ أهمِّ ما علىٰ الأرضِ من الجمادِ والحيوانِ، فقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، ومناسبةُ ذكرِ الجبالِ دعا إليها ذكرُ الأرضِ، وتشبيهُها بالمهادِ الذي يكون داخلَ البيتِ، فشبهت جبالُ الأرضِ بأوتادِ البيتِ تخييلًا للأرضِ مع جبالِها بالبيتِ ومهادِه وأوتادِه. وأيضًا فإن كثرةَ الجبالِ الناتئةِ علىٰ وجهِ الأرضِ قد يخطرُ في الأذهانِ أنها لا تناسبُ جعلَ الأرضِ مهادًا فكان تشبيه الجبالِ بالأوتادِ فهو من المهادِ كي لا تميدَ بأهلها.

ولما ذكر بما في الظرفِ الذي هو فرشُهُم من الدلالةِ علىٰ تمامِ القدرةِ، أتبعَه التذكيرَ بما في المظروفِ وهو أنفسُهُم لتجتمعَ آياتِ الأنفسِ والآفاقِ فيتبين لهم أنهُ الحق، فقال: ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾. ولما ذكرَ ما هو سببٌ لبقاءِ النوعِ ذكرَ ما هو سببٌ لحفظهِ من إسراعِ الفساد، وهو النومُ الذي تحصلُ به الراحة، وهو مذكرٌ بالموتةِ الكبرىٰ والاستيقاظُ مذكرٌ بالبعث، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

ولما ذكرَ تعالىٰ النوم اتبعَه بذكرِ وقتِه الأليقِ به، مذكرًا بنعمةِ الظرفِ الزماني بعد التذكيرِ بالظرفِ المكاني فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ لتسكنوا فيه عن المعاشِ، ولما تكلمَ عن آيةِ الليلِ تكلمَ عن ما يقابلُها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: وقتًا للتقلبِ الذي هو من أسبابِ المعاش.

ولما ذكرَ المهادَ وما فيه رفعَهم في التجوالِ للنظر في خلقِ السقفِ المتناسقِ مع الأرضِ والأحياءِ الذي هو في غايةِ القوةِ والإحكام، لا صدعٌ

فيها ولا فتق، لا يؤثرُ فيها كرُّ العصور ولا مرُّ الدهور، حتىٰ يأتيَ أمرُ اللهِ بإظهارِ عظائم المقدور فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾.

ولما ذكرَ السقفَ ذكرَ أعظمَ ما يشاهدُه الناسُ في فضائِه، لما فيه من أمهاتِ المنافع، وهي الشمسُ المضيئةُ الباعثةُ للحرارةِ التي تعيشُ عليها الأرض وما فيها من الأحياءِ، ففي ذلكَ مع العبرةِ بخلقِها عبرةٌ في كونِها علىٰ تلك الصفة، ومنّةٌ علىٰ الناسِ باستفادتِهم من نورِها فوائدَ جمة، وكذلك حرارتُها التي تؤثرُ في تكوينِ السحائبِ بتبخيرِ المياهِ من المحيطِ الواسعِ في الأرضِ ورفعها إلىٰ طبقاتِ الجوِّ العليا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾. ولما ذكرَ ما تثيرُها من الرطوبةِ بحرارتِها أتبعَهُ بذكر ما ينشأ عنه المطر الذي يطفئُ الحرارةَ برطوبتِهِ وبرودته، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، ولما ذكر ما ينزل من السماء من ماء ذكر الذي من أجله أنزله لينشأ عنه المأكلُ والمشرب فقال: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وبالنزولِ إلىٰ دلائلِ السحابِ والمطرِ، وما يخرجُ من الأرضِ من بدائعِ الصنائعِ، ومنتهىٰ المنافعِ، نزولًا بهم من حيثُ صَدروا، وذلك من ردِّ العجز علىٰ الصدرِ وهو من بديعِ دلائلِ كتابه؛ حيث بدئت الدلائل بالأرض وختمت بها.

فهذا التناسقُ الدقيقُ بينِ الكونِ وما خلقَ فيه بدرجاتٍ تذهلُ العقولَ وتحيرُ الألبابَ من جعلِ الأرضِ مهادًا، والجبالِ أوتادًا، وخلقِ الناسَ أزواجًا، وجعلِ نومَهم سباتًا، مع جعل الليلِ لباسًا للسترِ والانزواءِ، وجعل النهارِ معاشًا للوعي والنشاط، ثم بناءَ السبعِ الشداد، وجعلَ السراجِ الوهاجِ، وإنزالِ الماءِ الثجاجِ من المعصرات؛ لإنباتِ الحبِ والنباتِ والجناتِ يدلُ علىٰ أن من وراءِ هذهِ الحقائقِ والمشاهدِ خالقٌ قادرٌ ينسقُه، بحكمٍ بالغةٍ

www.Quranonlinelibrary.com

تقدرُه، وإرادةٌ تدبرُه، وتجعلُ القولَ أن كل ذلك مصادفة قولًا ساقطًا تافهًا لا يستحقُ التعقيب المناقشة، ومن هنا انتقل الحديث عن يومِ الفصلِ الموقوت وإن انكره المنكرون فقال: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ [النبأ: ١٧].

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الثاني
بيانُ ما يسبقُ القيامةَ من أحداثٍ، ومصيرُ الطغاةِ والتقاة فيه

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾
إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا
﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾
وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ
عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ١٧ - ٣٦].

أولًا: المناسبةُ بين الآيات:

لما بيَّنَ الأدلةَ القاطعةَ علىٰ البعثِ والجزاءِ الذي أنكرَه المشركونَ واختلفوا فيه، وقد يتساءلُ بعضُهم عن وقتِه جاءت الآياتُ في بيانِ وقتِه، وكيفيةِ وقوعِه، ثم فصَّلَ فيما سيكونُ في يوم الفصلِ من عذابٍ للطاغينَ، ونعيمٍ للمتقينَ.

ولما كان من خلالِ الأدلةِ السابقةِ ما يثبتُ قيامَ الساعةِ عقلًا، وكان ما وراءَ ذلك من وقتِ حدوثِها وكيفيةِ حدوثِها، وما يصيرُ لأهلِها، فلا سبيلَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

إليه إلا بالسمعِ جاءَ الحديثُ عن ذلك تفصيلا. وقد هيأَ للانتقالِ مناسبةَ ذكرِ الإخراجِ من قوله: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا...﴾؛ لأنَّ ذلك شُبه بإخراجِ أجسادِ الناسِ للبعثِ كما قال تعالىٰ في سورة ق: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ - ١١]. ولهذا قيل: لما ختمَ الأدلةَ والبراهينَ بإخراجِ النباتِ من الأرضِ الميتة جاءَ الكلامُ عن وقتِ القيامةِ الذي هو خروجٌ للناسِ من قبورِهم، ولما كانت تلك الأمورُ كلُّها في دارِ العملِ والمتاعِ، جاءَ بعدَها الكلامُ عن دارِ الفصلِ والجزاءِ، وبدأ بمصيرِ الطغاةِ المكذبينَ بالبعثِ في هذِه السورة.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. ٱلۡفَصۡلِ: التمييزُ بين الأشياءِ المختلطةِ، والمرادُ الفصلُ بين الخلائقِ ليجزي كلَّ امرئٍ بما كسبَ. ويومُ الفصلِ: يومُ البعثِ للجزاءِ.

٢. مِيقَٰتٗا: مؤقتٌ بأجلٍ معدودٍ لا يزادُ عليه ولا ينقصُ منه. والميقاتُ: مفعالٌ مشتقٌّ من الوقتِ، والوقتُ: الزمانُ المحدَّدُ في عملٍ ما، والسياقُ دلَّ علىٰ متعلق ميقات، أي كان ميقاتًا للبعثِ والجزاء.

٣. يَوۡمَ يُنفَخُ: أي يومَ ينفخُ اسرافيلُ في الصور.

٤. ٱلصُّورِ: في اللغة القرنُ، والبوقُ، وهو قرنُ ثَورٍ فارغِ الوسطِ مضيقٍ بعضَ فراغه، ويتخذُ من الخشبِ أو من النحاسِ، يَنفخُ فيه النافخُ فيخرجَ منه الصوت قويًا لنداءِ الناسِ إلىٰ الاجتماعِ، وأكثرُ ما ينادَىٰ به الجيشُ والجموعُ المنتشرةُ لتجتمعَ إلىٰ عملٍ يريده الآمرُ بالنفخِ، وهو من حيث المعنىٰ في الآية الله تعالىٰ أعلم بكيفيته.

٥. أَفۡوَاجٗا: الأفواجُ: جمعُ فوجٍ بفتحِ الفاءِ وسكون الواو، والفوجُ: الجماعةُ المتصاحبةُ من أناسٍ مقسَّمين باختلافِ الأغراضِ، فتكونُ الأممُ أفواجًا ويكونُ الصالحون وغيرُهم أفواجًا قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك:٨].

٦. وَفُتِحَتِ : أي: شققت.

٧. أَبۡوَٰبٗا: الأبوابُ: جمع بابٍ، وهو الفُرجةُ التي يُدخلُ منها في حائلٍ من سورٍ، أو جدارٍ، أو حجابٍ، أو خيمةٍ، أي: طرقًا ومسالكَ لنزولِ الملائكةِ.

٨.وَسُيِّرَتِ: التسييرُ: جعلُ الشيءِ سائرًا، أي ماشيًا. وأطلقَ هنا علىٰ النقلِ من المكانِ، أي: نقلت الجبالُ وقلعت من مقارِّها.

٩. سَرَابًا: أي تصيرُ كالسرابِ، والسرابُ هو ما يلوحُ في الصحارِي مما يشبهُ الماءَ وليس بماءٍ، أي يخيلُ إلىٰ الناظرِ أنها شيءٌ وليست بشيءٍ.

١٠. مِرۡصَادٗا: مرصدةٌ معدةٌ لهم، يقال: أرصدت له الشيءَ إذا أعددتُه له، والرصدُ هو الارتقابُ والانتظارُ، أي: راصدةٌ لهم. قال الأزهري: المرصادُ المكانُ الذي يرصدُ الراصدُ فيه العدوَّ.

١١. لِّلطَّٰغِينَ : الطغيانُ: تجاوزُ الحدِّ في عدمِ الاكتراثِ بحقِ الغيرِ والكِبْرُ.

١٢. مَـَٔابٗا: مرجعًا ومنقلبًا ومصيرًا، يقال آبَ إلىٰ مكانِ كذا أي: رجعَ وانقلبَ.

١٣. لَّٰبِثِينَ : واللابث: المقيمُ بالمكانِ، أي ماكثينَ.

١٤. أَحۡقَابٗا: جمع حُقب، وهو المدةُ الطويلةُ من الزمنِ غير محددة. وقيل: وهو زمنٌ طويلٌ نحو الثمانين سنةٍ كما في قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] في سورة الكهف.

١٥. يَذُوقُونَ : حقيقةُ الذوقِ: إدراكُ طعمِ الطعامِ والشرابِ. ويطلقُ علىٰ الإحساسِ بغيرِ الطعومِ إطلاقًا مجازيًا. وشاعَ في كلامِهم، يقال: ذاق الألَمَ، وعلىٰ وجدانِ النفسِ كقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥].

١٦. بَرۡدٗا: قيل نومًا، وقيل: راحةً، وقيل: ما يبردُ حرَّ السعيرِ ولهبه. والبَرْد: ضد الحرّ.

١٧. شَرَابًا: الشرابُ: ما يُشربُ، والمرادُ به الماء الذي يزيلُ العطش.

١٨. حَمِيمًا : وهو الماءُ الحارُ الذي قد انتهىٰ حرُّهُ وحموُهُ.

١٩. وَغَسَّاقًا: هو ما اجتمعَ من صديدِ أهلِ النارِ وعرقِهم ودمعِهم وجروحِهم.

٢٠. وِفَاقًا: مصدرُ وَافقَ وهو مُؤولٌ بالوصف، أي موافقًا للعملِ الذي جوزوا عليه.

٢١. لَا يَرۡجُونَ : لا يخافونَ.

٢٢. حِسَابًا: الحسابُ: العدُّ، أي عدُّ الأعمالِ والتوقيفُ علىٰ جزائها، وحسابُ الأشياءِ لضبطِ عددِها فالإحصاءُ كنايةٌ عن الضبطِ والتحصيل.

٢٣. كِذَّابًا: أي تكذيبًا مفرطًا.

٢٤. نَّزِيدَكُمۡ : الزيادةُ: ضمُّ شيءٍ إلىٰ غيرِه من جنسٍ واحدٍ أو غرضٍ واحدٍ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٥].

٢٥. لِلۡمُتَّقِينَ: أي الذين اتقوا الشركَ والمعاصيَ خوفًا من ربِهم وعذابِه.

٢٦. مَفَازًا: مصدرٌ بمعنىٰ الفوزِ والظفرِ بالنعمةِ والمطلوبِ، والنجاةِ من المرهوبِ، والمفازُ: موضعُ الفوز، وهو الجنة.

٢٧. حَدَآئِقَ: البساتين التي فيها أنواعٌ من الأشجارِ المثمرةِ ذواتِ الساقِ

www.Quranonlinelibrary.com

من النخيلِ وغيرِها، المحوَّطِ عليها.

٢٨. وَأَعۡنَٰبٗا: والأعنابُ: جمعُ عِنَبٍ، وهو اسمٌ يطلقُ علىٰ شَجرةِ الكَرْم، ويطلقُ علىٰ ثمرِها.

٢٩. وَكَوَاعِبَ: جمعُ كاعِبٍ، وهي الجاريةُ التي بلغت سنَ خمسَ عشرةَ سنة ونحوها. ووصفت بكاعبٍ؛ لأنها تكَعَّب ثديُها، أي صارَ كالكعبِ، أي استدارَ ونتأ، أي ثديهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار.

٣٠. أَتۡرَابٗا: جمعُ تِربٍ بكسرِ فسكون: هو المساوي غيرُه في السِنّ، وقيل: ثلاثًا وثلاثين سنة.

٣١. دِهَاقٗا: مملوءةٌ متتابعةٌ صافية، والدهقُ والإدهاقُ ملءُ الإناءِ من كثرةِ ما صبّ فيه، قال عِكرمةُ: قال ابنُ عباس: سمعتُ أبي في الجاهليةِ يقول: اسْقِنَا كأسًا دِهاقًا.

٣٢. لَغۡوٗا: الكلامُ الباطلُ اللاغي المطروحُ العارُ عن الفائِدة. وقيل فحشًا وخبثًا.

٣٣. وَلَا كِذَّٰبٗا: أي: لا يكذبُ بعضُهم بعضا.

٣٤. عَطَآءً: تفضلًا وإحسانًا منه تعالىٰ إذ لا يجبُ عليه شيء.

٣٥. حِسَابٗا: أي كافيًا وافيًا شاملًا كثيرًا، تقول العربُ: أعطاني فأحسبني أي كفاني. قال ابنُ قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: نعطيه حتىٰ يقولَ حسبي، قال الزجاجُ: حسابا أي: ما يكفِيهم»[1].

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٤٦).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ أن الله تباركَ وتعالىٰ جعلَ يومَ القيامةِ ميعادًا محددًا معلومًا عندَه لجمعِ الخلائقِ وحسابِهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٤].

٢. تفيدُ أن الفصلَ بين الخلائقِ فيما هم فيه يختلفون يكونُ في الآخرةِ خاصةً في قضيةِ البعثِ للفصلِ بين الصدقِ وكذبهم، ويفصلُ اللهُ بينَ الخلائقِ بحكمِه الذي لا يجور، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [السجدة:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٣. تفيدُ أن القرآنَ يأتي في كلِّ موضعٍ باللفظِ الذي يناسبُ المعنىٰ المرادَ في السورةِ؛ لذا أوثرَ التعبيرُ عن يومِ القيامةِ هنا بيومِ الفصلِ لما ذكرَ في مقدمتِها من الاختلافِ.

٤. تفيدُ أن هذا اليومَ الذي يختلفونَ فيهِ لا شكَّ فيه؛ لأن فعلَ ﴿كَانَ﴾ يفيدُ أن توقيتَه متأصلٌ في علمِ الله لِما اقتضته حكمتُهُ تعالىٰ التي هوَ أعلمُ بها، وأن استعجالَهم به لا يقدِّمه علىٰ ميقاتِه. وكونُه ﴿مِيقَٰتٗا﴾ كنايةٌ تلويحيةٌ عن تحقيقِ وقوعِه إذ التوقيتُ لا يكونُ إلا بزمنٍ محققِ الوقوعِ ولو تأخرَ وأبطأ.

٥. تفيدُ أن التعبيرَ بيومِ الفصلِ يورثُ في النفسِ الخشيةَ مما فيه، وقد وردَ في خمسةِ مواضع في القرآنِ في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات:٢١]، وقوله: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الدخان:٤٠]، وقوله:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [المرسلات: ١٤]، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وهنا في هذه السورة.

٦. تفيدُ ما يحدث في النفخةِ الثانيةِ، نفخةِ القيامِ التي يجمعُ الله فيها الخلائقَ. وعطفَ (تأتون) بالفاءِ لإفادةِ تعقيبِ النفخِ بمجيئِهم إلىٰ الحسابِ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾.

٧. تفيدُ أن صورةَ حشدِ الخلائقِ وجمعِهم جميعًا في وقتٍ واحدٍ، وفي ساعةٍ واحدةٍ، وفي مكانٍ واحدٍ يدلُّ علىٰ عظمةِ ذلكَ اليومِ وهولِه، وعظمةِ وقدرةِ من جمَعَهُم وخضعوا جميعًا له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٧-٤٩].

٨. تفيدُ أن الناسَ يأتونَ للمحشرِ من كلِّ مكان، لأن الإتيانَ يفيدُ الحضورَ بالمكانِ الذي يمْشي إليه الماشي.

٩. تفيدُ سرعةَ الحشرِ للخلائقِ؛ لأنه حذفَ ما يحصلُ بين النفخِ في الصورِ وبين حضورِهم لزيادةِ الإيذانِ بسرعةِ حصولِ الإتيانِ حتَّىٰ كأنَّه يحصلُ عند النفخِ في الصورِ وإن كانَ المعنىٰ: ينفخُ في الصورِ فتحيَوْنَ فتسيرونَ فتأتون.

١٠. تفيدُ أن الناسَ يأتونَ زمرًا زمرًا للحسابِ، مقسَّمينَ طوائفَ وجماعاتٍ، وهذا التقسيمُ بحسبِ الأحوالِ كالمؤمنين والكافرين وكل أولئك أقسامٌ ومراتب، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢].

١١. تفيدُ تفتحَ أبوابِ السماءِ في يومِ القيامةِ لنزولِ الملائكةِ، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقد جاءَ الفعلُ ماضيًا والحدثُ لم يقع بعد لتأكدِ وقوعِه وتحققِه وقربه.

١٢. تفيدُ شدةَ تفتحِ السماءِ في ذلكَ اليومِ، يستفادُ ذلكَ من قراءَة التشديدِ، وبالإخبارِ عن السماءِ بأنها أبوابٌ جرىٰ علىٰ طريقِ المبالغةِ في الوصفِ بذاتِ أبواب للدلالةِ علىٰ كثرةِ المفتحِ فيها حتىٰ كأنها هي أبوابٌ، وقريب منه قوله تعالىٰ: ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: ١٢] حيثُ أسندَ التفجيرَ إلىٰ لفظِ الأرضِ، وجيءَ باسمِ العيونِ تمييزًا.

١٣. تفيدُ مصيرَ الجبالِ يومِ القيامةِ، وما تؤولُ إليه من الزوالِ والتلاشي والفناءِ، وفي ذلك بيانٌ لشدةِ ذلكَ اليومِ وهولِه، وقد ذكرَ اللهُ هنا حالينِ للجبالِ التسييرُ وتحولِها إلىٰ هيئةِ السرابِ، وبينهما مراحل كقوله تعالىٰ ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل: ١٤]، وقوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]، وقوله: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ [الواقعة: ٥-٦]، وبينهما كذلكَ الدكُّ، والنسفُ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٣-١٨]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

١٤. تفيدُ أن جهنمَ اسمٌ لدارِ العذابِ في الآخرةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

١٥. تفيدُ أن جهنمَ راصدةٌ لأهلها ترقبُهم وتنتظرُهم لتأخذَهم وهي مهيأةٌ لاستقبالِهم للإقامةِ الطويلةِ المتجددةِ حقبًا مفتوحة، كما يترقبُ أهل المرصادِ من يَأتيهِ من عدوٍّ، وقد ذكرت في اثنين وسبعين موضعًا في القرآن.

١٦. تفيدُ أن جهنمَ مخلوقةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي معدةً، وإذا كان كذلكَ كانتِ الجنةُ أيضًا كذلك؛ لأنه لا قائل بالفرق.

١٧. تفيدُ عاقبةَ الطغيانِ والتنفيرِ عنه، وعاقبةَ أهله ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

١٨. تفيدُ سعةَ علمِ الله تعالىٰ حيثُ أعدَّ في أزلِهِ عقابًا للطّاغين.

١٩. تفيدُ أن المسلمينَ المستخفِّين بحقوقِ الله، أو المعتدين علىٰ الناسِ بغيرِ حقٍّ، لهم حظٌّ من هذا الوعيدِ بمقدارِ اقترابِهم من حالِ أهل الكفرِ.

٢٠. تفيدُ أن أهلَ النارِ من الكفارِ يخلدونَ فيها كلما انقضَىٰ حقبٌ تبعه آخر ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

٢١. تفيدُ أن أهلَ النارِ لا يجدونَ فيها راحةً ولا نومًا، ولا ما يبردُ عنهم حرَّ السعير ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾.

٢٢. تفيدُ أن أهلَ النارِ لا يجدونَ شرابًا يسكنُ ما بهم من حرِّ العطش ﴿وَلَا شَرَابًا﴾.

٢٣. تفيدُ أن أهلَ النارِ يسقونَ من ماءٍ حميمٍ قد انتهىٰ حرُّه، ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

٢٤. تفيدُ أن أهلَ النارِ يشربونَ القيحَ الغليظَ، وهو صديدُ أهلِ النارِ، الذي هو في غايةِ النتنِ، وكراهةِ المذاقِ، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

٢٥. فيها بيانُ شدةِ عذابِ أهلِ النارِ التي يحرمونَ فيها من كلِّ نعيمٍ وراحةٍ، ويبذلُ لهم كلَّ عذابٍ وشقاءٍ، ولهذا نفىٰ عنهم البردَ والشرابَ وأثبتَ لهم الحميمُ والغساق.

٢٦. تفيدُ أن جزاءَ الكفارِ جاءَ موافقًا لأعمالِهم القبيحة ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾. قال ابن زيد: رَحِمَهُ ٱللَّهُ «عملوا شرًا، فجوزوا شرًا»[١]، فأصلُ إصرارِهم علىٰ الكفرِ، وهما أصلان: أحدهما عدميٌّ وهو إنكارُ البعثِ، والآخر وجوديٌّ وهو نسبتُهم الرسولُ والقرآنُ للكذب، فعوقبوا علىٰ الأصلِ العدميِّ بعقابٍ عدميٍّ وهو حِرمانُهم من البردِ والشرابِ، وعلىٰ الأصلِ الوجوديِّ بجزاءٍ وجوديٍّ وهو الحميمُ يراقُ علىٰ أجسادِهم والغساقُ يمرُّ علىٰ جراحِهم[٢].

٢٧. تفيدُ أن الكافرَ لا يخشىٰ الحسابَ في الآخرةِ خلافَ المؤمن ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

٢٨. تفيدُ عاقبةَ التكذيبِ بآياتِ اللهِ تعالىٰ، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾، وقال

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٦/ ١٤٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨).

تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٢٩. تفيدُ أن المؤمنَ يرجو لقاءَ اللهِ، ولذا يعملُ الصالحات، وهو عكسُ الكافرِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

٣٠. تفيدُ أنَّهم كذبُوا بجميعِ دلائلِ اللهِ تعالىٰ في التوحيدِ والنبوةِ والمعادِ والشرائعِ والقرآنِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾.

٣١. تفيد أن كلَّ ما يفعلَه العبدُ - المؤمن والكافر - محصيٌّ ومسجلٌ عليه بدقة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴾[القمر: ٥٣]. أي: ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ ﴾ من قليلٍ وكثيرٍ، وخيرٍ وشرٍ ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ أي: كتبناه؛ لأن المرادَ بالكتابةِ بيانُ شدةِ الضبطِ؛ لأن الأمورَ المكتوبةَ مصونَة عن النسيانِ والإغفالِ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

٣٢. تفيدُ كمالَ علمِ اللهِ؛ وأنهُ لا يخفَىٰ عليهِ شيءٌ من أعمالِهم، فلا يدعُ شيئًا من سيئاتِهم إلا يحاسبُهم عليها ممَا ذكرَ هنا وما لم يذكر؛ كأنه قيل: إنهم كانوا لا يرجونَ حسابًا وكذبوا بآياتنا، وفعلوا مما عدَا ذلك وكلُّ ذلك محصيٌّ عندنا.

٣٣. تفيد أن هذه الآيةَ أشدُّ الآياتِ في بيان شدةِ عذابِ أهلِ النارِ أجارَنا الله منها، لأنها بشرت بزيادةِ عذابِ الكافرِ في النار ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾.

٣٤. فيها بيانُ حقارةِ أهلِ النارِ وهوانِهم وشدةِ عذابِهم الذي ينقطعُ معه كلُّ رجاءٍ حتىٰ لمجردِ التخفيف.

٣٥. تفيد أن القرآنَ مثانٍ يجمعُ بين الترهيبِ والترغيبِ، فلما ذكرَ حالَ المجرمين ذكرَ مآلَ المتقين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

٣٦. فيها بيانُ كرامةِ المتقين، وفضلِ التقوىٰ، والحثِ عليها، وهي متمثلةٌ في الإيمانِ بما جاء به النبيُّ، واتباعِ أمرِه، واجتنابِ نهيه، تقربًا لله تعالىٰ، وفي تقديمِ خبرِ ﴿إِنَّ﴾ علىٰ اسمِها للاهتمامِ به تنويهٌ بالمتقين.

٣٧. تفيدُ ما في الجنةِ من البساتين الجامعةِ لأصنافِ الأشجارِ الزاهية، بالثمارِ الطيبة، التي تتفجرُ من خلالِها الأنهار.

٣٨. تفيدُ فضلَ العنبِ؛ حيثُ خصَّ أشجارَها بالذكرِ لطيبِها وحسنِها وشرفِها وما فيها من لذةِ الذوق، وعبرَ عن أشجارِها بثمرتِها لأنها أعظمُ منافعِها.

٣٩. تفيدُ ما لنساءِ الجنةِ من قوةٍ ونضارةٍ علىٰ مطالبِ ومطايبِ النفوس، في قمةِ شبابهن لم ينكسرْ ثديهن.

٤٠. تفيدُ ما بينِ نساءِ الجنةِ من تآلفٍ وحسنِ تعاشر؛ لأن معنىٰ أتراب علىٰ سنٍ واحدٍ متقاربات، ومن عادةِ الأترابِ أن يكن متآلفاتٍ متعاشرات.

٤١. تفيدُ كمالَ جميعِ نساءِ الجنة؛ لأن وصفهن بالأترابِ لما بينهن من التساوي في الحسنِ، لا تفوتُ واحدةٌ منهن غيرَها، أي فلا تكون النفسُ إلىٰ إحداهِن أميل منها إلىٰ الأخرىٰ، فتكون بعضُهُن أقلَّ مسرةً في نفسِ الرجل. ويجوزُ أن يكونَ هذا الوصفُ بالنسبةِ بينهن وبين أزواجهن.

٤٢. تفيدُ حسنَ نعيمِ الجنةِ بينَ الرجالِ والنساءِ؛ لأنهم جميعًا يكونون

شبابًا فهن أترابٌ له، وهو تربٌ لهن، وهو أكملُ في المعاشرة؛ وأوفقُ في العشرةِ بين الزوجين بطرحِ التكلفِ.

٤٣. تفيدُ عظمةَ شرابِ أهلِ الجنة، يشربون مما لذَّ وطابَ من سلسبيلٍ، ورحيقٍ، وتسنيمٍ، وغيرِه بكأسٍ مملوءَة، صافيةٍ، متتابعةٍ.

٤٤. تفيدُ أنه لما أحاطَ بأهلِ جهنمَّ أشدُّ الأذىٰ بجميعِ حواسِّهم من جراءِ حرقِ النار وسقيِهم الحميمِ والغساقِ لينالَ العذابُ بواطنَهم كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم، نفىٰ هنا عن أهلِ الجنةِ أقلَّ الأذىٰ، وهو أذىٰ سماعِ ما يكرَهه الناسِ فإن ذلك أقل الأذىٰ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾.

٤٥. تفيدُ انتفاءَ اللغوِ والكذبِ في الجنةِ؛ لأنه لو كان فيها لغوٌ وكذبٌ لسمعوه، فأهلُ الجنةِ منزهةٌ أسماعُهُم عن سقطِ القولِ وسفلِ الكلام، كما في قولِه في سورةِ الواقعة ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة:٢٥].

٤٦. تفيدُ أن أهلَ الجنةِ لا يسمعون إلا أطيبَ الحديثِ، كما قال تعالىٰ:
﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

٤٧. تفيدُ ذمَّ الكذبِ واللغوِ وأهلِهما.

٤٨. تفيدُ عظمَ ثوابِ أهل الجنة، حيث أضافه إليه، ووصفه بأنه لا حساب فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي كافيًا وافيًا شاملًا كثيرًا.

٤٩. تفيدُ أن وصفَ الجزاءِ بالعطاءِ، وهو بمعنىٰ التفضلِ به بدونَ عوضٍ للإشارة إلىٰ أن ما جوزوا به أوفرُ مما عملوه، فكان ما ذكرَ للمتقين من المفازِ، وما فيها جزاءً وشكرًا لهم، وعطاءً كرمًا من اللهِ تعالىٰ وكرامةً لهذه الأمةِ إذ جعلَ ثوابَها أضعافًا.

٥٠. تفيدُ شرفَ عطاءِ الربِّ، وشرفَ النبيِّ ﷺ بإضافتِهِ إليه. فإضافةُ ﴿رَبِّ﴾ إلىٰ ضميرِ المخاطبِ مرادٌ به النبيُّ للإيماءِ إلىٰ أن جزاءَ المتقين بذلك يشتملُ علىٰ إكرامِ النبيِّ؛ لأن إسداءَ هذه النعمِ إلىٰ المتقين كان لأجلِ إيمانهم به وعملِهم بما هداهم إليه.

٥١. تفيدُ عِظمَ الثوابِ الذي يأتي ممن له ما في السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وممن وصفُهُ الرحمن، فالذي أعطاهم هذه العطايا هو ربُهُم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي خلقَهَا ودبرَها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي رحمتُهُ وسعت كلَّ شيءٍ، فربَّاهم ورحمهم، ولطفَ بهم، حتىٰ أدركوا ما أدركوا، وهذا له تعلقه بما بعده.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما قامت الأدلةُ علىٰ البعثِ جاءَ الكلامُ عن وقتِهِ، وكيفيةِ وقوعِهِ، وما يحدثُ في الكونِ من تغييرٍ، وبدأَ بالعلويِّ لأنه أشرفُ، فقال: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ ولما ذكرَ السقفَ، ذكرَ أقربَ الأرضِ إليهِ وأشدَّها قوة وصلابة، فقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾.

ولما ذكرَ ما في ذلك اليومِ من المسيرِ، ذكرَ ما إليه من المصيرِ، ولما كان المقامُ مقامَ تهديدٍ للمكذبين بالبعثِ ابتدأَ بذكرِ جهنم، وأنها مرجعٌ للطاغين، فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ ولما ذكرَ مصيرَهم إليها ذكرَ إقامتَهم فيها، وقدرَ استقرارِهم، فقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾، ولما ذكرَ إقامتَهم ذكرَ حالَهم وأنواعَ عقوبتِهم فيها، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا

﴿حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾ ولما بينَ أنواعَ عقوبةِ الكفارِ التي لا تطاقُ ذكرَ حكمتَه فقال إنه جزاؤهم بذلك ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾، ثم لما بينَ علىٰ الإجمالِ أن ذلك الجزاء كان علىٰ وفقِ جرمِهم شرحَ أنواعَ جرائِمهم، ولخصَها في أمرين: عدمُ رجاءِ الحسابِ، والتكذيبُ، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾، ولما بيَّن شدةَ كذبِهم الذي يدلُّ علىٰ سوءِ أفعالهم بيَّن دقةَ إحصائِه الذي يدلُّ علىٰ جزائهِ علىٰ كلِّ شيءٍ منه، ولذا ختمها بما يدلُّ علىٰ خزيِهم وشدةِ غضبِه عليهم فقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ فإن داركُم ليس بها إلا الجحيم كما أن الجنةَ ليس بها إلا النعيم، فأفهم هذا أن حصولَ شيءٍ لهم غيرُ العذابِ محال.

ولما ذكرَ جزاءَ الطغاةِ الكافرين وبين مصيرَهم غايةَ البيان، ثنىٰ بذكرِ المتقين الأبرار، وبين مصيرَهم، وأنه لهم فوزٌ عظيم ونعيمٌ مقيم فقال: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ثم فسره بقوله تعالىٰ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ أي بساتين فيها أنواعُ الأشجارِ ذواتِ الثمارِ والرياحينِ لتجمعَ مع لذةِ المطعمِ لذةِ النظرِ والشمِ، ولما ذكرَ المساكنَ المؤنقةَ السَّارَّة، ذكر ما يتمتعُ به وهو جامع لألذاذِ الحواس: البصرُ واللمسُ والذوقُ فقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾، ولما ذكرَ النساءَ ذكرَ الملائمَ لعشرتِهن فقال: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ أي من الخمرِ التي لا مثلَ لها في لذةِ الذوقِ ظاهرًا وباطنًا، وكمالِ السرورِ وإنعاشِ القوىٰ. ولما كانت العادةُ جاريةً بأن الشرابَ الجيدَ يكونُ قليلًا، دلَّ علىٰ كثرتهِ دليلًا علىٰ جودتهِ بقوله: ﴿دِهَاقٗا﴾ أي ممتلئة. ولما كانت مجالسُ الخمرِ في الدنيا ممتلئةً بما ينغصُها من اللغوِ والكذب، قال نافيًا عنها ما يكدرُ لذةِ السمع: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾. ولما كان العطاءُ إذ كان علىٰ المعاوضةِ كان أطيبَ لنفسِ

www.Quranonlinelibrary.com

الآخذ قال: ﴿جَزَآءً﴾، وبين أنه ما جعلَه جزاءً لهم إلا إكرامًا للمتقين والنبي ﷺ فإنه سبحانه لا يجبُّ عليه لأحد شيء لأن أحدًا لا يمكنه أن يوفي شكر نعمة من نعمِه، فإن عملَه من نعمه فقال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ أي المحسنُ إليك بإكرامِ أمتك بأنواعِ الإكرام، وفي ﴿عَطَآءً﴾ إشارةٌ إلىٰ ذلك وهو بذلٌ من غيرِ جزاء ﴿حِسَابًا﴾ أي علىٰ قدرِ الكفايةِ، وإن فعلَ الإنسانُ منهم ما فعلَ وحسبَ جميعُ أنواعِ الحساب.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الثالث
وصفُ بعضِ أحوالِ اليومِ الآخر

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٣٧ - ٤٠].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما بينَ وعيدَه الشديدَ للكفارِ ووعدَه العظيمَ للمتقينَ ختم الكلامَ في ذلك ببيانِ عظمتِهِ وعظيمِ ملكِه يومَ القيامة، وأن جميعَ الخلقِ في ذلك اليومِ لا يملكون شيئًا، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، ثم جاء الكلامُ عن أحوالِ ذلك اليوم مع التأكيد أنه حق والدعوة للاستعداد له.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ: خالقُهما، ومدبرُ ما فيهما.

٢. خِطَابًا: أي لا يقدرُ أحدٌ علىٰ ابتداءِ مخاطبتِه. والخطابُ: الكلامُ الموجّهُ لحاضِر لدىٰ المتكلم.

٣. يَقُومُ: والقيامُ: الوقوفُ، وهو حالةُ الاستعدادِ للعملِ الجِد، وهو من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

أحوالِ العبوديةِ الحقة التي لا تكون إلا لله تعالىٰ.

٤. ٱلرُّوحُ : اختلفَ في المرادِ منه اختلافًا أثاره عطفُ الملائكةِ عليه، فقيل: هو جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الأرجحُ، وقيل المرادُ: أرواحُ بني آدم، وقيل غيرُه.

٥. صَفًّا : صفوفًا، والصفُ اسمٌ للأشياءِ الكائنةِ في مكانٍ يجانبُ بعضِها بعضًا كالخط.

٦. أَذِنَ : الإذنُ: اسمٌ للكلامِ الذي يفيدُ إباحةَ فعلٍ للمأذون، وهو مشتق من: أذن له، إذا استمع إليه[1].

٧. صَوَابًا : أي حقا.

٨. ٱلْيَوْمُ الحق: أي الكائنُ لا محالة.

٩. ٱتَّخَذَ : الاتخاذُ: مبالغةٌ في الأخذ، أي أخَذَ أخْذًا يشبه المطاوعةَ في التمكن.

١٠. مَـَٔابًا : والمآبُ يكونُ اسمَ مَكانٍ من آبَ إذا رجعَ فيطلقُ علىٰ المسكن؛ لأن المرءَ يؤوبُ إلىٰ مسكنِهِ، ويجعلُه مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه.

١١. أَنذَرْنَٰكُمْ : والإنذارُ: الإخبارُ بحصولِ ما يسوءُ في مستقبلٍ قريب.

١٢. عَذَابًا قَرِيبًا : أي يومَ القيامة، وما فيه من أهوالٍ وعذابٍ، وكلُّ آتٍ فهو قريب.

١٣. ٱلْمَرْءُ : هنا عمومٌ في المؤمنِ والكافر.

١٤. مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ : أي ما أسلفَه في الدنيا من خيرٍ وشر.

١٥. يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا : أي حتىٰ لا أعذب؛ وذلك يومَ يقولُ اللهُ تعالىٰ للبهائمِ كوني ترابا، وذلك بعدَ الاقتصاصِ لها من بعضِها بعضا.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢).

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. فيها بيانُ عظمةِ اللهِ تعالىٰ وكبريائِه وعمومِ ربوبيته، من خلال الحديثِ عن ملكه وتدبيره للسمواتِ وما فيهن من عوالمَ، والأرضِ وما فيها من كائناتٍ لا يعلمُها بالتفصيلِ إلا هو جل وعلا، وما بينهما في الجوِ من مكوناتٍ حيةٍ وغيرِها من سحبٍ وأمطارٍ، وموجوداتٍ سابحةٍ في الهواءِ، فإن (ما) موصولة، وهي من صيغِ العموم، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾.

٢. تفيدُ التهكمَ بالمشركين، فإن ربكَ هو ربُهُم؛ لأنه ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما؛ ولكن المشركين عبدوا غيرَه جهلًا وكفرًا لنعمته.

٣. تفيدُ أن اتباعَ بيانِ عمومِ ربوبيتِه باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وتخصيصِه بالذكرِ دون غيرِه من الأسماءِ الحسنىٰ فيه إيماءٌ إلىٰ أن ما يفيضُه من خيرٍ علىٰ المتقين في الجنةِ هو عطاءُ رحمانٍ بهم.

٤. تفيدُ أن ذكرَ هذه الصفةِ الجليلةِ تعريضٌ بالمشركين إذ أنكروا اسمَ الرحمنِ الواردِ في القرآنِ كما حكىٰ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

٥. تفيدُ عظمةَ ذلك اليومِ حيث يكونُ جميعُ الخلائقِ ساكتين لا يتكلمون، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٨ - ١٠٩].

٦. تفيدُ بلاغةَ القرآنِ حيثُ عبرَ عن صمتِهم بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ التي تفيدُ عدمَ القدرةِ والاستطاعةِ؛ لأن المالكَ يتصرفُ فيما يملكُه حسبَ رغبتِه لا رغبةَ غيرِه فلا يحتاجُ إلىٰ إذنِ غيرِه، فنفي الملكِ نفيٌ للاستطاعةِ.

٧. تفيدُ أن تخصيصَ النبيِّ ﷺ بالذكرِ قبلَ ذكرِ الملائكةِ المعطوفِ عليه لتشريفِ قدرِه بإبلاغِ الشريعة في قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٨. تفيدُ أن الغرضَ من ذكرِ هذا الصمت إبطالُ اعتذارِ المشركين حين استشعروا شناعةَ عبادتِهم الأصنامَ التي شهَّر القرآنُ بها فقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

٩. تفيدُ أن ذكرَ قيامِهم واصطفافِهم يبينُ عظمةَ سلطانِه وكبريائه، وتهويلَ يومِ البعثِ الذي عليه مدارُ الكلام من مطلعِ السورة الكريمةِ إلىٰ مقطعها ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾.

١٠. تفيدُ أن التكلمَ يومَ القيامةِ لا يكون إلا لمن أذنَ له الرحمن وقال صوابا، فلا يتكلمُ أحدٌ إلا بهذين الشرطين: أن يأذنَ اللهُ له في الكلام، وأن يكونَ ما تكلم به صوابا ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾.

١١. تفيدُ أنه إذا كان الروحُ والقريبُ منه من الملائكة بهذِهِ المثابة، فما الظَّن بغيرِهم ممن يرجون شفاعتَهم بغيرِ حق؟

١٢. فيها الدلالةُ علىٰ إبطالِ زعمِ المشركين شفاعَةَ أصنامِهم لهم عند اللهِ، وهي دلالةٌ بطريقِ الفحوىٰ، فإنه إذا نُفي تكلُّمهم بدون إذن نفيت شفاعتُهُم إذ الشفاعة كلام مَن له وجاهةٌ وقبولٌ عند سامعه.

١٣. تفيدُ أن إطلاقَ صفةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ علىٰ مقامِ الجَلالةِ إيماءٌ إلىٰ أن إذنَ اللهِ لمن يتكلمُ في الكلامِ أثرٌ من آثارِ رحمتِه؛ لأنه أذن فيما يحصلُ به نفعٌ لأهلِ المحشرِ من شفاعةٍ أو استغفار.

١٤. تفيدُ شرفَ جبريلَ عليه السلام حيث يقومُ صفًا، والملائكةُ يقومون

صفا، وهو أشرفُ الملائكة.

١٥. تفيدُ أن يومَ القيامةِ حق، ولا يكونُ فيه إلا الحقُ فلا يروجُ فيه الباطل، ولا ينفعُ فيه الكذب ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾.

١٦. تفيدُ أن الإشارةَ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ اليومِ المتقدمِ في قوله: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾. ومفادُ اسمِ الإشارة في مثلِ هذا المقام التنبيه علىٰ أن المشارَ إليه حقيقٌ بما سيوصفُ به بسببِ ما سبقَ من حكايةِ شؤونِه، وتعريفُ ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ باللام للدلالةِ علىٰ معنىٰ الكمال، أي هو الأعظمُ من بين ما يعدُه الناس من أيامِ النصرِ للمنتصرين؛ لأنه يومٌ يُجْمَعُ فيهِ الناسُ كلُّهم، ويعطىٰ كلُّ واحدٍ منهم ما هو أهلُه من خيرٍ أو شر، فكأنَّ ما عداه من الأيامِ المشهورةِ في تاريخِ البشر غيرُ ثابتِ الوقوع.

١٧. تفيدُ أن من بانَ له الحقُ، وما في ذلك اليومِ من خيرٍ وشرٍ فليخترْ صاحب المشيئة ما يليقُ به للمصيرِ في ذلك اليوم؛ والتقدير: مآبًا فيه، أي في اليوم.

١٨. تفيدُ أهميةَ وضعِ الموعظةِ في موضعِها المناسبِ؛ لأن قولَه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ هذا التفريعُ من أبدعِ الموعظةِ بالترغيبِ والترهيبِ عندما تَسْنَحُ الفرصةُ للواعظِ من تهيُّؤ النفوس لقبولِ الموعظة.

١٩. تفيدُ الترغيبَ في العملِ الصالحِ، والترهيبَ من العملِ السيءِ الفاسد، والاستعدادَ ليوم المعادِ.

٢٠. تفيدُ قربَ الساعة، وسرعةِ زوالِ الدنيا ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٢١. تفيدُ أن كلَّ إنسانٍ ينظرُ يومَ القيامةِ فيجدُ ما قدمَه من خيرٍ وشر.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ﴾ هو ما أسلَفه من الأعمالِ في الدنيا من خيرٍ أو شر فلا يختصُ بما عملَه من السيئاتِ فقد قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ ..﴾ [آل عمران: ٣٠].

٢٢. تفيدُ أن الكفارَ يتمنون الموتَ من شدةِ الحسرةِ والندم، ولشدةِ الموقفِ وصعوبةِ المقامِ فيه؛ بل يتمنىٰ أنه لم يكن من الأحياءِ فضلًا عن أصحابِ العقولِ المكلفين بالشرائعِ، أي يتمنىٰ أن يكونَ غيرَ مدركٍ ولا حسّاسٍ بأن يكون أقلَ شيءٍ مما لا إدراك له وهو الترابُ، وذلك تلهفٌ وتندمٌ علىٰ ما قدمت يدَاه من الكفر. فجعلَ اللهُ عقابَهم بالتحسرِ وتمني أن يكونوا من جنس التراب ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾.

٢٣. تفيدُ أن ذكرَ وصفِ الكافرِ يفهمُ منه أن المؤمنَ ليس كذلك؛ لأن المؤمنَ وإن عملَ بعضَ السيئاتِ وتوقعَ العقابِ علىٰ سيئاتِه فهو يرجو أن تكون عاقبتُه إلىٰ النعيم.

٢٤. تفيدُ أن هذه الآيةَ جامعةٌ لما جاء في السورةِ من أحوالِ الفريقين، وفي آخرِها رّدُ العجزِ علىٰ الصدرِ من ذكرِ أحوالِ الكافرين الذين عُرِّفوا بالطاغين، وبذلك كان ختامُ السورةِ بها براعة مقطع.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ذكرَ سبحانه سعةَ فضله، وصفَ نفسَه بما يدلُ علىٰ عظمتِه زيادةً في شرفِ المخاطبِ؛ لأن عظمةَ العبدِ علىٰ حسبِ عظمةِ السيد، كما هو يفيدُ عظمةَ عطائه، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، ولما بين كمال ربوبيته، ذكر بعظمتها من خلال بيان عظمة رحمته بخلقه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي

الذي له الإنعامُ العامُ الذي أدناه الإيجاد، وليس ذلك لأحدٍ غيره؛ ولذلك قال دالًا علىٰ الجبروتِ بعدَ صفةِ الرحمة: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ أي أهلُ السماواتِ والأرضِ، ولما كان هذا ربما أفهمَ سدَّ بابِ الشفاعةِ عنده سبحانه، قال: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ولما عظَّم ذلك اليومَ بالسكوتِ خوفًا من ذي الجبروت أشارَ إليه بما يستحقُه زيادةً في عظمتِه فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المشارُ إليه لبعدِ مكانتِه وعظمِ رتبتِه وعلوِّ منزلتِه ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾، ولما قررَ من عظمتِه ما يعجزُ غيرَه عن أن يقررَ مثلَه، وكان من حقِّ كلِّ عاقلٍ سلوكُ ما ينجىٰ منه، سببَ عن ذلك تنبيهًا علىٰ الخلاصِ منه وحثًا عليه قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مرجعًا هو المرجعُ مما يحصلُ له فيه الثوابُ بالإيمانِ والطاعةِ، فإن الله جعلَ لهم قوةً واختيارًا، ولكن لا يقدر أحد منهم علىٰ مشيئةِ شيءٍ إلا بمشيئة الله.

ولما قدمَ في هذه السورةِ من شرحِ هذا النبأ العظيم ما قدمَ من الحكمِ والمواعظِ واللطائفِ والوعدِ والوعيدِ، لخصه في قولِه مؤكدًا لما لهم من التكذيب: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، ولما كان التقدير: فيقولُ المؤمن: يا ليتني قمت قبل هذا، عطف عليه قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ أي: عندما يرىٰ تلك الأهوالِ متمنيًا محالًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ﴾ أي كونًا لا بد منه ولا يزول ﴿تُرَٰبًۢا﴾ أي في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو في هذا اليوم فلم أعذب.

فقد عُلِمَ أن ذلك اليومَ في غايةِ العظمةِ، وأنه لا بدَّ من كونِه، فعُلم أن التساؤلَ عنه للتعجبِ مِن كونه في بداية السورة من أعظمِ الجهلِ، فرجعَ آخرها علىٰ أولها، واتصل مع ذلك بما بعدَها أي اتصال، فإن المشرفَ بالنزعِ علىٰ

الموتِ يرىٰ كثيرًا من الأهوالِ والزلازلِ والأوجاعِ التي يتمنىٰ لأجلها أنه كان منقطعًا عن الدنيا ليس له بها وصال يومٍ من الأيامِ ولا ليلةٍ من الليال -والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

خامسًا: المناسبةُ بين فاتحةِ السورة وخاتمتها:

فاتحتها في النبإ الذين كانوا يختلفون فيه بين مصدق ومكذب، وخاتمتها في بيان أنه حق، وفي الإنذار من هوله وشدته، وبيانِ مصيرِ من كفر به.

سادسًا: خصائصُ السورةِ في عرض هداياتها:

١. البداية الفريدة في التعجب من سؤالهم واختلافهم في النبإ العظيم.

٢. ذكر عشرة أدلة وبراهين علىٰ البعث بينها تناسق عجيب.

٣. ذكر ميقات يوم الفصل، وطريقة قيامهم بعد النفخة الثانية.

٤. وصف جهنم بأنها كانت مرصادا، ومدة لبثهم، وتبشيرهم بزيادة العذاب.

٥. بيان ما للمتقين من مفازة، وجزاء وصفه بقوله ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾.

٦. الحديث عن قيام الروح والملائكة صفا لا يتكلمون مهابةً وإجلالاً لله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾.

٧. بيان ما يتمناه الكافر عند ما ينظر ما قدمت يداه.

سابعًا: التكاليفُ الإيمانيةُ والعمليةُ من هدايات السورة:

١. اليقين بالبعث، وأنه حق لا مرية فيه، وبراهينه أكثر من أن تحصىٰ، وأن له وقتًا معلومًا محددًا لا يعلمه غيره جل وعلا، له علامات، وفيه أهوال

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عظيمة، وأن الناس يبعثون فيه جميعا، ويحاسبون علىٰ ما قدموا، ويفصل بينهم بالحق فيما كانوا فيه يختلفون، ويكون فريق منهم في الجنة وفريق في السعير، نسأل الله السلامة.

٢. التفكر والتدبر في آيات الله المبثوثة في الكون، من أرض ممهدة، وجبال راسية، خلقهم وخلق ما حولهم بطريقة متناسق بما يدعو لذكره وشكره، واليقين بكمال قدرته وعلمه وحكمته وعظيم صفاته، واليقين بصدق ما أخبر به في كتابه وعلىٰ لسان رسوله الكريم.

٣. التفكر في حياتنا وحالنا كيف خلقنا، ودبرنا أزواجًا، وجعل نومنا سباتًا للوقوف من خلالها علىٰ براهين البعث، وشكر الله تعالىٰ بما من به من نعم تستوجب الشكر.

٤. مسايرة سنن الله في الكون بجعل الليل للسكن والراحة والنهار للحركة والمعاش من أسباب راحة الإنسان وعافيته ومتعته.

٥. تذكر نعمة الماء الفرات الذي هو قوام الحياة من إنسان وحيوان ونبات، وهو من وراء كل نعمة وزينة وجمال.

٦. التذكر الدائم بهول جهنم وسوء حال أهلها، وأهمية الخوف من عذابها، الذي يلزم منه عدم تجاوز حدوده وترك معاصيه.

٧. إدراك خطورة التكذيب بآيات الله تعالىٰ، ورسوله، والبعث، وأن ذلك من أعظم أسباب الشقاء والعذاب.

٨. الحذر الدائم في أقوالنا وأفعالنا، فإن كل ذلك مسجل محصىٰ في كتاب الأعمال الذي يكتب بالليل والنهار، وسوف نحاسب عليه يوم القيامة.

٩. العمل علىٰ تحقيق التقوىٰ من خلال العمل بطاعة الله وترك معصيته، وبذل المزيد من الطاعات والقربات للفوز بما أعده الله للمتقين من نعيم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

١٠ . الابتعاد عن اللغو والكذب والتكذيب، ليكي لا تكون في الآخرة من المبعدين من سماع ذلك، والجزاء في الآخرة من جنس العمل كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾.

١١ . معرفة عظمة الله تعالىٰ وكبريائه وعظيم سلطانه بما يورث تعظيمه وإجلاله في النفوس، وإفراده بالعبودية، واليقين بضلال من عبد غيره ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا.

١٢ . الرجوع والمآب إلىٰ الله تعالىٰ قبل فوات الأوان وحصول الحسرة والندامة.

١٣ . التذكر الدائم بأهوال الآخرة وشدتها وقربها مع الاستعداد لها، وتذكر سرعة فناء وزوال الدنيا، وأن الأنسان لن يجد في الآخرة إلا ما قدمه لحياته الباقية.

ثامنًا: التساؤلات التدبرية:

السؤال الأول: فإن قيل: ما معنىٰ ذكر الأحقاب، وخلودهم في النار لا نفاد له؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن هذا لا يدل علىٰ غاية، لأنه كلما مضىٰ حقب تبعه حقب ولو أنه قال لابثين فيها عشرة أحقاب أو خمسة دل علىٰ غاية.

والثاني: أن المعنىٰ أنهم يلبثون فيها أحقابا لا يذوقون في الأحقاب بردا ولا شرابا فأما خلودهم في النار فدائم هذا قول الزجاج وبيانه أن الأحقاب حد لعذابهم بالحميم والغساق فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب[١].

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٩/ ٨).

www.Quranonlinelibrary.com

السؤال الثاني: كيف نوفق بين ما ذكر هنا عن حال الجبال وما ذكر في الآيات الأخرىٰ من القرآن؟ وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أوّل أحوالها الاندكاك، وهو قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤]، وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وثالث أحوالها أن تصير كالهباء، وهو قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥، ٦]، ورابع أحوالها: أن تنسف وتحملها الرياح، كما في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]. وخامس أحوالها أن تصير سرابًا أي: لا شيء، كما في هذه الآية(١).

السؤال الثالث: أن الحساب شيء شاق علىٰ الإنسان، والشيء الشاق لا يقال فيه: إنه يرجىٰ بل يجب أن يقال: إنهم كانوا لا يخشون حسابًا؟

والجواب من وجوه:

أحدها: قال مقاتل وكثير من المفسرين- رحمهم الله -: قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ معناه: لا يخافون، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

وثانيها: أن المؤمن لابد وأن يرجو رحمة الله لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد علىٰ عقاب جميع المعاصي سوىٰ الكفر، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ إشارة إلىٰ أنهم ما كانوا مؤمنين.

وثالثها: أن الرجاء ههنا بمعنىٰ التوقع لأن الراجي للشيء متوقع له إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء فسمىٰ الجنس باسم أشرف أنواعه.

---

(١) انظر: فتح القدير لمحمد الشوكاني (٥/ ٣٦٥)، واللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ١٠٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ورابعها: أن في هذه الآية تنبيهًا علىٰ أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف، وذلك لأن للعبد حقًا علىٰ الله تعالىٰ بحكم الوعد في جانب الثواب ولله تعالىٰ حق علىٰ العبد في جانب العقاب، والكريم قد يسقط حق نفسه، ولا يسقط ما كان حقًا لغيره عليه، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوىٰ في الحساب، فلهذا السبب ذكر الرجاء، ولم يذكر الخوف[١].

السؤال الرابع: فإن قيل الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة، فلم أهمل الأهم وذكر غير الأهم؟ قلنا لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز باللذة والخير، أما الفوز باللذة والخير فيستلزم الخلاص من الهلاك فكان ذكر هذا أولىٰ[٢].

السؤال الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ علىٰ أي شيء يعود الضمير في ﴿فِيهَا﴾؟ الجواب فيه قولان:

الأول: أنها ترجع إلىٰ الكأس، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها؛ وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم ولم يتكلموا بلغو.

والثاني: أن الكناية ترجع إلىٰ الجنة أي لا يسمعون في الجنة شيئًا يكرهونه، ولا مانع من كليهما، وبهما جاء القرآن[٣].

السؤال السادس: أن الله تعالىٰ جعل الشيء الواحد جزاء وعطاء؛ وذلك محال؛ لأن كونه جزاء يستدعي ثبوت الاستحقاق، وكونه عطاء يستدعي عدم

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٢٩٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٠٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٠٦).

الاستحقاق، والجمع بينهما متناف؟ والجواب: أن ذلك الاستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد لا من حيث إن الفعل يوجب الثواب علىٰ الله، فذلك نظرًا إلىٰ الوعد المترتب علىٰ ذلك الفعل يكون جزاء، ونظرًا إلىٰ أنه لا يجب علىٰ الله لأحد شيء يكون عطاء[1]، ولم يجزهم بعملهم فقط بل زادهم فضلًا وكرمًا منه.

السؤال السابع: الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ لمن يرجع؟

فيه ثلاثة أقوال:

الأول: نقل عطاء عن ابن عباس أنه راجع إلىٰ المشركين يريد لا يخاطب المشركون، أما المؤمنون فيشفعون فيقبل الله ذلك منهم.

والثاني: قال القاضي إنه راجع إلىٰ المؤمنين، والمعنىٰ أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور ثبت أن العقاب الذي أوصله إلىٰ الكفار عدل وأن الثواب الذي أوصله المؤمنين عدل وأنه ما يخسر حقهم فبأي سبب يخاطبونه.

والثالث: أنه ضمير لأهل السموات والأرض، وهذا هو الصواب فإن أحدًا من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته، وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة علىٰ هذا الكلام لأنه نفىٰ الملك والذي يحصل بفضله وإحسانه فهو غير مملوك[2].

وبهذا تمَّ الكلام عن سورة النبأ ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام مكة في غرة ربيع الأول ١٤٣٥هـ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٠٨).

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

ســورة النازعات

موضوع السورة:

بيانِ حقيقةِ الآخرة

من خلال أربع موضوعات:

- التأكيدُ علىٰ البعثِ مع بيانِ بعضِ أهواله
- الحديث عن مصرع الطغاة المكذبين
- بيان قدرت الله تعالىٰ علىٰ البعث وما يشاء
- مصير العباد يوم الطامةِ الكبرىٰ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: موضوعُ السورةِ:

موضوعُ السورةِ في بيانِ حقيقةِ الآخرة، وفصل هذا الموضوعُ من خلالِ أربعةِ موضوعاتٍ جاءت علىٰ النحو الآتي:

الموضوع الأول: التأكيدُ علىٰ البعثِ، مع بيانِ بعضِ أهواله، وما يعتري الناس فيه، الآيات (١ - ١٤).

الموضوع الثاني: الحديث عن مصرع الطغاة المكذبين من خلال قصة موسىٰ عليه السلام وفرعون بما يدل علىٰ كمال قدرته عز وجل، الآيات(١٥ - ٢٦).

الموضوع الثالث: بيان بعضِ آياتِ اللهِ الكونيةِ ونظامِها الدالةِ علىٰ قدرتِه علىٰ البعثِ وعلىٰ كل شيء، الآيات (٢٧ - ٣٣).

الموضوع الرابع: الحديثُ عن مصيرِ العبادِ يومَ الطامةِ الكبرىٰ الذي لا يعلمُ وقتَه غيرُهُ سبحانه، الآيات (٣٤ - ٤٦).

ثانيًا: المناسبةُ بين سورةِ عمّ والنازعات:

لما ذكرَ في آخرِ ما قبلَها الإنذارَ بالعذابِ يومِ القيامة، ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] أقسمَ في هذه السورة علىٰ البعثِ للتأكيد علىٰ تحقق ما أنذر به.

ولما كانَ آخر السورةِ التي قبلَها: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ونظرُ المرءِ ما قدمت يداه يبدأُ من حالةِ النزعِ حينما يثقلُ اللسانِ عن النطقِ في حالةِ الحشرجة، حين لا تقبلُ التوبةُ عند المعاينةِ لما سيؤول إليه، فينظرُ حينئذٍ ما قدمت يداه، وهذا عند نزعِ الروحِ أو نشطِها، والله تعالىٰ أعلم.

ولما بين هنالك مصير الطغاة والتقاة، أكد هنا عليه، فبين بعض أعمالهم التي أدت إلىٰ الخسران، وبين أن مأوىٰ أولئك إلىٰ الجحيم، ومأوىٰ الأتقياء إلىٰ الجنة دار النعيم، إلىٰ غير ذلك من أوجه المناسبات.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوع الأول

التأكيدُ على البعث، مع بيانِ بعضِ أهواله، وما يعتري الناس فيه

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ
سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا
ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا
لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ
١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١ - ١٤].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: جمعُ نازعة، وهو: وصفٌ مشتقٌ من النزعِ، والنزعُ: جذبُ الشَّيءِ بقوةٍ من مقرِّه، كنزعِ القوسِ عن كبدِه، ويستعملُ في المحسوسِ والمعنوي، والمرادُ نزعُ الملائكةِ لأرواحِ الفجارِ عند الموتِ بشدةٍ حتىٰ تغرقُ في نزعِها، وهذا قولُ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)].

٢. ﴿غَرۡقٗا﴾: أي نزعًا من أقصىٰ الأجساد، والإغراقُ المبالغة، يقالُ: أَغرَقَ في الشيء يغرقَ فيه: إذا أوغلَ فيه وبلغَ غايتَه.

٣. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾: والنشاط: الجذبُ بسرعةٍ وخفةٍ ويسرٍ، ومنه الأَنشوطة

(١) انظر: جامع البيان (ص: ٨٤٤١).

www.Quranonlinelibrary.com

للعقدة التي يسهلُ حلُّها، وأنشطَه حلَه بسرعةٍ وخفة، ومنه قولُهُ ﷺ: (كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ) (١) المراد به هنا: الملائكةُ التي تُسلُّ روحَ المؤمن من جسدِه بخفةٍ وسهولةٍ عندما تنشطُها للخروجِ بما تبشرُهُم به كما في قولِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٢).

٤. نَشْطًا: أي بسرعةٍ كما ينشطُ العقالُ من يدِ البعير، وكما تحلُّ الأنشوطةُ (الدكة). والذي يشهدُ له السياقُ والنصوصُ الأخرىٰ: أن كلًا من (النازعات والناشطات) هم الملائكة، وهو ما روي عن ابنِ عباسٍ ومجاهد، وهي صفاتٌ لها في قبضِ الأرواح (٣). ودلالةُ السياقِ علىٰ هذَا المعنىٰ: هو أنهما وصفان متقابلان: الأولُ نزعٌ بشدَّة، والآخرُ نشاطٌ بخفة، فيكون النزعُ غرقًا لأرواحِ الكفار، والنشطُ بخفةٍ لأرواحِ المؤمنين.

٥. وَالسَّـٰبِحَـٰتِ: وأصلُ السبحِ العوم، وهو تنقلُ الجسمِ علىٰ وجهِ الماء، والمرادُ هنا سرعةَ الانتقالِ، فالسابحاتِ: المترددات في الهواءِ صعودًا ونزولًا. والمراد الملائكةُ التي تجوبُ آفاقَ السماءِ وتنزلُ إلىٰ الأرضِ بأمرِ الله.

٦. فَالسَّـٰبِقَـٰتِ: والسبقُ تجاوزُ السائرِ من يسيرُ معه، ووصولُهُ إلىٰ المكانِ المشارِ إليه قبله، والمرادُ الملائكةُ التي تسبقُ بأرواحِ المؤمنين إلىٰ الجنة، وقد يكون سبقُها مبادرتها إلىٰ الأعمالِ الصالحةِ والخيراتِ. ﴿فَالسَّـٰبِقَـٰتِ﴾ بالفاءِ يؤذنُ بأنَّ هذه الصفةَ متفرعةٌ عن التي قبلها؛ لأنهم يعطفون بالفاء الصفاتِ التي شأنها أن يتفرعُ بعضُها عن بعض.

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص: ٨٤٤٣).

(٢) سنن أبي داود، كتاب البيوع، بَابٌ فِي كَسْبِ الْأَطِبَّاءِ رقم (٣٤١٨)، وقال الألباني صحيح.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤١٦).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٧. ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾: والتدبيرُ: جولان الفكرِ في عواقبِ الأشياءِ بإجراءِ الأعمالِ علىٰ ما يليقُ بما توجدُ له، والمرادُ الملائكة المدبرون لأمرِ العبادِ، والرياحِ والمطرِ وغيرِها، والتي تنفذُ ما أمرَ اللهُ به من قضائِه.

٨. ﴿أَمۡرٗا﴾: الشأنُ والغرضُ المهم، وتنوينُه للتعظيمِ، وإفرادُهُ لإرادةِ الجنس، أي أمورًا.

٩. ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: من الرجفِ، وهو الاضطرابُ والاهتزازُ الشديد، والراجفةُ الأرض؛ لأنها تضطربُ وتهتزُ بالزلازلِ كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ [الواقعة: ٤]؛ وذلك عند النفخةِ الأولىٰ، نفخةِ الفناءِ التي يتزلزلُ معها كلُّ شيء.

١٠. ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: أي النفخةُ الثانية، وقيل: القيامة، وسميت رادفةٌ من قولك: ردفت الشيءَ إذا تبعتَه.

١١. ﴿وَاجِفَةٌ﴾: خائفةٌ، قلقةٌ، منزعجةٌ من شدةِ ما ترىٰ وتسمعُ، من وجفَ القلب: اضطربَ من شدةِ الفزع.

١٢. ﴿خَٰشِعَةٞ﴾: ذليلةٌ وحقيرةٌ مما نزلَ بها.

١٣. ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾: قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ القبور[1]، وعند العرب: رجوعُ المرءِ من الطريقِ الذي أتىٰ منه، والمرادُ إنا لمردودون للحياةِ بعد الموت.

١٤. ﴿نَّخِرَةٗ﴾: باليةٌ فارغة، وقيل المحطمةُ المدقوقةُ، وفيها قراءتان الأولىٰ بلا ألفٍ بمعنىٰ البالية، والثانيةُ بألفٍ علىٰ وزنِ فاعلٍ ناخرة، والناخرة: المجوفةُ التي تنخرُ الريحَ في جوفِها إذا مرت به[2].

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٥/ ٢٢٨).

(٢) النكت والعيون، للماوردي (٦/ ١٩٦).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

١٥. ﴿كَرَّةٌ﴾: رجعة، والجمع كرَّات.

١٦. ﴿خَاسِرَةٌ﴾: لا خيرَ فيها بل فيها غبنٌ لهم.

١٧. ﴿زَجْرَةٌ﴾: صيحةٌ واحدة، والمرادُ النفخةُ الأخيرة.

١٨. ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: والساهرة: الأرضُ المستويةُ البيضاءُ التي لا نبات فيها يختارُ مثلُها لاجتماعِ الجموع.

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيد تأكيدَ وقوعِ البعث؛ لأن اللهَ تعالىٰ أقسمَ بخمسةِ أنواعٍ من مخلوقاتِه، والراجحُ أنها الملائكة، المرادَ من القسمِ تحقيقُ ما بعدَه من الخبرِ، وتقديرُ جوابِ القسمِ محذوف تقديرُهُ لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ بما عملتم، كما قال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

٢. تفيد أن اللهَ تعالىٰ له أن يقسمَ بما يشاءُ من خلقهِ، وليس لمخلوقٍ القسم إلا بالخالق جل وعلا.

٣. تفيدُ عظمةَ المقسمِ بهم، وهم الملائكة، وعلوَّ شأنِهم؛ لأن القسمَ بهم يفيدُ ذلك، كما يفيدُ أنهم آيةٌ من آياتِه العظيمة.

٤. تفيد أن حذفَ ما يعلمُ من البلاغةِ، فإنَّ جوابَ القسمِ لما دلَّ عليه ما قبلَه وما بعدَه حذف؛ لأن الإقسامَ بمن يتولىٰ نزعَ الأرواحِ، ويقومَ بتدبيرِ أمورِها يلوحُ بكونِ المقسمِ عليهِ من قبيلِ تلك الأمور؛ ولأنه قد علمَ أن المرادَ بـ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، فكان في هذا الجواب تهويلٌ ليومِ البعث، وفي طيهِ تحقيقُ وقوعِه فحصلَ إيجازٌ في الكلامِ، جامعٌ بين الإنذارِ بوقوعِه والتحذيرِ مما يجري فيه.

٥. تفيدُ أن هذا الاجمالَ في هذه الإقساماتِ بالملائكةِ الكرامِ أو غيرِهم يجعلُ النفسَ تذهبُ في فهمِهِ كلَّ مذهبٍ ممكن، فتكثرُ خطورِ المعاني في الأذهان، وتتكررُ الموعظةُ والعبرة، واليقينُ بحقيقةِ الآخرة، وهولِها وضخامتِها، وجديتِها.

٦. فيها إشارةٌ أن البدءَ بالملائكةِ الذين وصفُهم النزعُ للأرواحِ تذكيرًا للمشركين بما هم في غفلةٍ عنه، كما فيه وعظٌ لهم، وحتىٰ يتناسبَ مع غرضِ السورة الذي يدورُ في إثباتِ البعث، لأن الموتَ أول منازلِ الآخرة، وهذا من براعةِ الاستهلال.

٧. فيها الاعتبارُ بما آتاهُ اللهُ للملائكةِ من القدرةِ علىٰ ذلك النزعِ الدالةِ علىٰ تمامِ الحكمة والاقتدارِ علىٰ ما يريدُه سبحانه.

٨. تفيدُ أن معاناةَ الكافرِ تبدأ من عند خروجِ روحه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١].

٩. تفيدُ أن روحَ المؤمنِ تنشطُ عندَ خروجِها من جسدِه عند الموت، فتخرجُ بصورة لطيفةٍ سريعةٍ لا يجدُ من الألم ما يجده الكافر لما تبشرُ به من خيرٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

١٠. تفيدُ أنه ما من أحدٍ يحضرُه الموت إلا ويُبشَّرُ بخيرٍ أو شرٍّ، ويرىٰ

www.Quranonlinelibrary.com

مقعدَه من الجنةِ أو النارِ؛ ولذا لا تخرجُ روحُ الكافرِ إلا بنزعٍ والعكس للمؤمنين. كما جاء في صحيح البخاري عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ)، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: (لَيْسَ ذَاكِ؛ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ)[١].

١١. تفيدُ هولَ الحركةِ بين السماءِ والأرضِ المليئة بإسراعِ الملائكةِ في تنفيذِ أمره صعودًا ونزولًا: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾.

١٢. تدلُّ علىٰ كمالِ انقيادِ الملائكةِ وتسابقهم في تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالىٰ، بما يدعو المؤمنَ لسرعةِ الاستجابةِ لملكِ الملوكِ وعلامِ الغيوب ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾.

١٣. تفيدُ أن الملائكةَ تسبق بأرواحِ المؤمنين إلىٰ الجنة، وبأرواحِ الكفرةِ إلىٰ النار.

١٤. تفيدُ أن هنالكَ ملائكةً وُكِّلَ إليهم تدبيرُ الخلقِ بأمرِ اللهِ ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾.

١٥. يفيدُ ذكرُ أفعالِ الملائكةِ هنا ما يتضمنُ الجزاءَ الذي تتولاه الملائكةُ عند الموتِ وقبلِه وبعدِه.

١٦. فيها بيانُ ما يحدثُ بعدَ النفخةِ الأولىٰ من اضطرابٍ وتزلزل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، بَابٌ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، رقم (٦٥٠٧).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

١٧. تفيدُ أن فناءَ العالمِ الدنيوي يبدأُ بالرجفةِ التي تحطمُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربها ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾.

١٨. تفيدُ أن الكثيرَ من القلوبِ خائفةٌ في ذلك اليومِ ومشفقةٌ من فزعِهِ، والتنكيرُ لإفادةِ التكثيرِ، والمرادُ قلوبِ الكافرين، أما قلوبُ المؤمنين فإنها مطمئنةٌ بحسبِ ما لها من تقوىٰ، ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

١٩. تفيدُ أن أبصارَ الكفارِ تكون ذليلةً ومنكسرةً في ذلك اليومِ العظيمِ الهول ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾.

٢٠. تفيدُ أن الكفارَ كانوا وما زالوا يتعجبون من البعثِ والحياةِ بعد الموت.

٢١. تفيدُ أن الكفارَ لا يكادون يصدقون بالبعثِ حتىٰ في يومِ البعثِ، فالسياقُ يحتملُ أنه يتحدث عن انبهارِهم حين يقومون من قبورِهم فيقولون في ذهول ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ ويدهشون: كيف يكون هذا بعدَ إذ كانوا عظامًا نخرة.

٢٢. تفيدُ أن الكافرَ يعرفُ مصيرَه في الآخرة، فيدركُ أنه رجوعٌ خاسرٌ بلا شك؛ ولذلك ينطقُ بما يعبرون عما في دواخلِهم: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

٢٣. تفيدُ أن إنكارَ الكفارِ للبعثِ وسطِ تحققِ وقوعهِ نوعٌ من الغباء والجهل.

٢٤. تفيدُ سهولةَ البعثِ والحسابِ والجزاءِ عند اللهِ تعالىٰ وسرعتها

حيث تتم بزجرة، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

٢٥. تفيدُ أن الناسَ يحشرون علىٰ أرضٍ جرداءَ ليس لأحدٍ فيها معلم ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾.

٢٦. تفيدُ أن التعبيرَ بالزجرِ يدلُّ علىٰ شدتِها وهولِها، وأنه لا يتخلفُ عن القيامِ أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٧ - ٤٨].

٢٧. تدلُّ علىٰ شدةِ الحشر، وسميت ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ لأن سالكَها يسهرُ خوفًا، كما أن النومَ يكونُ أمنةً، أو لأن هذه الأرض بالخصوص لا نوم فيها مع طول الوقوف وتقلب الصروف الموجبة للحتوف(١).

٢٨. تدلُّ علىٰ البعث؛ لأن الذي خلقَ، ونزعَ روحَ الكافر، ونَشَطَ روح المؤمن للخروج الذي هو أصعبُ من الخلقِ بكثير، يدلُ علىٰ أن من فعلَ ذلك قادرٌ علىٰ إعادةِ الأجسادِ بعدَ البلىٰ.

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ختم تعالىٰ سورة عمَّ بأحوال العباد في يوم المعاد وتمني الكافرُ العدمَ، تحدث هنا عن أول مراحل الانتقال، وهي نزع الأرواح، وساقَه علىٰ وجهِ التأكيدِ بالقسم؛ لأنهم به مكذبون فقال تعالىٰ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، ولما

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٢٢٧).

كان ذلك لنفوسِ الكفارِ والعصاةِ أتبعَه ببيان ما يكون لأرواح المؤمنين التقاة فقال: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، ولما ذكرَ نوعي السل بالشدِّ والرفقِ، ذكرَ فعلَها في إقبالِها إليه ورجوعِها عنه، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، يفيدُ غايةَ سرعتِها بدونِ عائقٍ لها عن أمرِ الله، قد أقدرَها اللهُ علىٰ النفوذِ في كلِّ شيءٍ، ولما بانَ بذلك حسنُ امتثالِها للأوامرِ بين أن ذلك كله تم بإتقان ما أمروا به في الأرواحِ وغيرِها: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾. والجوابُ محذوفٌ إشارةً إلىٰ أنه من ظهورِ العلمِ به بدلالةِ ما قبله وما بعده عليه في حدٍ لا مزيدَ عليه، أي أنكم لمبعوثون بعد الموتِ وانتهاءِ هذه الدار؟ ثم لمجازون بما عملتم.

ولما أقسمَ علىٰ القيامِ بتلك الأفعالِ العظامِ التي ما أقدرَ أهلَها عليها إلا الملكُ العلام، ذكرَ ما يكونُ فيه من الأحداثِ، تهويلًا لأمرِ الساعةِ فقال: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ولما ذكرَ الصيحةَ الأولىٰ، أتبعَها الثانية، وهي التي يقومُ بها جميعُ الأموات وتجتمعُ الرفات، فقال: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، ولما ذكرَ البعث، ذكرَ حالَ المكذبِ به؛ لأن السياقَ له، قال مبتدئًا بنكرةٍ موصوفة: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي شديدةُ الاضطراب، وكان قد يخفىٰ سببُهُ لكونه قد يكون عند السرورِ العظيمِ كما قد يكون عند الوجلِ الشديد، أخبر عنه بما يحققُ معناه فقال: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ أي ذليلةٌ ظاهرٌ عليها الذلُ واضطرابُ القلوبِ من سوءِ الحالِ؛ ولذلك أضافها إليها، ولما ذكر اضطراب أحوالهم ذكر اضطراب أقوالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

الموضوع الثاني
الحديثُ عن مصرعِ الطغاةِ المكذبين من خلالِ قصةِ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون

قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥ -٢٦].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما أنكروا البعثَ وتمردوا، شق ذلك علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقصَ تعالىٰ عليه قصةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتمردَ فرعونَ علىٰ اللهِ عز وجل حتىٰ ادعىٰ الربوبية، وما آل إليه حالُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من النجاة، وحالُ فرعونَ من الهلاكِ، فكان ذلك تسليةً لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبشيرًا بهلاكِ من يكذبه، ونجاتَه هو من أذاهم.

وهذه الآياتُ بين قولِه تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، وقولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ الذي هو الحجةُ علىٰ إثباتِ البعث، وذلك لتَماثُلِ حالِ المشركينَ في طغيانِهم علىٰ اللهِ ورسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحالِ فرعون وقومه، ليحصلَ من ذكرِ قصةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تسليةً للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموعظةً للمشركين، خاصة أن هذه أشبه شيءٍ بالقيامةِ لما حصلَ فيها من التقلباتِ والتغيراتِ

www.Quranonlinelibrary.com

وإيجادِ المعدوماتِ من الجرادِ والقملِ والضفادعِ علىٰ تلك الهيئاتِ الخارجة عن العاداتِ في أسرعِ وقت، وقهرِ الجبابرةِ مع حشرِهم وجمعِهم لجنودِهم بعد أن جمعَ ونادَىٰ كما يحشرُ الأمواتُ بعد إحيائِهم بالصيحة إلىٰ الساهرة، ثم كانت العاقبةُ في الطائفتين بما للمدبراتِ أمرًا أن نجا بنو إسرائيل بالبحرِ الذي فلقه الله إليهم كما ينجو يومَ البعثِ المؤمنون بالصراط، وهلك فرعون وآله به كما يتساقطُ الكافرون بالصراطِ.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١ . ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾: أي: هل جاءَك وبلغكَ، وهو استفهامٌ عن أمرٍ عظيمٍ متحققِ الوقوع، وهو للتشويقِ لخبرِ موسىٰ عليه السلام.

٢ .﴿حَدِيثُ﴾: الخبر.

٣ . ﴿مُوسَىٰٓ﴾: أي موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أحدُ أولي العزم من الرسل.

٤ .﴿بِٱلۡوَادِ﴾: المكانُ المنخفضُ بين الجبال.

٥ . ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾: المطهرُ، وهو مطهرٌ حسيًا ومعنويًا؛ لأن الله كلَّم فيه موسىٰ دونَ واسطةِ ملك، قال تعالىٰ له في الآية الأخرىٰ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢].

٦ . ﴿طُوًى﴾: هو اسمٌ للوادي علىٰ الصحيحِ.

٧.﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: لقبُ ملكِ القِبطِ بمصر في ذلك الزمن، ولم يُطلقه القرآن إلا علىٰ ملكِ مصرَ الذي أرسلَ إليه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأُطلقَ علىٰ الذي في زمنِ يوسفَ اسم الـمَلِك.

٨. ﴿طَغَىٰ﴾: الطغيانُ: مجاوزةُ الحد، مثلُ ادعاءِ عبدٌ الربوبيةَ والألوهية،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهو فرطُ التكبر.

٩. تَزَكَّىٰ: الزكاة: الزيادةُ، والنماءُ، والطهارةُ، أي: تتطهرُ بالإسلام من رجسِ الشركِ والكفر.

١٠. وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ: أي أرشدك إلىٰ معرفةِ ربك الحق.

١١. فَتَخْشَىٰ: فيخضعُ قلبكَ ويلينُ ويطيعُ، والخشيةُ الخوف المقرون بالعلم.

١٢. الآية: حقيقتُها العلامةُ والأمارة، وتطلقُ علىٰ الحجةِ المثبتة؛ لأنها علامةٌ علىٰ ثبوتِ الحق، وتطلقُ علىٰ معجزةِ الرسول؛ لأنها دليلٌ علىٰ صدقِ الرسولِ وهو المرادُ هنا.

١٣. ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ: هي العصا، وقيل العصا واليدُ البيضاءُ إذ هما من أكبرِ الآياتِ الدالةِ علىٰ صدقِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٤. أَدْبَرَ: الإدبارُ هو المشي إلىٰ الجهةِ التي هي خَلْفَ الماشي بأن يكونَ متوجهًا إلىٰ جهةٍ ثم يتوجهُ إلىٰ جهةٍ تعاكسها.

١٥. يَسْعَىٰ: السعي حقيقتُهُ: شدةُ المشي، وهو هنا مستعارٌ للحرصِ والاجتهادِ في أمرِه الناسِ بعدمِ الإصغاءِ لكلامِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٦. فَحَشَرَ: الحشرُ هو: الجمعُ من كلِّ جهة.

١٧. فنادىٰ: أي: نادىٰ بصوتٍ عالٍ في قومِه وأهلِ مملكتِه ليكونَ أبلغُ فيما يريد.

١٨. رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ: أي لا ربَّ لكم فوقي.

١٩. نَكَالَ: النكالُ مصدرٌ بمعنىٰ التنكيل، وهو إيقاعُ أذىٰ شديدًا علىٰ الغير بحيثُ يَرُدُّ ويَصْرِفُ من يشاهدُه عن أن يأتي بمثلِ ما عوملَ به المنكَّل به.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢٠. ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾: والآخرةُ هي دارُ الآخرة، والأولىٰ الدنيا، فالمعنىٰ نكالُ الآخرةِ بالنار، ونكالُ الأولىٰ بالغرقِ، وقيل: الآخرة قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، والأولىٰ قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وقيل: بالعكس فالمعنىٰ: أخذَه اللهُ وعاقبَه علىٰ كلمةِ الآخرةِ وكلمة الأولىٰ.

٢١. ﴿لَعِبۡرَةً﴾: والعِبرة: الحالةُ التي ينتقلُ الذهن من معرفتِها إلىٰ معرفةِ عاقبتها وعاقبةِ أمثالِها، وهي مشتقةٌ من العَبْر، وهو: الانتقالُ من ضفةِ وادٍ أو نهرٍ إلىٰ ضفتِه الأخرىٰ، والمراد بالعبرةِ هنا الموعظة.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ تسليةً للنبيِّ ﷺ وهو يعاني تكذيبَ قومِه له، من خلالِ قصةِ عبدِه ورسولِه موسىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ مع فرعون، حيثُ أيدَه اللهُ تعالىٰ بالمعجزات الباهرةِ فاستمرَ مع ذلك فرعون علىٰ كفرِه وطغيانِه، فأخذه اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدر، وهذه هي عاقبةُ من كذبَ رسلَه في كلِّ زمان.

٢. تفيدُ تسليةً للداعي إلىٰ الله تعالىٰ وحملِه علىٰ الصبرِ في دعوتِه حتىٰ ينتهي بها علىٰ غايتها.

٣. تفيدُ تهديدًا لقريشٍ وكلِّ من كذبَ بالحقِ والهدىٰ ببيانِ عاقبةِ المكذبين، ولو كانوا أقوىٰ أهلِ الأرض، بما كان لفرعون من الملكِ وكثرةِ الجنود وقوتِهم، فلما أصرَّ علىٰ التكذيبِ ولمْ يرجعْ أغرقه اللهُ وآله من الأعوان والاتباع فلم يبق منهم أحدًا مع كثرتهم.

٤. تفيدُ أهميةَ التشويقِ لما يقدمُ من أخبارٍ فيها العظةُ والعبرة؛ لأن الاستفهامَ للتنبيهِ والتشويقِ وإعدادِ النفسِ لتلقي القصة.

www.Quranonlinelibrary.com

٥. تفيدُ مكانةَ نبي اللهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حيثُ أضافَه إليه جل وعلا في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، وناداه وكلمَه، وشوقَ إلىٰ قصتِه التي هي نموذجٌ في الصدعِ بالحقِ والصمودِ أمام طغيان الضلال.

٦. تفيدُ إثباتَ مناجاةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لربهِ تعالىٰ، وأنه كلمه ربه كفاحًا بلا واسطة كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

٧. تفيدُ أن ما حصلَ للأنبياءِ من تقريبٍ، وتدبيرٍ، وإرسالٍ، ونصرٍ وتأييدٍ هو من فضلِ اللهِ ورحمتِه بهم وبغيرِهم من عبادِه بما يستوجبُ شكرَ النعمةِ من الجميع.

٨. تفيدُ إثباتَ صفةِ الكلامِ لله تعالىٰ، وأن القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوق، تكلمَ به تكلمًا؛ لأن النداءَ كلامٌ مسموعٌ لا محالة، والكلامُ للمتكلمِ، والنداءُ منه، وصفةٌ من صفاتِه، وهو بجميعِ صفاتِه غير مخلوق، ثم أخبرَ عن فرعونِ فقال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ فكان نداءُ فرعون مخلوقًا؛ لأن المنادي مخلوق، وكلُّ صفةٍ تبعُ للموصوف، فإن كان الموصوفُ مخلوقًا كان كلامُه مخلوقًا، وإن كان الموصوفُ خالقًا كان كلامُه غيرُ مخلوق.

٩. تفيدُ عظمَ المكانِ الذي كلمَ الله فيه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المحلُّ الذي كلمَه الله فيه، وامتنَّ عليه بالرسالةِ، واختصَّه بالوحيِ والاجتباء، حيث كلمَه بالوادي المطهرِ المسمىٰ بطوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٠].

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

١٠. تفيدُ أهميةَ طهرِ النفسِ والمكانِ الذي يقرأ فيه كلامُ الله، وهذا لا خلافَ فيه، لأن الله يحب المتطهرين، وكل ما هو طاهر، والواد المقدس بمعنىٰ المطهر.

١١. تفيدُ بغضَ اللهِ تعالىٰ للطغيانِ والتجبرِ والتمردِ المتمثلِ في الكفرِ والعصيان، والطغيانُ أمرٌ لا ينبغي أن يكونَ ولا أن يبقىٰ، لأنه مفسدٌ للأرضِ، مخالفٌ لما يحبه الله، مؤدٍ إلىٰ ما يكره.. فمن أجلِ منعه ينتدبُ الله عبدًا من عبادِه المختارين، ينتدبه بنفسِه سبحانه، ليحاولَ وقفَ هذا الشر، ومنعِ هذا الفساد، ووقفِ هذا الطغيان.

١٢. تفيدُ أهميةَ ذهابِ الدعاةِ للمفسدين في أماكنِهم لدعوتِهم، وأهميةِ الوصولِ للكبار وعليةِ القوم ودعوتهم.

١٣. تفيدُ أهميةَ الأسلوبِ الحكيمِ في الدعوةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، والدعوةِ بالحسنىٰ من اللينِ والرفقِ وتركِ الغلظةِ لكلِّ أحدٍ مهما كان فسادُه، من خلالِ أسلوبِ العرضِ والحضِ الذي جاء في هذه الآيات، وأن الدعاةَ إلىٰ اللهِ تعالىٰ عليهم أخذُ الناسِ بالرحمة؛ ولهذا قال الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٤. تدلُّ علىٰ أن الذين يخاشنون الناس ويعاملونهم بغلظ ويبالغون في التعصبِ كأنهم علىٰ ضد ما أمرَ اللهُ به أنبياءه ورسله.

١٥. تفيدُ أنه لا تزكيةَ للنفسِ البشريةِ إلا بالإسلام، المتمثلَ في الإيمان والعملِ بشرائعه.

١٦. تفيدُ أن الرسلَ بعثت لتزكيةِ النفوسِ وتطهيرِها من خلالِ الإسلام والمتمثل في الوحي الذي أنزله اللهُ تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ

ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

١٧. تدلُّ علىٰ أن معرفةَ الله مقدمةٌ علىٰ طاعتِه؛ لأنه ذكر الهدايةَ وجعلَ الخشيةَ مؤخَرةً عنها ومفرعة عليها، ونظيرُه قوله تعالىٰ في أول النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وفي طه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه: ١٤].

١٨. تفيدُ أن الخشيةَ لله تعالىٰ لا تكون إلا بالمعرفةِ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء به؛ ولذا قال هنا: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾.

١٩. تفيدُ أن الخشيةَ ملاك الخيرات؛ لأن من خشىٰ الله أتىٰ منه كلُّ خير، ومن أمن اجترأ علىٰ كلِّ شر، ومنه قوله ﷺ: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله عَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ)[١].

٢٠. تفيدُ أن الرسلَ أرسلوا لهدايةِ العبادِ إلىٰ اللهِ ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه، ويعرفوا مواقعَ رضاه، من مواقعِ سخطه.

٢١. تفيدُ أن العلمَ هو الذي يورثُ الخشيةَ والخير، والجهلَ هو الذي يورثُ الخبثَ والقسوة.

٢٢. تفيدُ بلاغةَ ما دعاه إليه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيثُ اقتصر هنا علىٰ ذكر

(١) أخرجه الترمذي في سننه ح رقم ٢٤٥٠، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ح رقم ٧٨٥١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الخشيةِ؛ لأن الخشيةَ ملاك كل خير.

٢٣. تفيدُ رحمةَ اللهِ تعالىٰ بعبادِه حيث عَلَّم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعوا أعتىٰ خلقِه بألطفِ أسلوبٍ وألينه، وأشدِه جاذبيةِ للقلوبِ لعله يتقي غضبِ ربه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدهما: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولم يقل كلوا.

الثاني: قوله ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتزكي النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمرا يقبله كل عاقل ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل أزكيك، فأضاف التزكية إلىٰ نفسه، وعلىٰ هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي أكون دليلا لك وهاديا بين يديك، فنسب الهداية إليه والتزكي إلىٰ المخاطب، أي أكون دليلا لك وهاديا فتزكىٰ أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك علىٰ كنز تأخذ منه ما شئت، وهذا أحسن من قوله أعطيك.

الخامس: قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلىٰ ربه فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمه جنينا وصغيرا وكبيرا وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك، وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

www.Quranonlinelibrary.com

السادس: قوله ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ أي إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالىٰ مقرونة بمعرفته، وعلىٰ قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنىٰ هل لك في ذلك حاجة أو إرب، ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلىٰ قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلىٰ حاجته ومصلحته لا إلىٰ حاجة الداعي، فكأنه يقول الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلىٰ أعظم مصالحك»[1].

٢٤. تفيدُ أهميةَ الحكمةِ في مخاطبةِ الطغاةِ، ولا يصلحُ لخطابِهم أي أحد، فقولُه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فيه علاجٌ عظيمٌ لما في نفسِه من الكبرياء، حيث ذكرَه بربه الموجِدِ له، المحسنِ إليه حتىٰ بلغَ في الدنيا غايةِ الآمال.

٢٥. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ أيَّدَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رحمةً وحكمةً بالأدلةِ القويةِ التي تدلُّ علىٰ صدقِه حتىٰ لا يكونَ لمعتذرٍ في الآخرةِ حجة، قال تعالىٰ له: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

٢٦. تفيدُ أن التكذيبَ بالحقِّ يقودِ إلىٰ التوالي والفسادِ دائمًا، والتصديقَ به يقودُ إلىٰ الاستجابةِ والخيرِ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾.

٢٧. تفيدُ ما كان عليه فرعونُ من التعجلِ حيث عقبَ فعل ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ بفعلِ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ للدلالةِ علىٰ شدةِ عنادِه ومكابرتِه حتىٰ أنه رأىٰ الآية فلم يترددْ ولم يتمهلْ حتىٰ ينظرَ في الدلالةِ، بل بادرَ إلىٰ التكذيبِ والعصيان.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢/ ١٤٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢٨. تفيدُ أن وجودَ المعجزاتِ لا يستلزمُ الإيمان فقد رأىٰ فرعونُ أعظمَ الآياتِ كالعصا واليد وما آمن ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾.

٢٩. تفيدُ أن سعيِ فرعون في مواجهةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعدَ تفكيرٍ ونظر، لأنه عطف ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالةِ علىٰ التراخي الرتبي، أي: بعد أن فكّرَ مليًا لم يقتنع بالتكذيبِ والعصيانِ، فخشي أنه إن سكت ربما تروجُ دعوةُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الناسِ فأرادَ الحيطة لدفعِها وتحذيرَ الناس منها، فشاور ملأه كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٩ - ٣٧].

٣٠. تفيدُ أن من أسوأ الفسادِ بعد التكذيبِ مقابلةِ الحقِّ بالباطل، والوقوفِ في وجهِ الحق، حيث جمعَ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من المعجزاتِ الباهرةِ، فالإدبارِ كنايةٌ عن الإعراضِ عن الإيمانِ، ويسعىٰ عبارةٌ عن جدِه في الكفرِ وفي إبطالِ أمرِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣١. تفيدُ سفهَ قومِ فرعون عند ما ناداهم فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فلم ينكر منهم أحد؛ بل أذعنوا له وأقروا بباطلِه حين استخفهم.

٣٢. تفيدُ أنه لا يطغىٰ فردٌ في أمةٍ كريمةٍ رشيدةٍ تعرف ربها، وتؤمن به وتأبىٰ أن تتعبدَ لواحدٍ من خلقه لا يملكُ لها ضرًا ولا رشدًا! فأما فرعونُ فوجدَ في قومِه من الغفلةِ ومن الذلةِ ومن خواءِ القلبِ من الإيمان ما جرؤ به علىٰ قول هذِه الكلمةِ الكافرةِ الفاجرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وما كان ليقولَها أبدًا لو وجد أمةً واعيةً كريمةً مؤمنةً، تعرفُ أنه عبدٌ ضعيفٌ لا يقدرُ علىٰ شيء،

وإن يسلبهُ الذبابُ شيئًا لا يستنقذه منه!

٣٣. تفيدُ مدىٰ ما وصلَ إليه فرعون من الفسادِ والطغيان ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

٣٤. تفيدُ التنديدَ والوعيدَ الشديدَ لمن يدعي الربوبيةَ والألوهيةَ فيأمر الناسَ بعبادته.

٣٥. تفيدُ أن سعي أهلِ الباطلِ لهدمِ الحقِ عاقبته وبالٌ وخسران مهما طال الزمان، ولله عاقبةُ الأمور ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾.

٣٦. تفيدُ أن الطغيانَ لا يمكن أن يكونَ من رجلٍ رشيد يعرفُ قدرَ نفسه وفقرَه لخالقه؛ فإن هذه الآياتِ تصورُ ما كان عليه فرعون من الغرورِ، وما كان عليه شعبُه من الخضوعِ والاستسلامِ.

٣٧. تفيدُ أن اللهَ يأخذُ الطغاةَ في أوجِ عظمتِهم، ما من عبدٍ يتطاولُ علىٰ اللهِ إلا قصمَه في عزِّ طغيانه.

٣٨. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ انتقمَ من فرعونَ بصورةٍ تجعلُه عبرةً ونكالًا لأمثالِهِ من المتمردين في الدنيا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾، ولله في إهلاكِ الطغاةِ والمكذبين عبرٌ لمن يعتبر.

٣٩. تفيدُ حلمَ اللهِ، وأنه يمهلُ ولا يهملُ، حيث أمهله كلَّ هذه المدةِ وهو يفسدُ ويطغىٰ، ويسعىٰ بالفسادِ في الأرضِ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

٤٠. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ بمصيرِ الظالمين، وسوءِ عاقبتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا

ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢].

٤١. تفيدُ أن الذي يعرفُ الله هو الذي يخشىٰ عقابه، فإذا رأىٰ عقوبةَ فرعون، عرفَ أن كلَّ من تكبرَ وعصىٰ، وبارز الملك الأعلىٰ، عاقبَه في الدنيا والآخرة، وأما من خلت خشيةُ الله من قلبِه، فلو جاءته كلُّ آيةٍ لم يؤمن بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٤٢. تفيدُ أن هذه القصةَ تحملُ مواعظَ كثيرة، حيث جعلَها مَثُلات للأعمالِ وعواقبِها، ومراقبةِ الله وخشيتِه، وما يترتبُ علىٰ ذلك وعلىٰ ضده من خيرٍ وشرٍ في الدنيا والآخرة.

٤٣. تفيدُ أن من أدلةِ البعثِ بيانَ قدرةِ اللهِ في مصارعِ الظالمين في الأرضِ، فإن من يفكرْ في إنجاءِ بني إسرائيل علىٰ ضعفِهم، ثم انفلاقِ البحرِ، ثم بإيرادِهم إياه، ثم بإغراقِهم فيه كلمحِ البصر، عرف قدرةَ الله تعالىٰ علىٰ إيرادِ الكفارِ النارَ وقهرَ كلِّ جبارٍ عنيد.

٤٤. تفيدُ أن أهلَ الخشيةِ هم أهلَ العقولِ النيرة؛ لأنهم يفهمون دلالةَ الأشياءِ علىٰ لوازمِها وخفاياها، فالذي يعرفُ ربه ويخشاه هو الذي يدركُ ما في حادثِ فرعونِ من العبرةِ لسواه. أما الذي لا يعرفُ قلبه التقوىٰ فبينه وبين العبرةِ حاجزٌ وحجاب، حتىٰ يصطدمَ بالعاقبة اصطدامًا.

٤٥. تفيدُ أن أخبارَ الأممِ السابقةِ لها فوائدُ كثيرةٌ منها التسليةِ للمؤمنين، والتهديدِ للمكذبين، وغيرِها.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

تتضمن هذه الآيات عدة حلقات ومشاهد من قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون، فبدأت أولًا بما يشوق إليها، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، ثم جاء الحديث عن أول حدث فيها وهو مشهد المناداة والمناجاة: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ثم بين ما أمر به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد المناداة من تكليف إلهي والسبب الداعي لذلك: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، ثم بين له كيف يدعوه ويخاطبه، حيث أمره أن يخاطبه بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب، لعله ينتهي، ويتقي غضب الله وأخذه: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، ولما ينتهي مشهد النداء والتكليف يأتي الحديث بعده في مشهد المواجهة والتبليغ، الذي يختصره علىٰ ختام مشهد المواجهة؛ لأنه ذهب إليه كما أمره الله تعالىٰ، فطلب الدليل علىٰ صحة الرسالة، واستبعد أن يختص عنه بهذه المنزلة العلية، وقد رباه وليدًا ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ثم يبين ما حدث ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ وانتهىٰ مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال!

ثم يعرض مشهدًا آخر. مشهد فرعون يتولىٰ عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويسعىٰ في جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق. حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدىٰ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، ثم بين ما حدث له من غرور بعد أن جمع ونادىٰ فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فلما بين غاية طغيانه، بين لعباده قوة سلطانه ليعتبر بذلك من يعتبر ممن يعرف الله ويخشاه فقال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، ولم ينفعه إيمانه لما رأىٰ بأسه، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ

www.Quranonlinelibrary.com

بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ
﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

خامسًا: التساؤلات التدبرية:

السؤال الأول: لماذا قدم نكال الآخرة على الأولى؟ قيل: قدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى؛ لأنه أشد وأبقى، وهو الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيس.

السؤال الثاني: كيف نوفق بين قوله تعالى هنا اذهب إلى فرعون إنه طغى، وفي سورة طه ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]، قيل: ولا تعارض لأن الله أولًا أرسله فطلب من الله أن يكون معه أخاه هارون فرسالتهما واحدة.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوع الثالث
بعض آيات الله الكونية
الدالة على قدرته على كلِّ شيء

قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما تحدثَ عن مصارعِ الطغاةِ المعتدين بقوتِهم، الذي علىٰ رأسهم طاغية الزمان فرعون، وختَم قصته بما يدل علىٰ العبرة، وكان من أعظمِ عبرتِها القدرةُ التامةُ لا سيما علىٰ البعث، الذي كانوا يستبعدونه لاستبعادِ القدرةِ عليه، عاد الخطابُ إلىٰ المشركين المعتزين بقوتِهم كذلك، المنكرين للبعث بإبطال شبهتهم علىٰ نفي البعثِ بردِهم إلىٰ شيءٍ من مظاهر القوة الكبرىٰ في هذا الكون، لعلها تكون عبرة لهم وهداية أخرىٰ فقال تعالىٰ لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، ثم انتقلَ الكلامُ من الاستدلالِ بخلقِ السماءِ التي هي أدلُ في القدرةِ لما فيها من العجائبِ والمنافع مع كونِها أشرف، إلىٰ الاستدلالِ بخلقِ الأرض؛ لأن الأرضَ أقربُ إلىٰ مشاهدتِهم وما يوجدُ علىٰ الأرض أقربُ إلىٰ علمِهم بالتفصيلِ أو الإجمالِ القريبِ من التفصيل، ولما ذكرَ الأرضَ ومنافعَها، ذكرَ المراسي التي تم بها نفعها فقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، ولما كانت

الإعادةُ واضحةً من خلالِ ما يخرجُه من مرعىٰ للإنسانِ والحيوان ختم به.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. ءَأَنتُمۡ: أي: أيها الناس، والمرادُ بالاستفهامِ تقريرُ مسألةِ قدرة الله تعالىٰ علىٰ البعث وما يشاء.

٢. بَنَىٰهَا: شيدها.

٣. سَمۡكَهَا: والسمكُ غلظُ السماءِ وارتفاعُها الذي بين سطحِ السماء الأسفلِ الذي يلينا، وسطحِها الأعلىٰ الذي يلي ما فوقها، ومعنىٰ رفعَه أنه جعلَه مسيرةَ خمسِ مائة عام، وقيل: السمك السقف.

٤. فَسَوَّىٰهَا: أي: أتقنَ خلقتَها في إحكامٍ يحيرُ العقول، ويذهلُ الألباب، وقيل: جعلَها مستويةً ليس فيها مرتفعٌ ولا منخفض.

٥. وَأَغۡطَشَ: أظلَم ليلَها، والإغطاشُ: جعلُه غاطشًا، أي ظلامًا.

٦. وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا: أي: أبرزَ نهارَها، وإخراجُ الضحىٰ: إبرازُ نور الضحىٰ.

٧. والضحىٰ: بروزُ ضوءِ الشمسِ بعد طلوعِها، وبعد احمرارِ شعاعها.

٨. دَحَىٰهَآ: أي بسطَها، وأخرجَ منها الماءَ والمرعىٰ، وجعلَ فيها منافعها.

٩. وَمَرۡعَىٰهَا: مكانُ الكلأ والعشب.

١٠. أَرۡسَىٰهَا: أثبتها وأكدها في أماكنها.

١١. مَتَٰعٗا لَّكُمۡ: تمتيعًا لكم منه، والمتاعُ يطلقُ علىٰ ما ينتفعُ به مدة.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ أن من أقوىٰ أدلةِ البعثِ خلقُ السمواتِ والأرضِ، قال تعالىٰ:

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ

﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾[غافر:٥٧]، فهذا التوقيفُ قصدَ به الاستدلالَ علىٰ البعث، فإن الذي خلقَ السماءَ قادرٌ علىٰ إعادةِ الأجسادِ بعد فنائها.

٢. تفيدُ قوةَ حججِ القرآنِ الكريم؛ لأنه استفهامٌ لا يحتملُ إلا إجابةً واحدةً بالتسليمِ الذي لا يقبلُ الجدلَ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾.. السماء! بلا جدالٍ ولا كلامٍ! فما الذي يغركُم من قوتِكم والسماءَ أشدُّ خلقًا منكم، والذي خلقَها أشدُّ منها؟ هذا جانب من إيحاء السؤال.

٣. تفيدُ أن اللهَ خلقَ السماءَ، وجعلَها عاليةَ البناء، بعيدةَ الفناء، مستويةَ الأرجاء، ليس بعضُها أرفعَ من بعض، ولا أخفضَ من بعض، فجعلها مستوية لا شيء فيها أعلىٰ من شيء ولا أخفض ولا فطور فيها، وأصلحَها بما تم به كمالها من الكواكبِ وغيرها بما يدلُ علىٰ قوتِه وقدرتِه ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

٤. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ بقدرتِه ورحمتِه وعلمِه وحكمته جعلَ الليلَ مظلمًا حالكًا، والنهارَ مضيئًا مشرقًا نيرًا واضحًا، وهما آيتان عظيمتان من آياتِ اللهِ تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء:١٢].

٥. تدلُّ علىٰ عظمةِ قدرةِ اللهِ من خلالِ إظلامِ الوجودِ وإنارتِه بنظامٍ دقيقٍ لا يتخلفُ ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

٦. تفيدُ بيانَ قدرةِ اللهِ وحكمتِه من خلالِ دحيِ الأرضِ حيث أخرجَ ما

فيها من عيونٍ مكنونة، وأنبتَ زروعَها وأخرجَ ثمارَها ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾.

٧. تفيدُ أن دحي الأرضِ كان بعدَ خلقِ السماء، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ - ١١].

٨. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ الماءِ، وأن اللهَ هو المخرجُ له من الأرض، وهو المنزلُ له من السماءِ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] بما يوجبُ شكرَ المنعمِ في كلِّ قطرة.

٩. تفيدُ إفضالَ اللهِ تعالىٰ علىٰ الإنسانِ وإنعامِه عليه، حيث أخرج له كلَّ هذه النعم.

١٠. تفيدُ أن إخراجَ المرعىٰ يدلُّ علىٰ كلِّ ما تخرجُه الأرضُ من الثمارِ والحبوب، وهي تدلُّ علىٰ لطفِه بالإنسانِ؛ لأن ذكرَ المرعىٰ يدلُّ علىٰ لطفِ اللهِ بالعجماوات فيعرفُ منه أن اللطفَ بالإنسانِ أحرىٰ بدلالةِ فحوىٰ الخطاب، والقرينةُ علىٰ الاكتفاءِ قوله بعده ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

١١. تفيدُ بيانًا لقدرةِ اللهِ وحكمتِه حيث قرر هذه الجبالِ وثبتها في مكانِها لتستقرَ الأرضُ بأهلها ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾.

١٢. تفيدُ أن كلَّ هذا التسخيرِ للسمواتِ والأرض وما بينهما متاعٌ لمن

www.Quranonlinelibrary.com

خلقوا لعبوديته ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

١٣. تفيدُ أن النعمَ التي خلقت لنا ينبغي شكرُ المنعمِ بها، وتسخيرَها فيما خلقت له.

١٤. تفيدُ أن الذي خلقَ السماواتِ العظامَ وما فيها من الأنوارِ والأجرام، والأرضِ الكثيفةِ الغبراءِ، وما فيها من ضرورياتِ الخلقِ ومنافعِهم لابد أن يبعثَ الخلقَ المكلفين، فيجازيَهم علىٰ أعمالِهم، فمن أحسنَ فله الحسنىٰ، ومن أساءَ فلا يلومنَ إلا نفسه، ولهذا ذكرَ بعد هذا القيامِ الجزاء.

١٥. تفيدُ مشروعيةَ الاستدلالِ بالكبيرِ علىٰ الصغيرِ، وبالكثيرِ علىٰ القليلِ، وهو مما يعلمُ بداهةً وبالضرورة؛ إلا أن الغفلةَ أكبرُ صارفٍ وأقوىٰ حائل فلابدَ من إزالتها أولا.

١٦. فيها ما يذكرُ الناسَ بعظيمِ تدبيرِ الله لهم من ناحية، كما يشيرُ إلىٰ عظمةِ تقديرِ الله في ملكه، فإن بناءَ السماءِ علىٰ هذا النحوِ، ودحو الأرضِ علىٰ هذا النحوِ أيضًا الفريد لم يكونا فلتةً ولا مصادفةً. إنما كان محسوبًا فيهما حساب هذا الخلق الذي سيستخلفُ في الأرض، وتقريرُ حقيقةِ التدبيرِ والتقديرِ في تصميمِ هذا الكون الكبير، وحسابُ مكانٍ للإنسانِ فيه ملحوظٌ في خلقِه وتطويرِه أمرٌ يعد القلبَ والعقلَ لتلقي حقيقةِ الآخرة وما فيها من حسابٍ وجزاءٍ باطمئنانٍ وتسليم.

١٧. تفيدُ أن الناسَ شركاءُ في الماءِ والكلأ، وحجارةِ الجبال وحطبِه، ما لم يقع فيه الحيازات بالأملاكِ الظاهرة.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

ولما ختم تعالىٰ قصة فرعون بما يدعو للاعتبار بعظمة الواحد القهار، القادر علىٰ بعث العباد ومعاقبة المكذبين الطغاة، زادهم في البيان والعبرة ببعض آياته المبثوثة في كونه التي تدل علىٰ كمال قدرته فقال تعالىٰ لهم: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾، ولما كان الجواب قطعًا: السماء بين كيفية خلقها بما يؤكد شدتها وعظمتها فقال: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، لما كان كل من ذلك يدل علىٰ القدرة علىٰ البعث؛ لأنه إيجاد ما هو أشد من خلق الآدمي من عدم، أتبعه ما يتصور به البعث في كل يوم وليلة مرتين فقال: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، ولما أتم العبرة في العالم العلوي ثنىٰ بالعالم السلفي فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ومدها للسكنىٰ وبقية المنافع، ولما ذكر الدحو، أتبعه بما يزيد في معناه فقال: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾، ولما ذكر الأرض ومنافعها، ذكر المراسي التي تم بها نفعها فقال: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾، ولما بين كمال قدرته وتدبيره ونعمته علىٰ عباده، بين ما يدل علىٰ زوالها وفنائها حيث جعلها متاعًا، فقال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الرابع
مصيرُ العبادِ يوم البعث
الذي منتهى علمه عند الله تعالى

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ
﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ
ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ
ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا
عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٤-٤٦].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما بينَ تعالىٰ مظاهرَ قدرتِه في الكونِ والحياةِ تدليلًا علىٰ قدرتِه علىٰ البعثِ والجزاءِ، بين هنا أحوالِ البعثِ العامة، ثم بينَ أحوالَ الأشقياءِ والسعداءِ فيها؛ لأن إثباتَ البعثِ يقتضي الجزاءَ إذ هو حكمتُهُ، ثم بين وقت وقوعِه الذي كانَ يَسألُ عنه المشركون علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ إيهامًا لأَتباعِهم، ومن بابِ استعجالِ العذاب، قال تعالىٰ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

ومن تمامِ المناسبةِ للتذكيرِ بيومِ الجزاءِ وقوعُهُ عقبَ التذكيرِ بخلقِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الأرض، والامتنانِ بما هَيّأ منها للإنسانِ متاعًا به، للإشارةِ إلىٰ أن ذلك ينتهي عندما يحين يومُ البعثِ والجزاء.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. فَإِذَا: ظرف للمستقبل؛ فلذلك إذا وقعَ بعدها الفعلُ الماضي صُرف إلىٰ الاستقبالِ، وإنما يُؤتىٰ بعد (إذا) بالفعلِ الماضي لزيادةِ تحقيقِ ما تفيده (إذا) من تحقق الوقوع.

٢. ٱلطَّآمَّةُ: أصلُ الطامةِ في اللغة: الداهيةُ العظيمة، وقيل: هي الأمرُ الذي لا يستطاعُ ولا يطاقُ، يقال: طمَّ الوادي إذا جاء منه ما لا يطاقُ وعلا كلَّ شيء، فهي تعلو علىٰ كلِّ داهيةٍ وتغلبُ أمثالَها من الأحداثِ الجسامِ والمرادُ بها هنا القيامة.

٣. يَتَذَكَّرُ: أي: يذكرُ ما كان ناسيًا له.

٤. مَا سَعَىٰ: أي ما عملَ في الدنيا من خيرٍ وشر.

٥. وَبُرِّزَتِ: أظهرت.

٦. لِمَن يَرَىٰ: أي لكلِّ راءٍ، أي لمن له بصر.

٧. فَأَمَّا مَن طَغَىٰ: أي كفرَ وظلمَ وتجاوزَ حده.

٨. وَءَاثَرَ: والإيثارُ: تفضيلُ شيءٍ علىٰ شيءٍ في حالٍ لا يتيسرُ فيها الجمعُ بين أحوالِ كلٍّ منهما.

٩. ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا: المرادُ بالحياةِ الدنيا حظوظُها ومنافعُها الخاصةُ بها، أي التي لا تُشاركُها فيها حظوظُ الآخرة، فالكلامُ علىٰ حذفِ مضاف، تقديره: نعيم الحياة.

١٠. فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ: كلُّ نارٍ عظيمةٍ في حفرةٍ عميقة.

١١ . ٱلۡمَأۡوَىٰ: اسمُ مكانٍ، من أوَىٰ، إذا رَجعَ، فالمرادُ به: المقرُ والمسكن؛ لأن المرءَ يذهبُ إلىٰ قضاءِ شؤونه ثم يرجعُ إلىٰ مسكنه.

١٢ .مَقَامَ رَبِّهِۦ : أي قيامَه بين يديهِ ليسألَه عما قدمَ وأخر، وأصلُ المقامِ مكانُ القيامِ، ثم شاعَ إطلاقُهُ علىٰ نفسِ ما يضافُ إليه علىٰ طريقةِ الكنايةِ بتعظيمِ المكانِ عن تعظيمِ صاحبه، فإن خوف مقامِ اللهِ مراد به خوفُ الله.

١٣ . ٱلۡهَوَىٰ: ما تهواه النفس، وشاعَ الهوىٰ في المرغوبِ الذميم، أي المردي المهلكِ باتباع الشهوات.

١٤ . فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ: أي مأواه الذي يأوي إليه بعدَ الحساب.

١٥ . عَنِ ٱلسَّاعَةِ: أي القيامةِ للحسابِ والجزاء.

١٦ . أَيَّانَ: اسمٌ يستفهمُ به عن تعيين الوقت.

١٧ . مُرۡسَىٰهَا: أي متىٰ وقوعُها وقيامُها ومنتهاها، و﴿مُرۡسَىٰهَا﴾ مصدر ميمي لفعل أرسىٰ، والإرساءُ: جعلُ السفينةِ عند الشاطئ لقصدِ النزولِ منها.

١٨ . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ: أي في أي شيءٍ من ذكرَاها أي ليس عندك علمُها حتىٰ تذكرَها.

١٩ . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ: المنتهىٰ: أصلُهُ مكانُ انتهاءِ السير، ثم أطلقَ علىٰ المصيرِ؛ لأن المصيرَ لازمٌ للانتهاءِ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ثم تُوسِّع فيه فأطلقَ علىٰ العلمِ، أي: منتهىٰ علمها إلىٰ الله وحده فلا يعلمها سواه.

٢٠ . لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ: أي في قبورِهم.

٢١ . إِلَّا عَشِيَّةً: آخرُ النهارِ من العصرِ إلىٰ غروبِ الشمس.

٢٢ . ضُحَىٰهَا: من طلوعِ الشمسِ إلىٰ ارتفاعها.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ شدةَ يومِ القيامة الذي وصف بوصفٍ يؤذنُ بالشدةِ والهولِ، فهي تغطي وتطمُّ على كلِّ أمرٍ هائلٍ مفظع، ولا يعظمُها شيء: لا ريحُ عادٍ ولا صيحةُ ثمودٍ ولا رجفةُ يوم الظلة[1]، ثم بولغُ في تشخيصِ هولها بأن وصفت بـ ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ فكان هذا أصرحُ الكلماتِ لتصوير ما يقارنُ هذه الحادثةَ من الأهوالِ، والقيامة قد وصفت بأوصافٍ عديدة في القرآنِ تدلُّ على هولِها مثل: الصاخّةُ، والقارعةُ، والراجفةُ، ووصفتْ هنا بالطامةِ الكبرى.

٢. تفيدُ أن الإنسانَ في الآخرةِ يتذكرُ جميعَ عملِهِ من خيرٍ وشر، ويُذكر به من خلال كتابه الذي يشتمل عليها ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

٣. تفيدُ أن الإنسانَ في الدنيا ينسى ما قدمه، لأن التذكرَ يقتضي سبقَ النسيانِ، وهو انمحاءُ المعلومِ من الحافظةِ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

٤. تفيدُ الجزاءَ، إذ ليس المقصودُ من التذكرِ إلا أثرَه، وهو الجزاءُ فكني بالتذكرِ عن الجزاء قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

٥. تفيدُ أن جهنَم يؤتى بها، وتظهرُ يومَ القيامةِ لمن يراها عيانًا، فلا حائل بينَ أحدٍ وبين رؤيتها، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: أظهرت، كما قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

٦. تفيدُ أن إبرازَ الجحيمِ يفيدُ مزيدَ تخويفٍ وغمٍ وحسرةٍ للكافرين،

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٣٦٢).

www.Quranonlinelibrary.com

وإظهارُ مزيدِ فضلٍ للمؤمنين، فيعرفون برؤيتِها قدرَ نعمةِ الله عليهم بالسلامةِ منها ومن هولها.

٧. تفيدُ أن الناسَ في الآخرةِ يصيرون إلىٰ مصيرين لا ثالث لهما، مصيرُ جنة، ومصيرُ نار، وكل واحد منهما مرتهن بعمله.

٨. تفيدُ ذمَ الطغيانِ الذي يكون سببًا لورودِ الجحيمِ المتمثلُ في تركِ الإيمان والاستجابةِ للرحمن بأداء فرائضِه واجتنابِ نواهيه.

٩. تفيدُ أن من يقدمُ دنياه علىٰ دينِه وآخرتِه، ويصرفُ كلَّ جهدِه وطاقتِه لها، ويستغرقُ عمرَه في شهواتِها، ولم يعمل للآخرة، من الأعمال الصالحة من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ونحوها هو في الآخرةِ من الخاسرين.

١٠. تفيدُ سوءَ مصيرِ الكفار، حيث تكونُ النارُ مأواهم ومستقرَهم، فيكون شرابُهم الحميم، وطعامُهم الزقوم والغسلين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

١١. تفيدُ أن تقديمَ ذكرِ الطغيانِ علىٰ إيثارِ الحياةِ الدنيا؛ لأن الطغيانَ من أكبرِ أسبابِ إيثارِ الحياةِ الدنيا، فلما كان مسببًا عنه ذكرَ عقبَه مراعاةً للترتيبِ الطبيعي.

١٢. تفيدُ أن مناطَ الذمِ في إيثارِ الحياةِ الدنيا علىٰ الآخرةِ، فأما الأخذُ بحظوظِ الحياةِ الدنيا التي لا يفوتُ الأخذُ بها حظوظ الآخرة فذلك غيرُ مذموم، وهو مقامُ كثيرٍ من عِبادِ الله الصالحين، يقص الله تعالىٰ عن صالحي بني إسرائيل من قولِهم لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

١٣. تفيدُ منزلةَ الخوفِ من الوقوفِ بين يدي اللهِ تعالىٰ للحسابِ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهو الذي يدفعُ لحسنِ العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

١٤. تفيدُ أن من خوفِ مقامِ الربِّ تعالىٰ، خوفه مقامَه علىٰ عبدِه بالاطلاعِ والقدرةِ والربوبية، فخوفَه من هذا المقام: يوجبُ له خشوعَ القلبِ لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له كان أشدَّ خشوعا، وإنما يفارقُ القلبَ إذا غفلَ عن اطلاعِ اللهِ عليه ونظرِه إليه.

١٥. تفيدُ بيانَ شدةِ خوفِ المؤمنينَ من ربِّهم جل وعلا، إذا خافَ ذلك المقامِ فما ظنُّك بالخوفِ من صاحبِه، وهذا لا يفعلُه إلا من تحققَ المعاد.

١٦. تفيدُ أهميةَ ردِّ النفسِ عن هواها وشهواتِها التي تخالفُ الشرعَ، ويكونُ هواها تبعًا لما يريدُه مولاها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

١٧. تفيدُ أن النفسَ تدعو إلىٰ السيئاتِ، والعاقل بعقلِه ودينِه ينهاها عن هذه الدعوةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

١٨. تفيدُ أن الجنةَ مأوىٰ المتقين، ولنعمَ المأوىٰ هي، حيثُ العيونُ الجارية، والسررُ المرفوعة، والأكوابُ الموضوعة، والنمارقُ المصفوفة، والزرابيُ المبثوثة، والكواعبُ العربُ الأتراب، ولقاءُ الأحباب، وذهابُ النصب والأحزان.

١٩. تفيدُ أن النفسَ تدعو إلىٰ الطغيان، وإيثارِ الحياةِ الدنيا، والرب يدعو عبدَه إلىٰ خوفِه ونهي النفسِ عن الهوىٰ، والقلبُ بين الداعيين يميل إلىٰ هذا الداعي مرةً وإلىٰ هذا مرةً، وهذا موضعُ المحنةِ والابتلاء، وبينهما الفوزُ والنجاة.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢٠. تفيدُ أن الكفارَ كانوا يستبعدونَ البعث، ويسألونَ عن وقتِ وقوعه سؤالَ استبعادٍ وليس للاستعدادِ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩ - ٣٠].

٢١. تفيدُ أن الساعةَ ليس علمُها عند أحدٍ من الخلقِ، بل مردُّها ومرجعُها إلىٰ الله تعالىٰ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

٢٢. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ لا يعلمُ من الغيبِ إلا ما أطلعَه اللهُ عليه.

٢٣. تفيدُ أن المشركين اتخذوا إعراضَ القرآن عن تعيين وقتها حجةً لهم علىٰ استبعادِها؛ لأنهم جهلوا أن مهمةَ النبيِّ ﷺ التحذيرُ من بَغْتَتِها، وليس حظُّه الإعلامَ بتعيين وقتها.

٢٤. تفيدُ أن كلَّ من يسألُ عن وقتِ الساعةِ يردُ علمها إلىٰ الله تعالىٰ.

٢٥. تفيدُ أن مهمةَ الرسولِ والدعاةِ إنذارُ الناسِ وتحذيرُهم من شدةِ الساعة وهولها وليس تحديد زمانها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

٢٦. تفيدُ أن الذي ينتفعُ بالإنذارِ والإخبارِ عنها من يخشاها، ولذا خصَ ذكرَ الإنذارِ بمن ينتفعُ بها، مع أن النبيَّ ﷺ كان ينذرُ جميعَ الناسِ لا يخصُّ قومًا دون آخرين، ولا يُعرفُ من يَخشىٰ الساعة إلا بعد أن يؤمِنَ المُؤمن ولو عرفَ أحدٌ بعينه أنه لا يؤمنُ أبدًا لما وجهت إليه الدعوة، فتعين أن المرادَ: أنه لا ينتفعُ بالإنذار إلا من يخشىٰ الساعةَ ومن عداه تمُرُّ الدعوة بسمعه فلا يَأبَهُ بها.

٢٧. فيها التنويهُ بشأنِ المؤمنين، وبيانُ مزيتِهم، مع ما فيها من التحقيرِ للذين بقُوا علىٰ الكفرِ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣].

٢٨. تفيدُ بيانَ هوانِ الدنيا وقصرِها في الآخرةِ، ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ذكرَ ما دلَّ علىٰ البعثِ، أتبعَه ما يكونُ في البعثِ من أحوالٍ عامة ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، ولما أشارَ إلىٰ الحسابِ بتذكرِ السعي، وبروزِ جهنمِ للعذابِ ذكرَ ما بعده ما يكونُ من أحوالِ العبادِ فيه، جاء الحديثُ عن كلِّ قسم فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، ولما ذكرَ مصير من طغىٰ، أتبعَه بمصيرِ من اتقىٰ فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، ولما قسمَهم هذا التقسيم الذي لا شيءَ غيرَه، عادَ الحديثُ مسفهًا آخرَ ما عندهم من شبهٍ عن البعث، وهو سؤالُهُم عن وقتِها إذا كانت حقًا، فقال تعالىٰ ردًا عليهم: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، فإن من فيه أهليةُ الخشيةِ لا يزيدُه إبهامُها إلا خشية، وغيرُهُ لا يزيدُه ذلك إلا اجتراءً وإجرامًا، فما أرسلناك إلا للإنذارِ بها لا للإعلامِ بوقتها، فإن النافعَ الأولُ دون الثاني، ثم ختمَ ببيانِ مصيرِ الناكرين فيها عند وقوعها.

خامسًا: المناسبةُ بين فاتحةِ السورة وخاتمتها:

فاتحة السورة كان في القسم علىٰ البعث، ثم بين أول ما يكون من أحداث الساعة، وبين في آخرها كيفية مجيئها، ومصير كل فريق، مع بيان حال العباد عند رؤيتها.

سادساَ: خصائص السورة في عرض هداياتها:

- البدءُ بالقسمِ بخمسِ أنواعٍ من مخلوقاته، والراجحُ أنها الملائكةُ، لتأكيدِ وقوعِ البعثِ؛ لأن المرادَ من القسمِ تحقيقُ ما بعدَه من الخبر ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾.
- تسميةُ الرجوعِ إلىٰ الحياةِ بعدَ الموتِ بالحافرة ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.
- تسميةُ الأرضِ التي يحشرُ عليها العبادُ بالساهرة ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.
- بيان تفاصيلِ القولِ اللينِ الذي أمرَ به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقولَه لفرعونَ في قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.
- بيان أن أخذَ فرعونَ كان بسببِ فسادِ العقيدةِ وادعاءِ الألوهية والربوبية، قال تعالىٰ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

• السؤالُ للمشركين بأنهم هم الأشدُ في الخلقِ أم السماءُ في صورةٍ تقررُ البعثَ من خلالِ بيانِ القدرةِ علىٰ الصغيرِ بالكبيرِ وبالكثيرِ علىٰ القليلِ، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

• الحديثُ عن دحو الأرض بعد خلقِها بما جعلَها صالحةً للأنام، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

• تسميةُ القيامةِ بالطامةِ الكبرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

• تلخيصُ سببِ المأوىٰ للجحيمِ أو النعيمِ في سببين، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

• بيان أن مهمةَ النبيِّ ﷺ من الساعةِ إنذارُ من يخشاها، مع بيانِ قصرِ الدنيا في الآخرةِ بوصفِها بالعشيةِ والضحىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

• تسميةُ السورةِ بالنازعاتِ الذي يذكرُ بمرحلةٍ خطيرةٍ في حياة الإنسانِ الكلِّ يحذرُها ويخشاها، لحظةَ فراقِ الدنيا واستقبال الآخرة.

سابعًا: التكاليفُ الإيمانيةُ والعمليةُ من هداياتِ السورة:

١. الإيمانُ بالملائكةِ، وأنهم موكلون بأعمالٍ عظيمة، من قبضِ الأرواح، وحفظِ العبادِ وأعمالهم، وتدبيرِ بعض الأمور وغيرها، كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ بذلك في كتابِه، وأخبرَ رسولُه ﷺ في سنته.

٢. الإيمانُ بالبعثِ، وعلاماتِه، وما يكونُ فيه من أحوالِ العباد، والخاسرُ من كذبَ ولم يؤمن به، وبما فيه.

٣. العملُ علىٰ تبليغِ الحقِ والهدىٰ لكلِّ أحدٍ مهما كان سلطانُه وطغيانُه وفسادُه.

٤. استعمالُ الحكمةِ واللينِ في الدعوةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ من خلالِ تخيرِ الألفاظِ الجميلةِ والأعمالِ الحميدة حتىٰ تكون هنالك استجابةٌ وقبول، ولا يكون الداعيةُ سببًا لإعراضِ الناسِ ونفورهم.

٥. التزودُ بالحججِ الوافيةِ عند الذهابِ لمحاورةِ شخصٍ بعيدٍ عن الهدىٰ، مع التزودِ بالعلمِ الكافي الذي يورثُ الخشيةَ ويدمغُ أعداءَ الهدىٰ والدعوة.

٦. الاعتبارُ بمصارعِ الظالمين والطغاةِ المفسدين، وعدمُ مجاراتهم والتعاونِ معهم في طغيانِهم وفسادهم.

٧. التفكرُ في آياتِ الله تعالىٰ المبثوثةِ في الكونِ من سماءٍ وليلٍ ونهار، وشمسٍ وقمرٍ ونجوم وأرضٍ بما يوصلُ لإدراكِ عظمةِ الخالقِ وقدرته وعلمهِ ورحمتهِ وعظيمِ صفاته.

٨. عدمُ تجاوزِ حدودِ العبودية، والعملُ علىٰ تقديمِ أمورِ الآخرة دائمًا علىٰ أمورِ الدنيا.

٩. مراقبةُ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حركةٍ وسكون، ومخالفةُ هوىٰ النفس، وجعل هواها تبعًا لما يريد مولاه.

١٠. الاستعدادُ الدائمُ ليومِ المعادِ ببذلِ غايةِ الجهد بما يكونُ به النجاةُ والخلاص.

تمَّ الكلام عن سورة النازعات ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام مكة في غرة ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ.

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة عبـس

موضوع السورة:

بيانِ عاقبةِ من يخشى ومن استغنى

من خلال أربع موضوعات:

- بيانُ كيفيةِ التعاملِ مع من يخشىٰ ومن استغنىٰ
- بيانُ ابتداءِ خلقِ الإنسانِ واعادتهِ
- بيانُ طعامِ الإنسان وحيوانهِ وما فيهِ من تدبيرٍ
- بيانُ مصيرِ من يخشىٰ ومن استغنىٰ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: موضوعُ السورةِ:

موضوعُها الرئيس هو في بيانِ عاقبةِ من يخشىٰ ومن استغنىٰ، وجاء الحديثُ عن ذلك من خلالِ أربعة موضوعات جاء علىٰ النحو الآتية:

الموضوعُ الأول: بيانُ كيفيةِ التعاملِ مع من يخشىٰ ومن استغنىٰ (١-١٦).

الموضوع الثاني: بيانُ ابتداءِ خلقِ الإنسانِ واعادتهِ وهو بين كفرٍ، وتقصير، كفرٌ لمن استغنىٰ، وتقصيرٌ ممن يخشىٰ (١٧-٢٣).

الموضوع الثالث: بيانُ طعامِ الإنسان وحيوانهِ وما فيهِ من تدبيرٍ، وأنه متاعٌ إلىٰ حين، وهي دعوةٌ للنظرِ لمن يخشىٰ ليشكر، ولمن استغنىٰ ليؤمنَ بالذي قدر حياته، وما به قوامه (٢٤ - ٣٢).

الموضوع الرابع: بيانُ حالِ المنذرين من يخشىٰ ومن استغنىٰ في الآخرة (٣٣-٤٠).

ثانيًا: المناسبةُ بين سورة النازعات وعبس:

جاء في سورةِ النازعات بيانُ عَرْضِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعونَ التزكيةِ ليخشىٰ، وكيف أعرضَ عنها وطغىٰ، ثم اختتمت السورةُ ببيانِ عاقبةِ من طغىٰ وآثرَ الحياةَ الدنيا، ومن خافَ مقامَ ربه ونهىٰ النفسَ عن الهوىٰ، وبينَ اللهُ له في

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

آخرِها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، ذكرَ في أولِ سورةِ عبس نموذجًا لمن جاءَ يسعىٰ وهو يخشىٰ، ومن استغنىٰ، قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومناسبتُها لما قبلَها: أنه لما ذكرَ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، ذكرَ في هذه من ينفعُه الإنذارُ ومن لم ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسولُ الله ﷺ يناجيهم في أمرِ الإسلام: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وأبي وأمية، ويدعوهم إليه»[١].

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٢٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوعُ الأول
بيانُ كيفيةِ التعاملِ مع من يخشى ومن استغنى

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١ - ١٦].

أولًا: سببُ نزولِ آياتِ العتاب:

قد جاء في سببِ نزولِ هذه الآيات ما روته عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أُنزلَ عبسَ وتولىٰ في ابنِ أم مكتوم الأعمىٰ، أتىٰ رسولَ اللهِ ﷺ فجعلَ يقولُ: يا رسولَ اللهِ أرشدني. وعند رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عظماءِ المشركين، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يعرِضُ عنه، ويقبلُ علىٰ الآخر، ويقول: أترىٰ بما أقولُ بأسا؟ فيقول: لا، ففي هذا أُنزل»(١).

فهذه الروايةُ صحيحةٌ وصريحةٌ في سببِ النزول، وقد أجمعَ عليها علماءُ التفسير، فسببُ العتابِ تمثلَ في رجلٍ أعمىٰ، يمثلُ فئةً مهمةً في المجتمع، جاء يسعي لأمرٍ مهمٍ في حياةِ الأممِ وهو التعليم، وأكرمُ الخلقِ عند اللهِ تعالىٰ مشغولٌ بفئةٍ تمثلُ السيادةَ والقوةَ في المجتمعِ لما يرجوه من

(١) أخرجه الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ، رقم (٣٣٣١)، وصححه الألباني.

إسلامِهم، فقاطعه الحديثَ ليعلمَه مما علمه الله، فلم يرض ذلك رسولَ ﷺ فظهرَ منه عبوسٌ وإعراضٌ عاتبه الله بسببهما.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. عَبَسَ: قطَّبَ وكلحَ وقبضَ وجهَه تكرُّهًا.

٢. وَتَوَلَّىٰٓ: أعرضَ بوجهه.

٣. أَن جَآءَهُ: لأجلِ أن جاءَه الأعمىٰ، وهو: ابنُ أم مكتوم رضي الله عنه، واسمُه عمرو بن قيس.

٤. يَزَّكَّىٰٓ: أي يحصلُ له زكاةٌ وطهارةٌ من الذنوبِ بالعملِ الصالح، وما يتعلمُه منك.

٥. يَذَّكَّرُ: أي يتعظُ وينزجرُ عن المحارمِ بما يتعلمُه من مواعظِ القرآن، والتذكرُ يرادُ به خُطورُ أمرٍ معلومٍ في الذهنِ بعدَ نسيانه.

٦. ٱسْتَغْنَىٰ: عن اللهِ، وعن الإيمانِ بما أنزله، والاستغناءُ: عدُ الشخصِ نفسه غنيًا في أمرٍ ما.

٧. تَصَدَّىٰ: تقبلُ عليه بوجهِك، وتتعرضُ له، والتصدي: الإصغاءُ إليه.

٨. وَمَا عَلَيْكَ: أي شيءٍ عليك إن لم يسلم من تدعوه إلىٰ الإسلام.

٩. يَسْعَىٰ: شدةُ المشي برجليهِ.

١٠. وَهُوَ يَخْشَىٰ: الله، وقد تكون عامةٌ في كلِّ ما يُخشىٰ.

١١. تَلَهَّىٰ: تتشاغلُ عنه، يقال: لهيت عن الشيءِ ألهىٰ عنه: إذا تشاغلَ عنه مع تركهِ للآخر.

١٢. صُحُفٍ: جمعُ صحيفةٍ، وهي ما يكتبُ عليها.

www.Quranonlinelibrary.com

١٣. مُّكَرَّمَةٍ: أي معظمةٌ موقرة.

١٤. مَّرْفُوعَةٍ: عاليةُ القدرِ والذكر.

١٥. مُّطَهَّرَةٍ: أي: منزهةٌ من الدنسِ والزيادةِ والنقص، والتناقضِ والكذب والعيب.

١٦. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ: وهم الملائكة.

١٧. كِرَامٍ: أي على ربِهم، وكرامٍ عن المعاصي.

١٨. بَرَرَةٍ: جمع بارٍّ، بمعنىٰ: مطيعون.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ رفعةَ مقامِ النبيِّ ﷺ عند اللهِ، حيثُ عاتبَهُ اللهُ تعالىٰ بصيغةِ الغيبةِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ولم يقل له عبستَ وتوليتَ، تلطفًا معه في العتابِ حتىٰ يقعَ في نفسهِ متدرجًا، ويكون أهونَ عليه، ولذلك خاطبَهُ تعالىٰ بَعدَ ذلك بقولهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣] فقدمَ العفوَ علىٰ العتابِ.

٢. تفيدُ سعةَ علمِ اللهِ تعالىٰ، علمَه بكلِّ شأنٍ من شؤونِ عبادِهِ، حتىٰ ما يكونُ في أساريرِ الوجوهِ، وخفايا النفوسِ، بما يستوجبُ مراقبتَهُ، قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

٣. تفيدُ كمالَ عدلِ اللهِ تعالىٰ في نصرهِ لابنِ أُم مكتوم، وبيانَ عذرهِ، وكشفَ العبوسِ الذي وقعَ عليه، ولو لم يرَ هو ما أصابه.

٤. تفيدُ سعةَ رحمةِ اللهِ تعالىٰ بعبادهِ حتىٰ الضعفاءِ الفقراءِ وأصحابِ

www.Quranonlinelibrary.com

الحاجاتِ الخاصة، يعاتبُ اللهُ نبيه الكريم من أجلِ معالجةِ ما وقع عليه من حرجٍ لطفًا منه جل وعلا ورحمة.

٥. تفيدُ ذمَّ العبوسِ في وجهِ المؤمنِ وطالبِ العلمِ والخيرِ؛ لأنه يورثُ البغضاءَ والتنافر.

٦. تفيدُ أن التبسمَ في وجهِ المؤمنِ وطالبِ العلمِ مطلوبٌ شرعًا، بل صدقةٌ كما قال النبي ﷺ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)()، وهو من أسبابِ المحبةِ والألفةِ وكسبِ القلوبِ.

٧. تفيدُ أن الانبساطَ النفسي من المعلمِ، والعملَ بما يدخلُ السرورَ علىٰ المتعلمِ، له أثرٌ عظيمٌ في العمليةِ التعليميةِ فعلىٰ المعلم مراعاةُ ذلك.

٨. تفيدُ أن تعابيرَ الوجهِ لها تأثيرُها الكبيرُ في النفوسِ، وهي دلالاتٌ تغني عن الكلامِ، وتعبرُ عما في دواخلِ الإنسانِ من الرضىٰ والغضبِ أو الإنكارِ ونحو ذلك، بل أحيانًا تكون أبلغَ من الكلام.

٩. تفيدُ بيانَ خُلُقِ النبيِّ ﷺ الكريمِ في التعاملِ مع أصحابِه، حيث لم يرد عليه بكلمةٍ جارحة؛ وإنما أظهرَ عدمَ الرضا من خلالِ ما ظهرَ علىٰ وجههِ من العبوسِ والإعراضِ؛ ولكن اللهَ أرادَ أن يرفعَ نبيَهُ إلىٰ مقامٍ أعلىٰ في مكارمِ الأخلاقِ، فنهاه حتىٰ عن مجردِ العبوس والإعراضِ، حتىٰ في مثلِ هذا المقام.

١٠. تفيدُ أن إقبالَ المعلمِ بوجههِ وقلبهِ علىٰ الطالبِ وعدمِ التولي عنه مطلبٌ شرعي في العمليةِ التعليمية، وقد أدبَ اللهُ الدعاةَ والمعلمينَ في شخصِ النبيِّ ﷺ وما هداهُ إليهِ من خلقٍ رفيع.

١١. تفيدُ أن الكرامَ من الخلقِ مؤاخذون حتىٰ علىٰ الأمورِ التي لا تنفكُ عن البشرِ عادةً رفعةً لقدرِهم، مثلُ العبوسِ الذي تقتضيهُ الجبليةُ الإنسانية،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ويغلبُ علىٰ الإنسانِ حينما يكون مشغولًا بأمرٍ مهم، ثم يطرأ عليه أمرٌ ليصرفهِ عن الأمرِ السابق.

١٢. تفيدُ الحكمةَ الربانيةَ في ذكرِ عبدِ اللهِ بن أمِّ مكتومٍ بوصفهِ الأعمىٰ إشعارًا بعذرِهِ في عدمِ معرفتهِ بانشغالِ النبيِّ ﷺ، وترقيقًا لقلبِ النبيِّ ﷺ بأنَّ حالتَهُ تستدعي العنايةَ به؛ لأنه من أصحابِ الأعذار، وأن مثلَهُ يكونُ سريعَ الانكسارِ في خاطرِهِ إذا ردَّ بهذه الطريقة.

١٣. تشيرُ إلىٰ أهميةِ العنايةِ بالأعمىٰ والتلطفِ معه، ولذا قدمَه اللهُ تعالىٰ في كتابهِ علىٰ أصحابِ الأعذارِ لعظمِ البلاءِ به، قال تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

١٤. تفيدُ جوازَ لقبِ الإنسانِ بوصفهِ نحو الأعمىٰ والأعرج، وأن اللقبَ بالعيبِ إذا كان لتعينِ الشخصِ وتعريفهِ، أو يتحققُ بذكرهِ مصلحةٌ فلا حرجَ فيه، أما إذا كان المقصودُ منه العيبَ والتنقيصَ والتعييرَ فإنه لا يجوزُ شرعًا.

١٥. تفيدُ أن عمَىٰ البصرِ لا يمنعُ الإنسانَ من طلبِ العلم، والسعي للخيرِ؛ بل هنالك الكثيرُ من العلماءِ ملؤوا الأرضَ علمًا ولم يكونوا مبصرين.

١٦. تفيدُ أن عمَىٰ البصرِ لا ينقصُ من قدرِ الإنسانِ، وإنما العمىٰ الحقيقيُّ الذي يعابُ به الإنسانُ ويحاسبُ عليه هو عمىٰ البصيرة، الذي سعىٰ ابنُ أمِّ مكتومٍ لعلاجهِ، ومدحَه اللهُ عليه، وهو ما كان عليه أولئك الذي تصدىٰ لهم النبيُّ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

١٧. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ لم يكن عنده بوابون ولا حُجُابٌ، بل كان يدخلُ عليه كلُّ أحدٍ من أصحابِهِ متىٰ جاء، وهكذا ينبغي أن يكون المعلمُ والمصلحُ والقائدُ، إلا في حالاتٍ تستدعي خلاف ذلك.

١٨. تفيدُ أهميةَ الاهتمامِ والالتفاتِ إلىٰ أصحابِ الحاجاتِ الخاصة وإعطائِهم الأولويَة عند حضورِهم لطلبِ الخيرِ والمعروفِ وقضاءِ حاجاتِهم، لما في ذلك من الأثرِ العظيم في نفوسِهم.

١٩. تفيدُ أن الابتلاءاتِ قد تكون سببًا لرفعةِ المؤمن عند اللهِ، وفي قلوبِ عبادِ اللهِ المؤمنين علىٰ مرِّ الدهور كما حدثَ لابنِ أمِّ مكتوم.

٢٠. تفيدُ بيانَ منزلةِ ابنِ أمِّ مكتومٍ وفضلهِ عند اللهِ تعالىٰ نصًا، حيث جعلَ قصتَه قرآنًا يتلىٰ، ونوَّه بفضلِه، وعاتبَ فيه نبيَه الكريم ﷺ، ومَدَحَه بصفاتٍ تدلُ علىٰ فضلِه ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾.

٢١. تفيدُ عظمَ المجيءِ في اللهِ لطلبِ العلمِ الذي به تزكو النفوسُ، وتطهرُ القلوب، فهو مجيءٌ يحملُ معاني العبودية، وينفعُ الزائرَ والمزور، ولهذا نصَّ اللهُ عليه هنا وكررَه في ﴿جَآءَهُ﴾، و﴿يَسْعَىٰ﴾.

٢٢. تفيدُ أهميةَ تأديبِ المعلمِ لطلابِهِ، وتعليمِهم متىٰ يدخلون، ومتىٰ يسألون، وتحري الأوقاتِ المناسبةِ لحاجاتهم؛ لأنه ربما يكون إعراضُ النبيِّ ﷺ عنه بعد مجيئِهِ كان من هذا الباب، إذ كانت كلُّ تصرفاتِهِ مع أصحابهِ تعليمًا وتأديبًا.

٢٣. تفيدُ أهميةَ التلمذة المباشرةِ، والمقابلةِ بين المعلمِ والمتعلمِ، لما لها من أثرٍ كبيرٍ في التعليمِ والتربية، وأن التعليمَ عن بعدٍ عبرَ الوسائطِ الحديثةِ الذي يروجُ له اليومَ لا يغني عن هذه الطريقةِ المثلىٰ، وليست هي الخيارُ

www.Quranonlinelibrary.com

الأفضلُ في التعليمِ والتعلمِ.

٢٤. تفيدُ فضلَ العلمِ وأهميتِهِ ودورِهِ في تحقيقِ تزكيةِ النفوسِ، وتذكيرِها بما ينفعُها في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

٢٥. تفيدُ بيانَ المقصدِ الأولِ من العلمِ والتعلمِ، وهو تحقيقُ تزكيةِ النفوسِ وطهارتِها، ولذا قدمَه اللهُ تعالىٰ، وأن العِلْمَ يؤخذُ للعملِ.

٢٦. تفيدُ أن تزكيةَ النفوسِ لتتحققَ تحتاجُ إلىٰ اجتهادٍ من العبدِ بطلبِ العلمِ النافعِ والعملِ به.

٢٧. تفيدُ أن تزكيةَ النفوسِ وطهارتِها تكون بتعلمِ الكتابِ والسنةِ بصدقٍ، وهما من مقاصدِ إنزالِ الكتابِ وبعثةِ الرسولِ ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢].

٢٨. فيها حثٌّ لطالبِ العلمِ لطلبِ المزيدِ منه دائمًا، والسعي للتعلمِ بصورةٍ مستمرةٍ، وفي جميعِ الأحوالِ والظروف.

٢٩. تشيرُ أن النبيَّ ﷺ لا يعلمُ الغيبَ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، إنما هو بشرٌ رفعَه اللهُ بما علمَه من الوحي، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠].

٣٠. تفيدُ أنه لا يعرفُ أثرَ العلمِ وفوائدَه علىٰ المتعلمِ إلا الله سبحانه تعالىٰ، فالعلمُ حرث، والله ينبتُ منه ما يشاءُ في قلوبِ عبادهِ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

٣١. تفيدُ أن الخيرَ لا يحقرُ منه شيءٌ، ولو انتفاعُ شخصٍ بتذكرةٍ عابرةٍ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كما قال النبيُّ ﷺ لأَبِىٰ ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْق)[1].

٣٢. تفيدُ أهميةَ الوعظِ والإرشادِ والتذكيرِ بالخيرِ والتحذيرِ من الشرِ، وأنها تنفعُ المؤمن؛ لأنها تذكرُه ما ينفعُه مما هو عنه غافل، ولذا لا ينبغي تركُها في المجتمعاتِ بحال.

٣٣. تفيدُ أهميةَ التعقلِ للخطابِ القرآني؛ لأن التذكرَ يحتاجُ إلىٰ تعقلٍ، والتعقلَ يوصلُ للهدىٰ.

٣٤. تفيدُ أن الذكرىٰ إذا لم تحدثِ التذكُر فإنها لا تنفع.

٣٥. تفيدُ أن علاجَ النسيانِ والغفلةِ يكونُ بالتذكيرِ المستمرِ بحقائقِ ما ذكرنا اللهُ به في كتابه.

٣٦. تفيدُ أنه لا يتركُ أمرٌ معلومٌ لأمرٍ موهومٍ، ولا مصلحةٌ متحققةٌ لمصلحةٍ متوهمة.

٣٧. تفيدُ أنه ينبغي الإقبالُ علىٰ طالبِ العلم، المفتقرِ إليه، الحريصِ عليه أزيدَ من غيره.

٣٨. تفيدُ دورَ السمعِ في الإدراكِ والانتفاع، وإن تعطلت جارحةُ البصرِ.

٣٩. تفيدُ أن مجالسَ العلمِ قلما يخرجُ الإنسانُ منها دونَ فائدةٍ، إما تزكيةٌ، أو تذكرةٌ، أو أجرٌ وغيرُها من منافع.

٤٠. تفيدُ أهميةَ العنايةِ بالعلومِ التي تزُكي النفسَ وترقيها، لما لها من دورٍ في إصلاحِ وصلاحِ البلادِ والعبادِ، وهي مقدمةٌ علىٰ علومِ الألة، وأن

---

(١) صحيح مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ: اسْتِحْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، رقم (٢٦٢٦).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الاهتمامَ بالعلومِ الماديةِ فقط، وإهمالَ علومِ التزكية، أو التقليلَ من دورِها خللٌ في مسيرةِ التعليمِ لا بد من علاجِها.

٤١. تفيدُ أن المعلمَ ينبغي له أن يُخلصَ في تعليمِهِ لجميعِ طلابِهِ؛ لأنه لا يدري أيهم ينفعُ اللهُ به، ويباركُ في إرثه، فقد يكونُ الأفضلُ والأكثرُ بركةً، الأضعفَ بدنًا وحركة.

٤٢. تفيدُ ما في نفوسِ الكفارِ من الكبرِ والغرورِ والجهلِ والحمقِ التي تدلُ عليها كلمةُ استغنىٰ، وهو خلقٌ مانعٌ من العلمِ والخيرِ والهدىٰ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾.

٤٣. تفيدُ أن الاستغناءَ والترفَ سببٌ للإعراضِ، وعدمِ القابليةِ، والتهيؤ للكفرِ والفجورِ، وإلىٰ أن المصائبَ والابتلاءاتِ من أسبابِ طهارةِ القلبِ والإقبالِ علىٰ الله، والاستكانةِ إليه.

٤٤. تفيدُ أن بلاءً وضعفًا يقودُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، خيرٌ من عافيةٍ وقوةٍ تبعدُ العبدَ عن اللهِ تعالىٰ.

٤٥. تفيدُ قبحَ الاستغناءِ عن الإيمانِ والعلمِ والهدىٰ، فالإيمانُ والعلمُ ونورُ الوحي لا يستغني عنهما إلا جاهل، بل هذه الأمورُ هي أولىٰ ما ينشغلُ بها العقلاءُ في حياتِهم.

٤٦. فيها معالجةٌ ربانيةٌ حكيمةٌ لمن يتعاملونَ مع الغيرِ بروحِ الاستغناءِ والتكبرِ والجفاءِ، وهو الإعراضُ عنهم، وعدمُ العنايةِ بهم.

٤٧. فيها تعليمُ اللهِ تعالىٰ لرسولهِ ﷺ والأمةِ فقه الموازنةِ بين درجاتِ المصالحِ عند تزاحمها، كيلا يفوت الاهتمامُ بالمهمِ الأهم.

٤٨. فيها إشارةٌ إلىٰ الميزانِ الذي ينبغي أن يرفعَ به قدرَ الناسِ في

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

علاقتِهم وإقبالهِم وإدبارهِم، وهو ميزانُ الإيمانِ والتقوىٰ، دون النظرِ إلىٰ الموازينِ الأرضيةِ من جاهٍ ومالٍ ونسبٍ وغيرِها، فينبغي أن يكرمَ من هو كريمٌ عند اللهِ وإن كان ضعيفًا عزيزًا فقيرًا، فالإنسانُ قدرُهُ عندَ اللهِ بما في قلبهِ من إيمانٍ وتقوىٰ، وليس بما عنده من مالٍ وجاه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

٤٩. تفيدُ الزجرَ من الإقبالِ علىٰ الغنيِّ الكافرِ والإعراضِ عن المؤمنِ الفقير. وفي الآية: «ذِكر الغنىٰ أولًا يَدُلُ علىٰ الفقرِ ثانيًا، وذِكر المجيءِ والخشيةِ ثانيًا يدلُ علىٰ ضدِّهما أولًا، وسرُّ ذلك التحذيرُ مما يدعو إليه الطبعُ البشري من الميلِ إلىٰ الأغنياء، ومن الاستهانةِ بحقِّ الضعفاء»(١).

٥٠. فيها بيانُ فضلِ الإيمانِ وكيف يرفعُ صاحبَهُ عند اللهِ، وقبح الكفرِ وكيف يضعُ من قدرِ صاحبِهِ، ويكون سببًا للذمِّ والاحتقارِ والعذاب الأليم.

٥١. تفيدُ أن المؤمنَ أحقُّ بالرعايةِ والعنايةِ والتقديرِ من أيِّ كافرٍ علىٰ وجهِ الأرض مهما علا كعبُهُ وارتفعَ مقامُه عند الناس، ولا ينبغي أن يُقدمَ أمرُ الكافرِ علىٰ أمرِ المؤمن، ولا الإقبالُ علىٰ الكفارِ والإعراضُ عن المؤمن، خاصة في المواضعِ التي تضعفُ عزتَه وكرامتَه.

٥٢. فيها تحقيرٌ لأمرِ الكافر ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، وحضٌ علىٰ الإعراضِ عنهُ، وتركُ الاهتمام به، إذا وجد منه صدودٌ وإعراض.

٥٣. فيها بيانُ استغناءِ هذا الدين عن كلِّ مستغنٍ متولٍ، فهو دينٌ عزيزٌ قويٌّ كريمٌ بفضلِ الله وعزتهِ، لا يتوقفُ نصرُهُ علىٰ سندِ بشر؛ وإنما الناصرُ

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٢٦).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

والحافظُ له هو اللهُ الذي أنزلَه، بشرطٍ واحدٍ جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ولا يتعلقُ نصرُهُ بإسلامِ هذا ولا كفرِ ذلك أيًّا كان وزنُه، فلا يكترثُ لكثرةٍ، أو الخوفِ ممن يكفرُ به، ولهذا قالَ تعالىٰ لرسوله ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

٥٤. تفيدُ أن مهمةَ الرسولِ ﷺ والدعاةِ تنتهي عند البلاغِ والتذكيرِ ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وأن الداعيةَ بعد القيامِ بواجبِ البلاغِ المبين فإنه لا يحاسبُ علىٰ إعراضِ المعرضين.

٥٥. تفيدُ أن الهدايةَ بيدِ الله وحده، وأن أحدًا لا يملكُ هدايةَ أحدٍ حتىٰ ولو كان رسولًا، كما قالَ تعالىٰ لرسولِهِ الكريم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

٥٦. تفيدُ حقارةَ المعرضين عن الدين، المستغنين عن ربِّ العالمين، وأنهم أتفهُ من أن يهتمَ بهم، وأن يضيعَ فيهم وقتًا، وأن تعليمَ رجلٍ أعمىٰ فقيرٍ ضعيفٍ من المسلمين أولىٰ من صرفِ الوقت فيمن عرفوا بالعنادِ والإعراض.

٥٧. تفيدُ أن كلَّ أحدٍ في الحياةِ ولو كان رسولًا هنالكَ من هو مقبلٌ عليه محبٌ له، وهنالك من هو مبغضٌ له معرضٌ عنه، فينبغي أن تكونَ عنايتُهُ بالمقبلين عليه «فإن الإقبالَ علىٰ المدبرِ ليس من شيمِ الكبار»(١).

٥٨. تفيدُ حرصَ النبيِّ ﷺ علىٰ هدايةِ الخلق، وادخالِهم تحت مظلَّةِ الإيمانِ لينجوا من النارِ مع إعراضِهم عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ١٠٨).

بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥٩. تفيدُ رحابةَ مجلسِ النبيِّ ﷺ الذي يكون فيه الزعماءُ والضعفاءُ، والأغنياءُ والفقراءُ، والكافرُ الذي يُدعىٰ، والمؤمنُ الذي جاء يتعلمُ، وهكذا ينبغي أن تكونَ مجالسُ العلماءِ والمصلحين والدعاة.

٦٠. تفيدُ فضلَ المشي والسعي في طلبِ العلمِ والإسراعِ إليه، وأن ذلك مما يحبُهُ اللهُ ويرضاه؛ ولذا نصَّ عليه هنا ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴾.

٦١. تفيدُ أهميةَ تميزِ طالبِ العلمِ في جميعِ حركاته، حتىٰ في مشيهِ؛ لأن السعي فيه السكينةُ والوقارُ خلافَ الجري الذي فيه العجلةُ والطيش.

٦٢. تفيدُ فضلَ الإقبالِ علىٰ الرسولِ ﷺ وتعلمَ الوحيِ الذي أنزلَ عليه ﴿ جَآءَكَ ﴾.

٦٣. تفيدُ أن أعظمَ وقتٍ للإقبالِ علىٰ طالبِ العلمِ ورعايتهِ وتعليمهِ حالَ تلهفهِ واستعدادِه، وحرصهِ عليه، وقناعتهِ بأهميتهِ، وخوفهِ من فواتهِ، وهذا ما كان عليه ابنُ أمِّ مكتوم.

٦٤. تفيدُ أهميةَ نشرِ العلمِ وتعليمهِ لمن يسعون إليه، وعدمَ ردهم بحالٍ من الأحوالِ، وأن تعليمَ الناسِ مما تعلمَه الإنسانُ من فروضِ الكفايات.

٦٥. تفيدُ أن العلمَ يُؤتىٰ إليه، ويُسعىٰ له، خاصةً لمن عرفَ فضلَهُ وفضلَ أهلهِ.

٦٦. تفيدُ الثناءَ علىٰ من يقبلُ علىٰ تعلمِ القرآن، وأن تعلمَ الوحي هو الذي يورثُ الخشيةَ ويزيدُها في النفس ﴿ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴾.

٦٧. تفيدُ التنويه بضعفاءِ المسلمين، ووقوعِ الخيرِ في نفوسِهم والخشية، وأنهم أعظمُ عندَ اللهِ من أصحابِ الغنىٰ الذين فقدوا طهارةَ النفسِ وخشيةَ الله.

٦٨. تفيدُ أهميةَ الوعي بأهميةِ العلمِ، والخشيةِ من فواتهِ؛ لأن كلمةَ وهو

www.Quranonlinelibrary.com

يخشىٰ عامةٌ في كلِّ أنواعِ الخشية.

٦٩. تفيدُ بيانَ صفةِ المؤمنِ الحقِّ المتمثل في حرصهِ المستمرِّ علىٰ تعلم الهدىٰ، والسعي في تحصيله مهما كانت ظروفُهُ وحالتُه.

٧٠. تفيدُ ذمَ التلهي عمن هو مقبلٌ عليك، قاصدُك في حاجتهِ

٧١. فيها أهميةُ صدقِ المؤمنِ فيما يقصدُهُ، ويسعىٰ إليه، فابنُ أمِّ مكتوم كان صادقًا فيما جاء إليه، حريصًا عليه ابتغاءَ مرضاةِ الله.

٧٢. تفيدُ أهميةَ ترتيبِ الأولوياتِ في الأعمالِ والواجباتِ الدعويةِ؛ لأن الأمورَ عند تزاحمِها يقدمُ الأولىٰ منها، وهذا يحتاجُ إلىٰ فقهٍ دقيق.

٧٣. تفيدُ أن خشيةَ الله في السرِّ والعلنِ، نعمةٌ ومنَّةٌ عظيمةٌ، وهي ثمرةُ العلمِ النافعِ، فإذا رزَقَ اللهُ عبدَهُ خشيتَهُ وخوفَهُ، فقد رُزقَ الإيمانَ والخيرَ العظيمَ، وإنما العلمُ الحقُّ الخشية، وثمرتُهُ اليانعةُ الخشيةُ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

٧٤. تفيدُ أهميةَ توفرِ الخشيةِ في طالبِ العلمِ حتىٰ ينتفعَ بما يتعلمه، فهي من أهمِ صفاتِ طالبِ العلمِ.

٧٥. تفيدُ أن خوفَ اللهِ وخشيتَه تكونُ دائمًا السببَ والدافعَ لسعي الإنسانِ إلىٰ الخيرِ من علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ.

٧٦. تفيدُ أنه يجبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التابعِ الذي عُرفَ منه القبول.

٧٧. تفيدُ أهميةَ العملِ بما يتعلمه الإنسان، وهو الذي يدفَعُهُ لطلبِ المزيد، وَيُوفِّقُهُ فيما يطلبُه من علم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٧٨. تفيدُ أن تلهي المعلمِ عن طلابهِ منقصٌ من منقصاتِ العمليةِ التعليمية.

٧٩. تفيدُ عظمَ ما جاءَ في القرآنِ من تذكرةٍ وهدىً، فهي تذكرةٌ عظيمةٌ لمن عرفَ قدرَها وعملَ بها، ولهذا جاءت نكرة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾.

٨٠. تفيدُ أن الإنسانَ له مشيئةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وهو لا يكرهُ على الإيمان، بل تركَ له أن يختارَ ما يشاءُ وما يريد التذكرَ والهدايةَ أو الإعراضَ والضلال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

٨١. تفيدُ أن مواعظَ القرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ أقبلَ عليها وتجردَ عن العنادِ والمكابرة، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ أن يتعظ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

٨٢. فيها بيانُ منزلةِ ذكرِ اللهِ ودورهِ في تزكيةِ النفوسِ عمومًا وطالبِ العلمِ خصوصًا ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنه يجوزُ إعادةُ ضميرِ الغيبةِ علىٰ اللهِ تعالىٰ، علىٰ تفسير، «فإن إعادةَ ضميرِ الغيبةِ علىٰ اللهِ تعالىٰ دون ذِكر معادِه في الكلام كثيرٌ في القرآن، لأن شؤونَه تعالىٰ وأحكامَه نزلَ القرآنُ لأجلِها فهو ملحوظٌ لكلِّ سامعٍ للقرآن، أي فمن شاءَ ذكرَ اللهَ وتوخّىٰ مرضاتَه»(١)، فهي تشيرُ إلىٰ أهميةِ ذكرِ الله في جميعِ الأمورِ والسعي فيها لمرضاته، ويحتملُ عودُ الضميرِ علىٰ الوحي لدلالةِ الكلام عليه.

٨٣. فيها التنويهُ بشأنِ القرآنِ من خلالِ بيانِ فضلهِ وأثرهِ في التذكيرِ والإرشادِ، ورفعةِ مكانتهِ، وقدسيةِ مصدرهِ، وكرمِ قدره وطهارتهِ، وفضائلِ حملتهِ ومبلغيهِ.

٨٤. تفيدُ الحثَّ علىٰ تدبرِ آياتِ القرآن والتفكرِ فيها، والاتعاظِ بها

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١١٥).

والعمل بموجبها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨].

٨٥. تفيدُ الردَّ علىٰ الجبريةِ الذين يزعمون أنه ليس للعبدِ مشيئةٌ ولا فعالٌ حقيقة، وإنما هو مجبورٌ علىٰ أفعالهِ، فأثبت تعالىٰ للعبدِ مشيئةً وفعلًا.

٨٦. تدلُّ علىٰ وجوبِ الإيمانِ بالقرآنِ الكريم، والعملِ بهدايتِهِ، دونَ حرجٍ وريب.

٨٧. تشيرُ إلىٰ وجوبِ تعظيمِ الصحفِ التي يكتبُ فيها القرآن ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾؛ وأنها يجبُ أن تكونَ في موضعِ العنايةِ والإكرام بما يحفظُ طهارة وقدسيةَ ما فيها من كلامِ ربِ العباد الذي حوىٰ كلَّ علمٍ وحكمةٍ وخيرٍ ورحمةٍ وشفاء.

٨٨. تشيرُ إلىٰ أهميةِ إكرامِ كتبِ العلمِ التي تحتوي علىٰ آياتٍ من الهدىٰ، وهو نوعٌ من أنواعِ تعظيمِ شعائرِ اللهِ تعالىٰ التي هي من تقوىٰ القلوب.

٨٩. تشيرُ إلىٰ أهميةِ كتابةِ القرآنِ والعلم، وكلِّ وصيةٍ مهمةٍ جامعة.

٩٠. تفيدُ أن القرآنَ كما هو مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ، وعند الخلق، هو مكتوبٌ كذلك في صحفِ الملائكةِ بما يدلُّ علىٰ شدةِ العناية به.

٩١. تفيدُ وجوبَ العملِ بكلِّ ما يحققُ رفعةَ القرآنِ وعلوِّ مكانته، وطهارةِ موضعهِ وحاملهِ، وذلك مستفادٌ مما نوه بها من عظمِ هذه التذكرةِ ورفعةِ قدرها ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾.

٩٢. تدلُّ علىٰ وجوبِ صونِ القرآنِ عن كلِّ ما يدنسه، وحفظِهِ واحترامِه.

٩٣. تفيدُ أن القرآنَ منزهٌ ومصانٌ من الزيادةِ والنقصانِ والتناقضِ

والكذبِ والعيبِ، وهذا من أعظمِ تطهيره.

٩٤. تفيدُ أن حملةَ القرآنِ ينبغي أن يكونوا علىٰ درجةٍ عاليةٍ من الخلقِ الرفيعِ والقولِ السديدِ والعملِ الرشيدِ كأمثالِ هؤلاءِ الحملةِ في السماواتِ العلا ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾. قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقولُهُ تعالىٰ: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي خُلُقُهم كريمٌ حسنٌ شريفٌ وأخلاقُهُم وأفعالُهُم بارةٌ طاهرةٌ كاملة، ومن هنا ينبغي لحاملِ القرآنِ أن يكونَ في أفعالِهِ وأقوالِهِ علىٰ السدادِ والرشاد»(١).

٩٥. تفيدُ وجوبَ الإيمانِ بالملائكةِ، وأنهم مكلفون بمهامٍ محددة، وهم أهلٌ لكلِّ تكليفٍ، وموضعُ ثناءٍ ومدحٍ من ربِّ العالمين.

٩٦. تفيدُ بيانَ شرفِ وفضلِ حملِ القرآنِ في الأيدي، وهو أعظمُ ما تحملُهُ الأيادي وتحويهُ الصدور، وتردِدُه الألسن.

٩٧. تشيرُ إلىٰ أن حملةَ القرآنِ هم سفراءُ الله تعالىٰ إلىٰ الناسِ، فينبغي أن يحملُوه بصدقٍ، ويبلغُوه بوعيٍ، ويترجمُوهُ واقعًا في حياتِهم وحياةِ غيرِهم.

٩٨. تفيدُ أن العلمَ يحتاجُ إلىٰ رجالٍ يكونون عليه أمناءَ في حفظهِ وتبليغهِ، والعملِ بهِ.

٩٩. تفيدُ أن الكرامَ عند الله لابد أن يكونوا بررةً أتقياء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٠٠. تفيدُ أهميةَ الجمعِ بينَ كرمِ النفسِ بالأخلاقِ الكريمةِ، والبرِ بكثرةِ العملِ الصالحِ في أبوابِ العباداتِ المتنوعة.

١٠١. تفيدُ الحثَّ علىٰ البرِّ، وأنه جامعٌ لصفاتِ الخيرِ في الإنسان.

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢١).

خامسًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما جاء التوجيه له عليه الصلاة والسلام في خاتمة النازعات علىٰ من يخشىٰ، وكان قد جاءه عبد الله بن أم مكتوم الأعمىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من السابقين، وكان النبي ﷺ حين مجيئه مشتغلا بدعاء ناس من صناديد قريش إلىٰ الله تعالىٰ، وقد وجد منهم نوع لين، فشرع عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأله وهو لا يعلم ما هو فيه من الشغل، يسأله أن يقرئه ويعلمه مما عمله الله فكره أن يقطع كلامه مع أولئك خوفًا من أن يفوته منهم ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام ناس كثير من أتباعهم، مما جعله يعرض عنه ويقبل عليهم، وتظهر الكراهة في وجهه، لاطفه سبحانه وتعالىٰ بالعتاب عن التشاغل عن أهل ذلك بالتصدي لمن شأنه أن لا يخشىٰ لافتتانه بزينة الحياة الدنيا وإقباله بكليته علىٰ ما يفنىٰ، فقال مبينًا لشرف فضل أهل الدين وإن هانوا، وخسة أهل الدنيا وإن زانوا، معظمًا له ﷺ بسياق الغيبة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ثم بين سبب هذا الأعراض والتولي الذي ليس هو خلقه الكريم وإنما رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم، فقال: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، وذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام علىٰ قطع الكلام والبعث علىٰ الرأفة به والحرمة له، ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال، وكان طول الإعراض موجبًا للانقباض، أقبل عليه ﷺ فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي يحدث ما هو أقل من ذلك قوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾، ولما ذكر العبوس والتولي عنه فأفهما ضدهما لمن كان مقبلًا عليهم، بين ذلك فقال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتعرض له وتقبل دون الأعمىٰ، ولما كان فعله ذلك فعل من يخشىٰ أن يكون عليه في بقائهم

www.Quranonlinelibrary.com

علىٰ كفرهم ملامة، بين له أنه سالم من ذلك فقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، ولما ذكر المستغني، وحاله ذكر في مقابله حال ابن أم مكتوم فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، ولما كاد أن ينتهي العتاب أكد له عدم التشاغل عن راغب مهما كان الحال فقال: ﴿كَلَّآ﴾، لما انتهي من عتابه بين له قيمة هذه التذكرة المتضمنة في هذا العتاب، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، ولما كان سبحانه قد خلق للإنسان عقلًا واختيارًا، ويسر أمر القرآن في الحفظ والفهم لمن أقبل عليه، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، ثم بين عظمة ومكانة وشرف هذه التذكرة﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، ثم بين نهاية الشرف لهذه التذكرة فقال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾، أي في أعلىٰ مراتب التقوىٰ والكرم وأعزها وأوسعها.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الثاني
بيانُ ابتداءِ خلقِ الإنسانِ واعادتهِ وهو بين كفرٍ، وتقصير

قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٣].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما بدأَ تعالىٰ هذه السورةَ بذكرِ القصةِ المشتملةِ علىٰ استغناءِ بعضِ صناديدِ قريشٍ في المجلسِ الذي دَخَلَ فيه ابنُ أمِّ مكتوم علىٰ ما جاءَ به رسولُهُ من الحقِّ والهدىٰ، عَجَّبَ تعالىٰ عبادهُ المؤمنين من ذلك الاستغناء لمن أولُهُ نطفةٌ قذرةٌ، وآخرُهُ جيفةٌ مذرةٌ، وفيما بين الوقتين حمَّالُ عذرة، فلا عجبَ أن ذكرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يصلحُ أن يكونَ علاجًا لعجبِهم واستغنائِهم، وما يصلحُ أن يكونَ علاجًا لكفرِهم، فإن خلقَ الإنسانَ يستدلُّ به علىٰ وجودِ الصانعِ، وعلىٰ القولِ بالبعثِ والحشرِ والنشرِ.

ثانيًا: معاني الكلمات:

- ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: لعنَ الإنسانُ وطردَ من رحمةِ اللهِ تعالىٰ، والمراد به الإنسانُ الكافرُ، أو جنسُ الإنسانِ المكذبِ، وقُتِلَ تأتي في القرآنِ بمعنىٰ لعن، وهو أسلوبٌ تستعملُهُ العربُ في تقبيحِ ما كان عليه صاحبُهُ، يقولون: قتل فلانٌ ما أخبثه!

www.Quranonlinelibrary.com

• ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: ما أشدَّ كفرَهُ وجحودَهُ لنعمِ الله تعالىٰ! و«ما» هنا تكون تعجبية، وقد تكون «ما» استفهاميةٌ للإنكار فيكون المعنىٰ: أي شيءٍ أكفرهُ باللهِ وحملَهُ علىٰ الكفرِ بعد وضوحِ الحجةِ والبيانِ؟

• ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ﴾ خلقَه: استفهامٌ تقريري، والمعنىٰ: ما أصلُ خَلقِ الإنسانِ حتىٰ يستغني عن الإيمانِ بربهِ، ويكفرُ بالبعثِ، وقد خلقَه من العدم.

• ﴿نُّطۡفَةٍ﴾: والنطفةُ: الماءُ القليل، وغلبَ إطلاقُ النطفةِ علىٰ الماءِ الذي منه التناسل.

• ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: التقديرُ هنا إيجادُ الشيءِ علىٰ مقدارٍ مضبوطٍ منظمٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]، أي: قدرَ أجلَه ورزقَهُ وعملَه وشقيٌ أو سعيد، وقدرَ أطوارَهُ من نطفةٍ إلىٰ علقةٍ إلىٰ مضغةٍ فبشرٍ سوي، وغيرُ ذلك من أنواعِ التقدير.

• ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: الطريق.

• ﴿يَسَّرَهُۥ﴾: والتيسيرُ: التسهيلُ، والمرادُ «بالسبيلِ يسره»: يسرَ خروجَه من بطنِ أمه، وقيلَ: طريقَ الحقِ والباطلِ، والأول أولىٰ، وهو قولُ ابن عباس، وهو المتناسقُ مع السياقِ السابقِ واللاحقِ.

• ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾: أي جعلَه في قبرٍ إكرامًا؛ لأنه لو جدعَ كما تجدعُ البهائمُ لكانَ في ذلك إهانةٌ لهُ ولأهلِه، فالإقبارُ: هو الدفنُ في بطنِ الأرض، والموتُ: هو مفارقةُ الروحِ الجسد.

• ﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أصلُ النشرِ إخراجُ الشيءِ المخبأ، يقال: نشرَ الثوب، إذ أزالَ طيّه، ونشرَ الصحيفةَ، إذا فَتحها ليقرأها. وأما الإنشار بالهمز فهو خاصٌ بإخراجِ الميتِ من الأرض حيًّا وهو البعث.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

- ﴿يَقْضِ﴾: والقضاءُ: فعلُ ما يجبُ علىٰ الإنسانِ كاملًا؛ لأن أصلَ القضاءِ مشتقٌّ من الإتمامِ فتضمن فعلًا تامًا.
- ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: لم يؤدِ ما فرضَ عليه من الفرائضِ والواجباتِ.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ لعنةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ الكافرين في كلِّ زمانٍ ومكان، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

٢. تفيدُ أن الكفرَ باللهِ مع ما أظهرَه اللهُ لعبادِه من قدرتِه، وفيضِ رحمتِه يستدعي التعجب، لعدمِ وجودِ مسوغٍ لذلك، وهو خلقَه ورزقَه وحفظَ وجودَه إلىٰ أجلِه، إذا جعلنا ﴿مَآ﴾ هنا تعجبية.

٣. تفيدُ أن أكثرَ بني آدمَ كافرٌ بربِه ونعمِه، غيرُ قائمٍ بحقهِ من الإيمانِ والطاعةِ والشكرِ ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي: ما أكثرَ كفره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٤. تفيدُ بيانَ قبحِ الكفرِ والتكبرِ، حيثُ بدأَ باللعنةِ عليه، فهذا الدعاءُ علىٰ وجازتِهِ يدلُّ علىٰ سخطٍ عظيمٍ وذمٍ بليغ. وفعلُ قُتلَ فُلانٌ، أصلُه دعاءٌ عليه بالقتل. والمفسرون الأولون جعلوا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أنه لُعِن، رواه الضحاك عن ابنِ عباس، وقاله مجاهد، وقتادة، وأبو مالك[١]، ومن يُبدأُ وَصفُهُ باللعنِ دلَّ ذلك علىٰ هلاكه وقبحِ فعلِه عندَ الله تعالىٰ.

٥. تفيدُ أن الدعاءَ عليهِ باللعنِ من اللهِ ﷻ، المقصودُ به: التهديدُ والتحقيرُ

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من شأنِ هذا الإِنسانِ الجاحد، إذ مِنْ المعلومِ أن اللهَ ﷻ هو الذىٰ يَتَوجَهَ إليه الناسُ بالدعاءِ، وليس هو –سبحانه– الذىٰ يدعو علىٰ غيرهِ، إذ الدعاءُ في العادةِ إنما يكون من العاجزِ، والله جل شأنُه منزه عن العجز.

٦. تشيرُ إلىٰ بلاغةِ القرآن حيث جمعت أشدَّ ألوانِ الذم والتحقيرِ بأبلغِ أسلوبٍ وأوجزه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ حيثُ دعي عليه بأشنعِ الدعاء؛ لأن القَتلَ قصارىٰ شدائدِ الدنيا وفظائِعها ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تعجيبٌ من إفراطِهِ في كفرانِ نعمةِ الله، ولا ترىٰ أسلوبًا أغلظَ منهُ ولا أخشنَ متنًا، ولا أدلَّ علىٰ سخطٍ، ولا أبعدَ في المذمةِ مع تقاربِ طرفيهِ، علىٰ قصر متنهِ، وهذه الجملةُ بلغت نهايةَ الإِيجازِ، وأرفعَ الجزالة، بأسلوبٍ غليظٍ دالٍ علىٰ السُّخطِ، بالغٌ حدَّ المذمة، جامعٌ للملامةَ، ولم يسمعْ مثلُها قبلَها، فهي من جوامعِ الكلم القرآنية»[1].

٧. تفيدُ ذمَ كلِّ غني ترفعَ علىٰ فقيرٍ بسببِ الغنىٰ والفقر؛ لأن اللهَ تعالىٰ ذمَهم لِترفعِهم فوجبَ أن يعمَّ الحكمُ بسببِ عموم العلة.

٨. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ من قدرةِ اللهِ التي جعلت من النطفةِ والماءِ المهينِ بشرًا سويا، والاستفهامُ للتقريرِ والاعتبارِ.

٩. تفيدُ أن الذي خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ قادرٌ علىٰ إعادتهِ كما بدأه، فذُكرتْ النطفةُ للدلالةِ علىٰ بديعِ صنعِ الله؛ فإمكانُ البعثِ حاصل.

١٠. تفيدُ أن تكبرَ الإنسانِ الذي خلقَ من نطفةٍ من ماءٍ مهين، وخرجَ من مخرجِ البولِ مرتين يبينُ جهلَه وغفلَته، فمن كان أصلُهُ من مثلِ هذا الشيءِ الحقير، فالتكبرُ والتجبرُ لا يكونُ لائقًا به. بل يجبْ عليه تعظيمُ الربِّ وشكرُه علىٰ خلقهِ لعبادهِ من نطفة، فمن هو حتىٰ يتكبرَ ويتعظمَ عن طاعتهِ، وعن

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢١).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الإقرارِ بتوحيده، وعن الاعترافِ بأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

١١. فيها إعجازٌ علمي؛ لأنَّ النطفةَ فيها آلافُ الحيواناتِ المنويةِ التي منها يكون الخلقُ؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾.

١٢. تفيدُ بيانَ حسنِ تقديرِ اللهِ في خلقِ الإنسانِ، فقدرَ الأعضاءَ التي يحتاجُها العبدُ من رجلينِ ويدينِ وعينينِ وسائرِ الجوارح الظاهرةِ والباطنة، وقدرَ لكلِّ عضوٍ قدرَه المناسب له، ووضعَهُ في موضعِهِ الذي لا يصلحُ في غيره، وقدرَ وأتقنَ قواه الظاهرةَ والباطنةَ كما قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

١٣. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ هو الذي جعلَ لخلقهِ قدرًا وقيمةً، فجعلَه خلقًا كريمًا برحمتهِ وفضلهِ، فليعرفْ العبدُ ذلك، وليخضعْ لمولاهُ الكريمِ القديرِ الغنيِّ الحميدِ.

١٤. تفيدُ بيانَ رحمةِ اللهِ بعبادهِ حيثُ يسرَ لهم خروجهُم من بطونِ أمهاتِهم، ويسرَ لهم سبلَ الغذاءِ والعيشِ، ويسر لهم سبلَ الهدىٰ لمن شاءَ أن يستقيمَ. فرأسُ المولودِ في بطنِ أمهِ يكونُ من فوقٍ ورجلاه أسفل، فإذا جاء وقتُ الخروجِ انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهامَ إلا الله(١)، وسهلَ له أمرَه في خروجهِ، بأن فتحَ فم الرحمِ من ذلك المنفذِ الضيقِ بصورةٍ عجيبة، ويسرَ لهم سبلَ العيشِ بنزولِ اللبن في ثدي أمهِ بمكوناتهِ العجيبةِ التي يحتاجُها في تلك الفترةِ من عمرهِ، ويسرَ له من الطعامِ والشرابِ ما يعيشُ عليه مدىٰ حياتهِ، وسهلَ له سبل الهدىٰ، وجعلَ له عقلًا يقودُه إلىٰ ما يسرَ له، فكلُّ سبيلٍ للعبدِ يسرهُ لهُ ربه ليشكرَه ويعبده.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ١٦١).

www.Quranonlinelibrary.com

١٥. تفيدُ أن الخلقَ بدايتُهُم ونهايتُهُم بيدِ اللهِ تعالىٰ وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

١٦. تفيدُ أن الإماتةَ من اللهِ بدونِ استشارةٍ أو اختيارٍ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾.

١٧. فيها بيانُ إكرامِ اللهِ لعبادهِ من خلالِ هدايتِهم لسنةِ الإقبارِ ليوارىٰ فيه إكرامًا، ولم يجعله ممن يرمىٰ علىٰ الأرضِ كالبهائمِ فتأكله السباعُ والطير.

١٨. تفيدُ أن الموتَ عُدَّ هنا من ضمنِ النعم؛ لأنه لو دامَ الإنسانُ حيًا مع ما يصل إليه من الضعفِ والخرفِ لكانَ في غاية البشاعةِ والشماتةِ لأعدائهِ، والمساءةِ لأوليائه، والموتُ هو: بداية الحياةِ الأخروية.

١٩. تفيدُ أن مواراةَ الأجسادِ في القبورِ من سننِ الإسلام، أما تركُهُا بدونِ دفن، أو حرقُها فهو خلافُ الهدي الرباني.

٢٠. تشيرُ إلىٰ تكريمِ اللهِ تعالىٰ للإنسانِ حيًا وميتًا من ذلك تعريفُهُ بسنةِ الدفنِ وهيأ له من يُقبرُه، وهذا جاء واضحًا في قوله تعالىٰ عن ابني آدم عليه السلام: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾

[المائدة: ٣٠-٣١].

٢١. تشيرُ إلىٰ المبادرةِ إلىٰ التجهيزِ، حيثُ عقبَ الإماتة بالفاءِ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي جعلَ له قبرًا فغيبه فيه.

٢٢. تفيدُ أن اللهَ وحدَهُ هو القادرُ علىٰ بعثِ العبادِ متىٰ شاء، وعلقَ الإنشارَ بالمشيئةِ للدلالةِ أن هذا البعثَ إنما هو بإرادتهِ ومشيئتهِ، وفي الوقتِ الذي يختارُه ويريدُه، مهما تعجلَه المتعجلون.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢٣. تشيرُ إلىٰ مظاهرِ قدرةِ الله وعلمِه وحكمتِه من خلالِ خلقِ الإنسانِ في أحسنِ تقويم، وتدبيرُه حيًا وميتًا أحسنَ التدبير، وهي مقتضيةٌ للإيمانِ به وبآياتِه ورسولِه ولقائه.

٢٤. تفيدُ أن الله هو المنفردُ بتدبيرِ الإنسانِ وتصريفهِ بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشاركٌ، وأن أمرَ العبادِ بيدِه، متىٰ شاءَ أمرًا قضاه، ليس للعبدِ في ذلك حولٌ ولا قوة، ومن هنا أضيفت كلُّ مراحلِه لله تعالىٰ.

٢٥. فيها بلاغةُ القرآنِ ودقتُه من خلالِ تكرارِ العطف بـــ«ف» وثم، أما الأولىٰ فللدلالةِ علىٰ تعاقبِ الحدثين، وسرعةِ وجودِ الآخرِ بعدَ الأول، وأما الثاني فللدلالةِ علىٰ تراخي وبُعدِ الحدثين، فقولُه تعالىٰ: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ إشارةٌ إلىٰ أن الأطوارَ المقدرةَ تعقبُ حالَ النطفة، ثم قال ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ وهذا إشارةٌ إلىٰ طولِ الزمان الذي يقضيه الجنين في بطنِ أمهِ بعد التقدير، ثم قال ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وهذا يدلُ علىٰ تراخٍ بينَ خروجهِ من بطنِ أمهِ إلىٰ موته، وهي فترةُ الحياةِ التي يعيشَها، أما الفترةُ التي بين موتهِ ودفنهِ فإنها يسيرة؛ ولذا جاءَ التعقيبُ بالفاء، ولما كان الزمنُ بينَ الموتِ والبعثِ طويلًا جاء التعقيبُ بحرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾.

٢٦. تفيدُ أنه لما كان إخبارُهُ بخلقِ الإنسانِ وحسنِ تقديرِه، وإماتتِه وسائرِ أمورِه بيدِه يستدعي مسارعتَه لما يرضيه، وهو سائرٌ علىٰ خلاف ذلك، نفىٰ أن يكونَ سعيُه في سبيلِ مرضاتِه علىٰ سبيلِ الردع فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي ليرتدعَ هذا الإنسانُ الذي عرفَ أن هذه حالاتُه أولًا وآخرًا، فلينزجرْ وليعرفْ بما له من النقصِ والعجز والحاجةِ، وليعرفْ ربَّهُ سبحانَهُ بالعزةِ والعظمةِ والكبرياءِ والقدرةِ والغنىٰ.

www.Quranonlinelibrary.com

٢٧. تفيدُ بيانَ تفريطِ العبادِ في حقِّ مولاهم مما أخذَهُ عليهم من عهودٍ ومواثيقَ، من العملِ بطاعتهِ، واجتنابِ معاصيهِ، فهو لم يقمْ بواجبهِ حقَّ القيامِ، من ذكرهِ وشكرهِ، والاستعدادِ الكاملِ ليومِ لقائهِ للحسابِ والجزاء.

٢٨. تفيدُ أن الإنسانَ لا يزالُ مقصرًا في شكرِ ربه ولو صامَ الدهرَ كلَّه وصلىٰ في كلِّ لحظةٍ من لحظاته.

٢٩. تفيدُ وجوبَ السعي في فعلِ ما أمره خالقُه ورازقُه ومدبرُ أمرِه.

٣٠. تشيرُ إلىٰ أهميةِ الاهتمامِ بكلِّ ما أمرَ اللهُ به في كتابه.

٣١. تفيدُ أنه لو تفكرَ الإنسانُ في خلقهِ لعلمَ عجزَه وضعفَهُ وفقرَهُ وشدةَ حاجتِه إلىٰ ربهِ في كلِّ أطوارِ حياتهِ وبعدَ مماته.

رابعًا: التناسقُ الموضوعي بين الآيات:

ولما ختمت الآيات بأعلىٰ صفات عباده الأتقياء ممن حققوا كمال الخشية افتتحت هذه الآيات بتقبيح صورة الكافر المستغني عن ربه بأشد أساليب الخطاب بتسجيل لعنته عليهم بما يبين سخطه العظيم وذمه البليغ فقال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، ولما كان من أكبر صور الكفر والتكذيب التكذيب بالساعة شرع في إقامة الدليل عليها بآية الأنفس من ابتداء الخلق في أسلوب مبين لخسته وحقارته وأن من ألبسه أثواب الشرف بعد تلك الخسة والحقارة جدير منه بالشكر لا بالكفر، فقال منبهًا له بالسؤال: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ثم أجاب إشارة إلىٰ الجواب واضح لا يحتاج فيه إلىٰ وقفة أصلًا فقال مبينًا حقارته: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فقدر أطواره وجعل له قدرًا في بطن أمه، ثم بين كيف قدر خروجه من بطن أمه بكل سهولة ويسر فقال ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

أي سهل له أمره في خروجه بأن فتح فم الرحم وألهمه أن ينتكس، فهذه ثلاث مراحل سابقةٌ للإنسان، وهي: (الخلقُ من نطفةٍ، والتقديرِ، وهي مرحلةُ التكوين، والتيسيرُ للخروجِ بعدَ اكتمالِ التكوين، ثم طوىٰ صفحة الحياة التي تنطوي بسرعة بذكر آخرها، فقال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ثم بين ما يكون بعد حياة البرزخ فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي بعثه من قبره، وهذه تمثل المراحل الثلاثةِ القادمة، وهي: الإماتةُ، والإقبارُ، والإنشار، ولما كان الإقرار بذلك يستلزم المسارعة إلىٰ العمل بمرضاته، نفىٰ ذلك علىٰ سبيل الردع وبما يبين ما في الإنسان من الغفلة والجهل فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ولما كانت الافتتاحية لهذه الآيات في تقبيح كفره، جاء ختامها في التعجب من عدم قيامه بحقِّ ربه.

خامسًا: التساؤلات التدبرية:

فإن قيل الدعاء علىٰ الإنسان إنما يليق بالعاجز. فالقادر علىٰ الكل كيف يليق به ذاك؟

الجواب: أن ذلك ورد علىٰ أسلوب كلام العرب وتحقيق ما ذكرنا أنه تعالىٰ بين أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح، فالدعاء بالسوء من الله تعالىٰ مستعمل في التحقير والتهديد.

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الثالث

بيانُ طعامِ الإنسانِ وما فيه من تدبير

قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما أمرَ تعالىٰ بتذكرِ الدلائلِ الموجودةِ في الأنفسِ المتعلقةِ بحدوثِهم للاعتبارِ بخلقهم، أمرهم بالنظرِ والاعتبارِ بطعامِهم الذي به قوامُ حياتِهم، كيفَ دبرَهُ بهذه الوسائطِ المذكورةِ من صبِ الماءِ، وشقِّ الأرضِ، والإنباتِ حتىٰ صارَ طعامًا، فقالَ تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، لعله يتذكرُ فيوحدُ ويشكرُ؛ لأنه موضعُ الاعتبار، كما فيه تذكيرٌ بالمنة علىٰ الإنسانِ في هذه الدلائل، وفي ذلك علاجٌ لشدة كفرهِ الذي افتتحت هذه الآياتُ بتقبيحه.

ثانيًا: معاني الكلمات:

- ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾: أي كيف قُدرَ ودُبرَ له.
- ﴿صَبَبْنَا﴾: الصَّبُ: إلقاءُ صبرةٍ متجمعةٍ من أجزاءٍ مائعةٍ أو كالمائعةِ في وعاءٍ غير الذي كانت فيه، يقال: صَبَّ الماءَ في الجَرةِ، وصبَّ القَمحَ في الهَرِي، وصَبَّ الدراهم في الكِيس. وأصلُهُ: صبُّ الماءِ، مثل نزول المطرِ وإفراغِ الدلو.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

• شَقَقۡنَا: والشقُ: الإبعادُ بين ما كان متصلًا. والمرادُ هنا شقُّ سطحِ الأرضِ بخرقِ الماءِ فيهِ، أو بآلةٍ كالمحراثِ والمسحاةِ، أو بقوةِ حرِّ الشمسِ في زمنِ الصيفِ لتتهيأ لقبولِ الأمطارِ في فصلِ الخريفِ والشتاء.

• حَبّٗا: الحب هو ما يدخرُ من القوتِ كالبرِّ والشعيرِ والأرزِ وسائرِ الحبوب.

• وَعِنَبٗا: والعِنبُ: ثمرُ الكَرمِ، ويُتخذُ منه الخمرُ والخلُّ، ويُؤكلُ رَطبًا، ويُتخذُ منه الزبيب.

• وَقَضۡبٗا: ما يقضبُ من الرطبِ، أي: يقطع.

• وَنَخۡلٗا: والنخلُ: الشجرُ الذي ثمرتُهُ التمر.

• وَحَدَآئِقَ: والحدائقُ: جمعُ حديقةٍ، وهي الجنةُ من نخلٍ وكَرمٍ وشجرٍ له فواكِهُ، وعطفُها علىٰ النخلِ من عطفِ الأعم علىٰ الأخص، ولأنَّ في ذكرِ الحدائقِ إدماجًا للامتنانِ بها، لأنها مواضعُ تنزهِهم.

• غُلۡبٗا: أي: الغلاظُ العظامُ الكرام.

• وَفَٰكِهَةٗ: هو كلُّ ما يتفكه به من الثمار.

• وَأَبّٗا: والأبُ هي الكلأ الذي ترعاه البهائم.

• مَّتَٰعٗا: والمتاعُ: ما يُنتفعُ به زمنًا ثم ينقطعُ أي: منفعةٌ لكم ولأنعامِكم التي هي الإبلُ والبقرُ والغنم.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ الحثَ علىٰ النظرِ والتأملِ والاعتبارِ في الطعامِ كيف قدرَ اللهُ إخراجَهُ، ونوعَ أشكالَهُ، وعددَ أنواعه، وجعلَه متوافقًا مع حاجةِ الإنسانِ

www.Quranonlinelibrary.com

وبقائه، في صورةٍ مبهجةٍ للنظرِ في نباتِهِ وثمارِه، وممتعةٍ للنفسِ في مذاقِهِ مع اختلافِهِ، ومحيرةٍ للعقلِ عند التدبرِ والنظرِ؛ لأن كلَّ نوعٍ مخالفٍ للآخرِ في طريقةِ الإنباتِ، والشكلِ، والثمارِ وغيرِ ذلك، مع الموافقةِ في الأرضِ والسقيِ، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، كلُّ ذلك تمَّ ويتمُّ بقدرةِ اللهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾.

٢. تفيدُ الحثَّ علىٰ النظرِ التامِ علىٰ كلِّ شيءٍ يَقدرُ علىٰ النظرِ به من بصرِهِ وبصيرتِهِ في كلِّ ما يتصلُ بطعامِهِ، ملتفتًا إليه بكليتِهِ للاعتبارِ بما فيه من العبرِ الكثيرةِ، وأنَّ هذا النظرَ من القربِ العظيمةِ التي يتقربُ بها العبدُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾.

٣. تفيدُ أن النظرَ والتأملَ في قدرةِ اللهِ في الطعامِ ليس المقصودُ به هنا فقط لحظةَ أكلِهِ وتذوقه، بل يبدأُ من نزولِ الماء من السماءِ الذي هو سببُ النباتِ، لأن النبتَ إنما يحصلُ من القطرِ النازلِ من السماءِ الواقعِ في الأرضِ؛ وإنما تعلقُ النظرِ بالطعامِ مع أن الاستدلالَ هو بأحوالِ تكوين الطعامِ، إجراءً للكلامِ علىٰ الإيجازِ، ويبينَه ما في الجملِ بعدَه من قوله: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ إلىٰ آخرها، فالتقديرُ: فلينظُرِ الإنسانُ إلىٰ خَلقِ طعامِهِ، وتهيئةِ الماء لإنمائِهِ، وشقِ الأرض وإنباته، وإلىٰ انتفاعِهِ به وانتفاعِ مواشيهِ في بقاء حياتهم.

٤. تفيدُ أن الإنسانَ في حاجةٍ ليُذكرَ بألصقِ الأشياءِ بِهِ، وأقربِ الأمورِ إلىٰ نظرِهِ لكي يتأملَ ويتدبرَ فيها، بما يجعلهُ يتذكرُ ويشكرُ.

٥. تفيدُ أن نظرَ القلوبِ والأبصارِ الواعيةِ هو الذي يزكي النفسَ ويعمقُ الإيمانَ، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

٦. تفيدُ الحاجةَ المستمرةَ إلىٰ تعميقِ النظرِ والدراساتِ في كلِّ ما أمرَ اللهُ بالنظرِ والتفكرِ فيه، كالإبلِ والسماءِ والأرضِ والجبالِ والطعامِ، وأن النظرَ الواعي فيما خلقَهُ اللهُ وقدرَه من الأشياءِ هو الذي يوصلُ لمعرفةِ قدرِ النعمةِ في العقلِ والقلبِ من خلالِ التفكيرِ في أطوارِ تكوّنهِ، وثمارهِ، وفوائدهِ، وغير ذلك.

٧. تفيدُ التنويه بنعمةِ الماءِ النازلِ من السماءِ، كيفَ أنشأهُ الله، وحملَه في الجوِّ، وساقَهُ من بلدٍ لبلد، وصبَّهُ بمقدارٍ وطريقةٍ عجيبة، ومن تأملَّ في أسبابهِ القريبةِ والبعيدةِ، علمَ قدرةَ اللهِ ورحمتَه، قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٨. تفيدُ بيانَ قدرةِ اللهِ وتدبيرهِ في تشقيقِ الأرضِ للنباتِ، فجعلَ قشرتَها هشةً، وشققَها بالنباتِ، وهو يتخللُ تربتَها بصورةٍ بديعةٍ بما يخرجُ منه في الصغرِ والكبرِ والشكلِ والهيئةِ بقدرةٍ غيرِ قدرتهِ، فينمو وهو ضعيفٌ، والأرضُ فوقَه ثقيلةٌ كثيفة ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾.

٩. تفيدُ أن شقَّ الأرضِ بالنباتِ يكونُ بعدَ مدةٍ ﴿ ثُمَّ ﴾، أي: بعد مهلةٍ من إنزالِ الماء واختلاطهِ بالأرض.

١٠. تفيدُ أهميةَ التفكرِ في كيفيةِ إنباتِ اللهِ تعالىٰ للنباتاتِ الكثيرةِ العظيمة، الذي ليس في مقدورِ الخلقِ فعل ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

١١. تفيدُ مكانةَ الحبوبِ التي هي قوتُ الشعوبِ من برٍ وشعيرٍ وأرزٍ ونحوها. ولذا قدمَهُ الله تعالىٰ، وذكرَ بعدَه سبعةَ أنواعٍ من النبات ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾.

١٢. تدلُّ علىٰ إحياءِ الأجسامِ بعدَ البلىٰ من خلال الحديث عن إحياءِ النباتِ من الأرضِ الهامدةِ، فجعلَ سبحانه نظرَه في إخراجِ طعامهِ من الأرضِ دليلًا علىٰ إخراجهِ هو منها بعد موته، استدلالًا بالنظيرِ علىٰ النظير.

١٣. تفيدُ منزلةَ العنبِ وأهميتهِ من ضمنِ الغذاء؛ وإنما ذكرَه بعدَ الحب؛ لأنه غذاءٌ من وجهٍ، وفاكهةٌ من وجهٍ.

١٤. تفيدُ منزلةَ القضبِ، وهي الخضرواتُ التي تؤكلُ رطبةً غضةً، وفيها فوائدُ كثيرةٌ للإنسانِ في غذائهِ ودوائهِ ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾.

١٥. تفيدُ منزلةَ الزيتونِ الذي هو الشجرةُ المباركةُ، وأهميةَ ما يخرجُ منها، كما قال تعالىٰ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النور: ٣٥].

١٦. تفيدُ أهميةَ النخلِ، ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ وخصَها اللهُ بالذكرِ لكثرةِ فوائدِها ومنافعِها، وهي أشبهُ الشجرِ بالمؤمنِ كما قال النبيُّ ﷺ فيما جاء في الصحيحين عن عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا؛ وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ). فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِىٰ أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِي يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: فَقَالَ: (هِي النَّخْلَةُ). قَالَ فَذَكَرْتُ ذَلِك لِعُمَرَ قَالَ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ هِي النَّخْلَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا

وَكَذَا[١]، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥].

١٧. تفيدُ دقةَ القرآنِ حيث ذكرَ النخلَ دونَ ثمرتهِ، وهو التمرُ، خلافًا لما قُرِنَ به من الثمارِ والفواكهِ والكلأ؛ لأن منافعَ شجرِ النخيلِ كثيرةٌ لا تقتصرُ علىٰ ثمرهِ، فهم يقتاتون ثمرتَه من تمرٍ ورُطبٍ وبُسر، ويأكلون جُمَّاره، ويَشربون ماءَ عودِ النخلةِ إذا شُقَ عنه، ويتخذون من نَوىٰ التمر علفًا لإبلِهم، وكلُّ ذلك من الطعام، فضلًا عن اتخاذِهم البيوتَ والأواني من خشبه، والحُصرَ من سَعَفه، والحبالَ من لِيفه. فذِكْرُ اسمُ الشجرةِ الجامعةِ لهذه المنافع أجمعُ في الاستدلالِ بمختلفِ الأحوال وإدماجِ الامتنانِ بوفرة النعم[٢].

١٨. تفيدُ الامتنانَ بما جعلَهُ اللهُ في الأرضِ من الحدائقِ والبساتينِ التي فيها الأشجارُ الكثيرةُ الملتفةُ الغلاظُ العظام، وخصت الحدائقُ بالذكرِ؛ لأنها مواضعُ التنزه؛ ولأنها تجمعُ أصنافًا من الأشجارِ، ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٧-٨].

١٩. تفيدُ امتنانَ من اللهِ علىٰ الخلقِ بما أنعم عليهم من أنواعِ الفواكهِ من تينٍ، وعنبٍ، وخوخٍ، ورمانٍ، وغيرِ ذلك ﴿وَفَٰكِهَةً﴾.

٢٠. تفيدُ الامتنانَ بما جعلَه الله من مرعىٰ للأنعامِ التي هي كذلك من طعامِ الإنسان ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، بَابُ: قَوْلِ المُحَدِّثِ: حَدَّثَنَا، وَأَخْبَرَنَا، وَأَنْبَأَنَا، ح رقم (٦١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، بَابُ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّخْلَةِ ح رقم (٢٨١١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٢).

www.Quranonlinelibrary.com

٢١. تفيدُ أن النظرَ في هذه النعم يوجبُ شكرَ المنعم، وبذلَ الجهدِ في الإنابةِ إليه، والإقبالِ علىٰ طاعتهِ؛ لأن الإله الكريم َالذِي أحسنَ إلىٰ عبيدهِ بهذهِ الأنواعِ العظيمةِ من الإحسانِ لا يليقُ بالعاقلٍ أن يتمردَ عن طاعتهِ وأن يتكبرَ علىٰ عبادتهِ.

٢٢. تفيدُ أن النظرَ في هذه الأشياء من إخراجٍ، وثمارٍ، ومنافعَ من أعظمِ أدلةِ توحيده، ومن الدلائلِ الدالةِ علىٰ القدرةِ علىٰ المعاد.

٢٣. تفيدُ أن من أرادَ أن يقضيَ ما أمرَه اللهُ تعالىٰ - الذي دائما نحن مقصرون في حقهِ - فلينظرْ إلىٰ طعامهِ، أو إن أراد نقضَ كفرهِ كذلك فلينظرْ إلىٰ طعامه.

٢٤. تفيدُ أن تعدادَ ذكرِ النعمِ من أنواعِ الأطعمةِ اللذيذة، والأقواتِ الشهية يستوجبُ عدمَ كفرانِ النعمة، بالتقوي بها علىٰ طاعتهِ ومرضاتهِ، وليس علىٰ معصيتهِ والبعدِ عن جنابهِ ورحمتهِ.

٢٥. تفيدُ التنبيهَ بهذهِ النعمِ لبقائهِ يشيرُ لدوام احتياجِ العبد إلىٰ ربهِ مدة بقائه.

٢٦. تشيرُ إلىٰ هوانِ الدنيا وزوالِها؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ عبرَّ عن كلِّ ذلك بالمتاعِ الذي يكونُ إلىٰ حين، وجمعَ فيه بين طعامِ الإنسانِ والحيوان.

٢٧. تفيدُ التذكيرَ بنعمةِ الأنعامِ التي خلقَها اللهُ وأحلَّهَا لعبادِه، وجعلَ فيها طعامَهم وشرابَهم ولباسَهم، وركوبَهم، بل جُعِلَ فيها جمالٌ حين يروحون ويسرحون، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩].

٢٨. تدلُّ أن الوجودَ كلَّه خلقَ لأجلِ منافعِ الإنسانِ ليشكرَ لا ليكفر، وأن القادرَ علىٰ ذلك قطعًا قادر علىٰ البعث.

٢٩. تفيدُ أنه لما كان المقصودُ بالنظرِ إلىٰ صنائعِ الله تعالىٰ ليقودَ ذلك إلىٰ الإيمانِ باللهِ والبعث، كانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالِهِ في تكذيبِهِ بالبعثِ أفعالَ من ينكرُ ذلك الصنع.

٣٠. تفيدُ أن الإنسانَ محتاجٌ إلىٰ جميعِ ما في الوجودِ الذي أخرجه اللهُ وسخرَه له، ولو نقصَ منه شيءٌ اختلَ أمرهُ.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما زجر الله الإنسان وردعه بعد تفصيل ما له في نفسه من الآيات، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ﴾ ذكره بألصق آياته حوله وعليها دوام حياته المستلزم لدوام احتياجه إلىٰ ربه، بما يؤكد تقصيره كذلك في شكر نعمه، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦ﴾، ولما كان المقصود النظر إلىٰ صنائع الله تعالىٰ فيه قال سبحانه مفصلًا في ذلك بما يدل علىٰ كمال قدرته وحكمته ورحمته فبدأ أولًا في النظر بالسببِ السماوي لأنه أشرف، ولأن الماءَ هو سببُ حياةِ كلِّ شيء فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾، وثنىٰ بالأرضِ فقال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾، ولما كان الحبُ قوتًا بدأَ به؛ لأنه الأصل في بقاءِ الإنسان فقال: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾، ثم عطفَ عليه ما هو فاكهةٌ وقوتٌ فقال: ﴿وَعِنَبًا﴾، ولما ذكرَ بما يشير إلىٰ الخضروات التي تؤكل رطبة فقال: ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو الرطبُ من البقلِ وغيرِه،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ولما ذكرَ ما لا يصلحُ أن يؤكَلَ إلاّ رطبًا من غيرِ تأخيرٍ، أتبعَه ما لا يفسدُ بحالٍ لا علىٰ أمهِ ولا بعدَ القطافِ، ويصلحُ بعدَ القطافِ فيؤكَلُ أو يعصر، فيكون له دهنٌ للاستصباحِ والادهانِ والائتدام، وفيه تقويةٌ للعظامِ والأعصاب، فقال: ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾، ثم ذكرَ ما يؤكَلُ علىٰ أمهِ ويقطعُ فيدخر، وهو جامعٌ بين القوةِ والتحلي والتحمضِ بالخل، والتفكهِ برطبه، والتداوي به من السمِ الناقعِ والسحرِ الصارع، فقال: ﴿وَنَخۡلٗا﴾، ولما ذكرَ هذه الأشياءَ من الأقواتِ والفواكهِ لكثرةِ منافعِها، وكانت البساتينُ تجمعَها وغيرَها مع ما لها من بهجةِ العين وسرورِ النفسِ وبسطِ الخاطرِ وشرحِ القلب قال: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾، ولما ذكَّرَ ما يتفكه ويدخرُ جمعَ ذلك وغيرَه فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾، ولما ذكرَ طعامَ الإنسانِ، ذكرَ طعامَ الحيوانِ فقال: ﴿وَأَبّٗا﴾ أي ومرعىً ونباتًا وعشبًا وكلأ. ولما جمعَ ما يقتاتُ وما يتفكه، فدلَّ دلالةً واضحةً علىٰ تمامِ القدرة، ذَكَرَ بالنعمةِ فيه فقال: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾، وكلُّ ذلك أدلةٌ ساقَها الحقُ تعالىٰ براهين للبعث الذي ختمت به هذه السورة.

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الرابع

بيانُ حالِ المنذرين من يخشى ومن استغنى في الآخرة

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ
وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ
مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣ - ٤٢].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

بعد ما بين تعالىٰ بدايةَ أمرِ الإنسانِ في حياتهِ ومعاشهِ بين تعالىٰ معادَه ومآله.

ثانيًا: معاني الكلمات:

• ٱلصَّآخَّةُ: اسمٌ من أسماءِ يومِ القيامة، كالطامةِ، والحاقةِ، والقارعةِ وأشباهِها، سميت بذلك؛ لأنها تصخُ الأسماع، أي: تبالغُ في إسماعِها حتىٰ تكادَ تصمُها.

• يَفِرُّ: والفرارُ الهروبُ للتخلصِ من مُخيف.

• وَصَٰحِبَتِهِۦ: أي: زوجتهِ.

• شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ: أي حالٌ تشغلُهُ عن شأنِ غيرهِ.

- ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: مستنيرةٌ ومضيئة.
- ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾: مسرورةٌ فرحةٌ من السرورِ في قلوبها.
- ﴿غَبَرَةٌ﴾: أي: غبار.
- ﴿تَرۡهَقُهَا﴾: أي تغشاها.
- ﴿قَتَرَةٌ﴾: أي: ظلمةٌ وسواد.
- ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾: أي الجامعون بين الكفرِ والفجورِ، وهو الفسق.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ أن الصاخةَ اسمٌ من أسماءِ يوم القيامة، وهي تشيرُ إلىٰ ما يحدثُ من صيحاتٍ شديدةٍ تَصُخ الأسماع أي: تُصِمها في ذلك اليوم ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

٢. تفيدُ بيانَ شدةِ الموقف وهولِهِ يومَ القيامة، حتىٰ إنَّ الإنسانَ يفرُّ من أقربِ الناسِ لديه، وأعزِّهم إليه عادة، فذكرتْ هنا أصنافًا من القرابةِ، التي تكون في النفسِ لها معزةٌ وحرصٌ علىٰ سلامتِها وكرامتِها، والإلفَةُ تولدُ في النفسِ الحرصَ علىٰ الملازمةِ والمقارنةِ؛ ولكن هولُ البعث لا يَترِكُ مجالًا في النفسِ لهذين الوجدانين. قيل: إنما يفرُّ عنهم حذرًا من مطالبتِهم إياه بما بينهم، وقيل: يفرُ عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدةِ، وقيل: لعلمهِ أنهم لا ينفعونَهُ ولا يغنونَ عنه شيئًا كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١]، والقرآنُ ذكرَ سببَ الفرارِ في قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾.

٣. تفيدُ خطرَ التبعاتِ في الآخرةِ، وهي الحقوقُ التي يطالبُ بها العبد.

٤. تفيدُ أن كلَّ عبدٍ منشغلٌ في الآخرةِ بخاصةِ نفسهِ وكيفيةِ فكاكها، لا يفكرُ في غيرهِ، قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

٥. فيها توضيحٌ لأسلوبِ القرآنِ الرائعِ في بيانِ هولِ الموقفِ حيث بدأَ بالأبعدِ ثم الأقربُ فالأقربُ للمبالغةِ والتهويلِ، كأنه قيل: يفرُ من أخيهِ بل من أبويهِ، بل من صاحبتهِ وبنيه. وأطنبَ بتعدادِ هؤلاءِ الأقرباءِ دون أن يقالَ: يومَ يفرُّ المرءُ من أقربِ قرابتهِ مثلًا لإحضارِ صورةِ الهول في نفسِ السامع ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾.

٦. تفيدُ مكانةَ الزوجةِ وقربها من الرجلِ، ولذا وصفت بالصاحبةِ دون وصفِ الزوجِ، لكثرةِ صحبتِها وملازمتِها لزوجِها.

٧. تفيدُ بيانَ منزلةِ الأبناءِ ومكانتِهم في القلوبِ، فهُم بضعةٌ منه.

٨. فيها تصويرٌ دقيقٌ لهولِ الموقفِ، فإن الفرارَ للخائفِ مسبةٌ فيما تعارفوُهُ لدلالتهِ علىٰ جبنِ صاحبه، وكونهِ يتركُ أعزَّ الأعزةِ عليهِ مسبةٌ عظمىٰ.

٩. تفيدُ أن فرارَ المرءِ من الأقرباءِ الخمسةِ يقتضي فرارُه من كلِّ قريبٍ وصاحبٍ آخر دونَهم في القرابةِ والصحبةِ، ويدلُ عليه قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي عن الاشتغالِ بغيرهِ.

١٠. تفيدُ أن مآلَ العبادِ يومَ القيامةِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ سعداءٌ وأشقياء.

١١. تفيدُ حالَ المؤمنين المتقين في الآخرةِ، وكيف يظهرُ السرورُ، والبهجةُ، والبياضُ، والحسنُ عليهم لما علموا بنجاتِهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

١٢. تفيدُ أن الأعمالَ الصالحةَ المضيئةَ من قيامِ الليلِ والوضوءِ وغيرها تضيءُ الوجوهَ في الآخرةِ، والأعمالَ السيئةِ تسودُ الوجوه.

www.Quranonlinelibrary.com

١٣. تفيدُ حالَ الكافرين في الآخرةِ، وكيفَ تظهرُ الكآبةُ والحزنُ علىٰ وجوهِم؛ لما علموا مصيرَهم الأليم ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

١٤. تفيدُ قبحَ الكافرينَ حيثُ جمعَ اللهُ في وصفِهم الغبرةَ والقترةَ.

١٥. تفيدُ أن أثرَ النعيمِ والشقاءِ يظهرُ في الآخرةِ علىٰ الوجوه.

١٦. تفيدُ ذمَّ الكفرِ والفجورِ، ومن أقبحِ الأمورِ فسادُ الاعتقادِ والعملِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

١٧. تفيدُ أن الجزاءَ من جنسِ العمل؛ لأنهم لما جمعوا بين الكفرِ والفجر، جمعَ اللهُ لهم بين الغبرةِ والقترةِ.

١٨. تدلُّ علىٰ إهانةِ الكافر، حيثُ بينَ أن وجوهَم معفرةٌ بالغبارِ إهانة، ومن أثرِ الكبواتِ التي يمرون بها.

١٩. تفيدُ أن ذكرَ المعادِ وما فيه ليتزودَ العبادُ له بالأعمالِ الصالحة، كما فيه إنذارٌ للمعرضين المكذبين بيومِ الدين.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ذكر عجائبَ الصنعِ في الطعامِ، وختمَه بالمرعىٰ الذي يصيرُ هشيمًا ثم يحييهُ اللهُ تعالىٰ بعد ما ينزلُ الغيث، وكان ذلك مَثَلَ إحياءِ الموتىٰ، وقد تقدمَ الحديثُ عن أمرِ الإنشارِ بعد الإقبار، جاء الحديثُ هنا عن البعثِ ومصيرِ من خلقَهم لعبادتهِ، واستخلفَهم في أرضهِ، وأفاضَ عليهم وافرَ نعمه، وأشارَ إلىٰ أنهم عاجزون عن القيامِ بشكرِها، وكثيرٌ منهم - بل أكثرُهم - زادَ علىٰ ذلك بكفرِها، فأوجبَ ذلك - ولا بد - حسابُهُم علىٰ ما فعلوا فيما استخلفوا فيه واسترعوه كما هي عادةُ كل مسترعٍ ومستخلفٍ فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولما وصفَها بما يدلُّ علىٰ هولِها وشدتِها بين ذلك بيانًا واضحًا من خلالِ فرارِ المرءِ فيها من كلِّ قريبٍ وصاحب، واشتغالُ كلِّ أمرئ بنفسِهِ، وبدأ بأدناهم في الحب والذب فقال: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، ولما ذكرَ اليومَ، قَسم أهلَه إلىٰ القسمين المقصودين بالتذكرةِ أول السورة، فقال دالًا علىٰ البواطنِ بأشرف الظواهر: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾، ولما ذكر أهلَ السعادةِ ذكرَ أضدادَهم فقال تعالىٰ ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

خامسًا: التساؤلات التدبرية:

السؤال: لما قدمَ هنا ذكرَ وجوهِ أهلِ النعيم علىٰ وجوهِ أهل الجحيم خلافَ قولهِ في سورةِ النازعات ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ثم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠] إلىٰ آخره؟

قيل: لأنَّ هذه السورة أقيمت علىٰ عمادِ التنويهِ بشأنِ رجل من أفاضلِ المؤمنين والتحقيرِ لشأنِ عظيمٍ من صناديدِ المشركينِ، فكانَ حظُّ الفريقين مقصودًا مسوقًا إليه الكلام، وكان حظُّ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداءً، وذلك من قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إلىٰ آخره، ثم قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾.

وأما سورةُ النازعاتِ فقد بُنيت علىٰ تهديدِ المنكرينِ للبعث ابتداءً من قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦- ٨] فكان السياقُ للتهديدِ والوعيدِ وتهويلِ ما يلقونه يومَ الحشر، وأما ذكرُ حظِ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلىٰ ذكره الاستطراد علىٰ عادة القرآن من تعقيبِ الترهيبِ بالترغيبِ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سادسًا: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

فاتحة السورة في العتاب عن عبوس وقع لمؤمن بسبب كافر، فعاتب الله فيه نبيه الكريم بصورة تحط من قدر الكافر في الدنيا، وخاتمة السورة عن عبوس يقع للكافر بسبب كفره وفجوره، بما يبين سوء عاقبته في الآخرة.

وفاتحة السورة كانت عن صنفين من الناس من يخشىٰ ومن استغنىٰ، وخاتمة السورة في جزاء كل صنف منهما.

سابعًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. البدءُ بعتابِ النبيِّ ﷺ في قصةِ ابن أم مكتوم بخطاب لطيف ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

٢. وصفُ ابنِ أمِّ مكتوب بالأعمىٰ، والحديثُ عن حالهِ ومجيئه ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

٣. بيانُ منهجِ التعاملِ مع كلِّ مستغنٍ عن اللهِ ورسولهِ ودينه ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

٤. بيانُ وصفِ الصحفِ التي بأيدي الملائكة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾.

٥. توجيه اللعنِ علىٰ جنسِ الإنسانِ الكافرِ، ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ وجاء في القرآنِ توجيهُ اللعنِ علىٰ الخراصين، وأصحابِ الأخدود، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤].

٦. الحديثُ عن تيسيرِ السبيلِ للإنسان ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٧. الحديثُ عن نعمةِ الإقبار، وقدرته علىٰ بعثه متىٰ شاء ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

٨. بيانُ أن الإنسانَ دائمًا مقصرٌ في حقِ مولاه ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

٩. الدعوة للتفكر في طعام الإنسان والحيوان ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

١٠. تسميةُ القيامةِ بالصاخة ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

١١. الحديثُ عن فرارِ الإنسانِ من أقاربهِ وأصحابهِ مع البدءِ بالأبعدِ وانشغالهِ بخاصة نفسه في يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

١٢. بيانُ وجوهِ المؤمنين والكافرين في الآخرةِ ووصفُ كلِّ واحدٍ منهما بوصفين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

ثامنًا: التكاليف الإيمانية والعملية من هدايات السورة:

١. التأدب مع النبي ﷺ والعمل بما يظهر مكانته وقدره وعلو شأنه في النفوس، من الصلاة عليه إذا ذكر، وذكر جميل سيرته للناس لمحبته والاقتداء به، وتعظيم سنته، واتباع أمره.

٢. الاهتمام بضعفاء المسلمين، خاصة أصحاب العاهات، وأهل الخير منهم، والعمل علىٰ قضاء حوائجهم، وإعطائهم الأولوية علىٰ غيرهم عند حضورهم، ومراعاة نفسياتهم بما يعالج ما في نفوسهم من حرج وانكسار،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ويحفظ حقوقهم المادية والمعنوية.

٣. التخلق بالأخلاق التي تورث المحبة والألفة وتدخل السرور بين الناس، مع تجنب الأخلاق التي تورث البغضاء والتنافر، وتدخل الشحناء بين الناس.

٤. استحضار علم الله تعالىٰ المحيط بكل شيء، ورحمته ولطفه وعدله فوق رحمة من أرسله وبعثه رحمة للعالمين، وكان سيد العادلين.

٥. تطبيق مبدأ الولاء والبراء الذي يجعل الميزان الحقيقي في الرفعةِ قائم علىٰ الإيمان، دون النظر لمال أو جاه أو نسب وغيره، وتقديم أمر المؤمن المقبل علىٰ الكافر المعرض، مع نبذ أصحاب الأخلاق السيئة المتكبرين المغرورين المعرضين.

٦. العمل بما يظهر مكانة العلم ومعلميه، وطلابه وكتبه في الحياة العامة، مع مراعاة أوضاع المتعلمين، وحاجاتهم، وظروفهم الصحية والنفسية، مع العناية بما يظهر الاهتمام بهم ويشرح صدورهم، وييسر أمورهم.

٧. أخذ العلم للعمل، وجعله وسيلة لتزكية النفوس وإصلاحها، والعمل علىٰ تزكية المجتمع والسعي لإصلاحه من خلال التعليم، وتربيته علىٰ القيم الفاضلة.

٨. العمل علىٰ بذل العلم لكل الناس، وعدم تخصيص قوم به دون قوم، والإخلاص في تعليم كل من أقبل عليه.

٩. ترتيب الأولويات عند ما تتزاحم الواجبات أو المصالح، وتقديم ما ينبغي فعله في الوقت.

١٠. العمل بما فيه تعظيم للقرآن الكريم، وصونه عن كل ما يدنسه أو

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يحط من قدره، بل صون كل ورقة كتب فيها اسم الله تعالىٰ.

١١. التخلق بأخلاق حملة القرآن من الملائكة الذي وصفهم الله تعالىٰ بأنهم كرام بررة، وذلك بالإكثار من أعمال البر والتقوىٰ.

١٢. استحضار الفقر إلىٰ الله تعالىٰ في كل لحظة، وعدم الغفلة عن عظيم نعمه علىٰ عباده، خلقًا ورزقًا وتدبيرًا، مع استحضار ما لربه من العظمة والكبرياء والغنىٰ.

١٣. التأمل الدائم في خلق الله تعالىٰ، خاصة الطعام الذي عليه قوام حياتنا، وهو من ألصق النعم بالعبد في الصباح والمساء.

١٤. التخلص من كل تبعات تلاحق العبد في الآخرة وتجعله يفر من أقرب الناس إليه.

١٥. العمل بما يسفر الوجوه، ويدخل السرور في الآخرة، مع تجنب ما يورث العبوس والكآبة.

تمَّ الكلام عن سورة عبس ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في غرة جمادى الأولى ١٤٣٥هـ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة التكـوير

موضوع السورة:

إثبات حقيقةِ البعثِ

من خلال موضوعين:

- كيفية وقوعِ البعث وحال الإنسانِ مع عمله
- حقيقة القرآن الذي أخبرَ بالبعث

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: ما جاء من أحاديث عن سورة التكوير:

عن النبيِّ ﷺ قال: (من سرَّه أن يَنْظُرَ إلىٰ القيامةِ رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾)[1].

وجاء عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الْفَجْرَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦][2].

ثانيًا: موضوعاتُ السورة:

موضوعُ السورةِ في إثباتِ حقيقةِ البعثِ ونهاية الدنيا وما فيها، وقد جاء الكلام عن ذلك من خلالِ موضوعين:

الموضوعُ الأولُ: بيانُ كيفيةِ وقوعِ البعث، وما يحدثُ من تغييرٍ في الكونِ يشملُ الشمسَ والنجومَ والجبالَ والبحارَ، والأرضَ والسماءَ، والأنعامَ والوحوشَ، مع بيانِ حالِ الإنسانِ معَ عملِه، الآيات (١-١٤).

الموضوعُ الثاني: بيانُ حقيقةِ القرآنِ الذي أخبرَ بالبعثِ، وما يتعلقُ به من صفةِ الـمَلَك الذي يحملُه، وصفةِ النبيِّ الذي يتلقاهُ، ثم شأنِ القومِ المخاطبين بهذا الوحي معه، مع بيانِ مشيئةِ اللهِ تعالىٰ. الآيات (١٥- ٢٩).

(١) أخرجه الترمذي، ح رقم (٣٣٣٣)، والحاكم في المستدرك، ح رقم (٣٩٠٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، بَابُ: مُتَابَعَةِ الْإِمَامِ وَالْعَمَلِ بَعْدَهُ ح رقم (٤٨٥).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ثالثًا: المناسبةُ بينَ سورةِ عبس وسورةِ التكوير:

لما كانَ الكلامُ في سورةِ عبسَ عن مجيءِ الصاخةِ، وبيانِ حالِ الوجوهِ، بين هنا كيفيةَ مجيئِها، فبينَ ما يكونُ فيها من الأمورِ الهائلةِ من عالمِ الـمُلكِ والملكوتِ حتىٰ كأنه رأيُ عين، مع التهديدِ الشديدِ بيومِ الوعيدِ الذي هو محطُّ الرحالِ، مع بيانِ عظمِ شأنِ القرآنِ من خلالِ بيانِ مكانةِ الرسولِ الذي نزلَ به، والذي أُنزل عليه، ليكونَ نذيرًا للعالمين، خاصةً المنكرين للبعثِ والنشور.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوعُ الأول

بيانُ كيفيةِ وقوعِ البعث وبيانُ حالِ الإنسانِ مع عمله

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١ - ١٤].

أولًا: معاني الكلمات:

• كُوِّرَتۡ: غُوِّرتْ وذَهَبَ ضوؤها، وأَظلَمت، والتكويرُ: جمعُ الشيءِ بعضُه إلىٰ بعضٍ ولفُّه كما تكوَّرُ العمامةُ علىٰ الرأسِ، وإذا فُعِلَ بها ذلك ذَهَب ضوؤها.

• ٱنكَدَرَتۡ: أصلُ الانكدارِ التغير من الكدرةِ، وهو ضدُ الصفاءِ، وهي بمعنىٰ: خفوت ضوئها ولمعانها.

• سُيِّرَتۡ: أي: زالت عن أماكِنها ونُسِفت، فتُركت الأرضُ قاعًا صفصفًا.

• ٱلۡعِشَارُ: جمعُ عشراء، وهي الناقةُ الحاملُ التي تم لحملِها عشرةُ أشهر، وهي من أنفسِ الأموالِ عند العرب؛ لأنها خيارُ الإبل.

• عُطِّلَتۡ: تركتْ وأهملتْ واشتغلَ الناسُ عنها وعن كفالتِها والانتفاعِ

www.Quranonlinelibrary.com

بها، بعد ما كانوا أرغبَ شيءٍ فيها، بما دَهَمهم من الأمرِ العظيمِ المفظعِ الهائل.

• ٱلْوُحُوشُ : الوحوشُ جمعُ وحشٍ، والمراد بها جميعُ الدواب، وقيل: ما توحشَ من دوابِ البرِّ مما لا يستأنسُ ببني آدم.

• حُشِرَتْ : جمعت.

• سُجِّرَتْ : أي أوقدتْ نارًا، وقيل: ملئتْ وفُجرَ بعضُها إلىٰ بعضٍ حتىٰ تعودَ بحرًا واحدا. وقيل: غارَ ماؤها، والسجْرُ في لغةِ العرب يطلقُ علىٰ ثلاثةِ معانٍ وهي: الامتلاءُ، والإيقادُ، واليبسُ، ويمكن الجمعُ بينها علىٰ أن هذه مراحلُ تمرّ بها البحارُ يومَ القيامةِ.

• ٱلنُّفُوسُ : النفوسُ جمعُ نفسٍ، والمراد بها الإنسانُ كلُّهُ.

• زُوِّجَتْ: جمعتْ مع نظيرِها. وتزوّج النفوسِ يعني يُضمُّ كلُّ صنفٍ إلىٰ صنفِه.

• ٱلْمَوْءُۥدَةُ : أي الأنثىٰ التي كانت تدفنُ حيةً في الجاهليةِ يدسونها في التراب كراهيةَ البنات، ومعنىٰ الوأدُ: الثقلُ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ (البقرة:٢٥٥)، فالموءودة: المثقلةُ بالترابِ حتىٰ الموت.

• ٱلصُّحُفُ : الصحفُ جمعُ صحيفةٍ، وهي ما يُكتبُ فيها الأعمال.

• كُشِطَتْ : نزعت، وزالت عن مكانِها كما يكشطُ الجلدُ عند سلخِ البعيرِ عن اللحمِ.

• ٱلْجَحِيمُ : هي النارُ، وسميت بذلك لبعدِ قعرِها وظلمةِ مرآها.

• سُعِّرَتْ : أوقدت إيقادا شديدا.

• أُزْلِفَتْ : أي قُرِّبت وزُيِّنت للمؤمنين.

• أَحْضَرَتْ : الإحضار: جعلُ الشيءِ حاضرًا، أي ما قدمته من خيرٍ وشر.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ أهميةَ استعمالِ الأسلوبِ المشوقِ في الخطابِ؛ وذلكَ من خلالِ الافتتاحِ بــ﴿إِذَا﴾ المشوِّقِ لما بعدَه؛ لأنَّ «إذا» ظرفٌ يستدعِي متعلِّقًا؛ ولأنَّه أيضًا شرطٌ يؤذنُ بذكرِ جَوابٍ بعدهُ، فإذا سمعَه السامعُ ترقَّبَ ما سيأتِي بَعدَه فعندمَا يسمعُه يتمكنُ من نفسِهِ كمالَ التمكّنِ، والإطنابُ بتكريرِ كلمةِ "إذا" في بقيةِ الجملِ اقتضاهُ قصدُ التهويلِ، والتهويلُ من مقتضياتِ الإطنابِ والتكرير.

٢. تفيدُ ما يعتري الموجوداتِ من التغيرِ يومَ القيامةِ، وهو تغيرٌ كبيرٌ في نظامِ الكونِ علىٰ كلِّ معهودٍ وموجود، فينفرطُ عقدُ نظامِه، وتتناثرُ أجزاؤُه، وتذهبُ عنه صفاتُهُ التي يقومُ بها؛ وينتهي إلىٰ أجلِه المقدرِ، حيثُ تنتهي الخلائقُ إلىٰ صورةٍ أخرَىٰ من الكونِ ومن الحياةِ ومن الحقائقِ غيرُ ما عهدَتْ نهائيًا، بما يدلُّ علىٰ هولِ يومِ القيامة.

٣. تفيدُ أن الشمسَ تُجمعُ وتُلفُ، وتُظلمُ ويذهبُ ضوؤُها، وتُجمعُ مع القمرِ، ويلقيانِ في النارِ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٧ - ٩)، وقال هنا: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾

٤. فيها ايقاظٌ للذينَ يعبدونَ الشمسَ من دونِ اللهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨)، ويُستَثنىٰ من ذلكَ أولياءه، كمال قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

٥. فيها بيانُ ما يحدثُ للنجومِ من تغييرٍ وانصبابٍ وتساقطٍ واندِثار يومَ القيامةِ، وإن انكدارَ النجومِ التي تبلغُ مئاتِ الملايينِ مما لا يعلمُ عددُها

ومواضعُها إلا اللهُ لهوَ شيءُ مهيبٌ، فإذا كان الناسُ اليومَ يصيبُهم الهولُ من سقوطِ شهابٍ فكيفَ بكوكبٍ؟ فكيفَ بجميعِ الكواكبِ؟ اللهمَّ سلمْ سلمْ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾.

٦. تفيدُ أنَّ الناسَ يحشرونَ في ظلمةٍ عظيمةٍ، كل إنسانٍ يعطَىٰ نورَه من نفسِهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٢ - ١٣].

٧. تفيدُ أن الجبالَ مع ثباتِها ورسوخِها وتماسكِها واستقرارِها تُسيرُ عن أماكنِها، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ وفي ذلك اشارةٌ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ، وإلىٰ هولِ ذلكَ اليوم، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]، وهذا قبل نسفِها، ثم تصيرُ هباءً منبثًا.

٨. تفيدُ أن نفائسَ الأموالِ التي كانوا يهتمون بها، ويراعونَها في جميعِ الأوقاتِ، وتُشغلُهم عن ذكرِ اللهِ وطاعتِه تعطلتْ، ولا أحدَ يهتمُّ بِها، فنبه بالعشارِ وهيَ أنفسُ أموالِ العربِ إذ ذاك عندَهم؛ لأنَّها مرجوةُ الولدِ، واللبنِ قريبةُ النفعِ، علىٰ ما هوَ في معناها من كلِّ نفيس ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾.

٩. تفيدُ هولَ ذلك الموقف؛ لأنَّها عطلتْ لـمَّا جاءَهم ما يُذهلُهُم عنها، ولاشتغالِهم بأنفسِهم.

١٠. تفيدُ أن جميعَ الخلق يحشرون يوم القيامة، فإذا كانت الوحوشُ

www.Quranonlinelibrary.com

ستحشرُ فكيفَ بالمكلفين ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾؛ وتحشر ليقتصَ اللهُ من بعضِها لبعض، ويرَىٰ العبادُ كمالَ عدلِه، حتىٰ إنه ليقتصُ من القرناءِ للجماءِ، ثم يقول لها: كوني ترابا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي الحديث عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)[١].

١١. تفيدُ أن حشرَ جميعِ الخلائقِ من ذبابٍ، وحيوانٍ، وإنسانٍ، ولا يستوحشُ الوحشُ من الناسِ، ولا الناسُ من الوحوشِ يدلُّ علىٰ هولِ الموقفِ وشدتِه لتركِها لطباعِها المفطورةِ عليها والتي عرفت بها في كلِّ الأحوال.

١٢. فيها بيانُ ما تصيرُ إليه البحارُ يومَ القيامةِ، فإنها تصيرُ بحرًا واحدًا، وتوقدُ نارًا عظيمة كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

١٣. تفيدُ أنه يومَ القيامةِ يُقرنُ كلُّ صاحبِ عملٍ مع نظيرِه، فيُجْمَعُ الأبرارُ مع الأبرارِ، والفجارُ مع الفجارِ، ويزوجُ المؤمنون بالحورِ العين، والكافرونَ بالشياطين، وكلُّ واحدٍ مع شبيهِ يقرن ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

١٤. تفيدُ التقريعَ والتوبيخَ للوائدين للبناتِ يومَ القيامة؛ لأن سؤالَها يدلُ علىٰ ذلك ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾.

١٥. فيها بيانٌ لرعايةِ الإسلامِ للضعفاءِ ونصرتِهم، من أطفالٍ ونساء.

١٦. تفيدُ أن النظرَ للمرأةِ بنظرةِ النقصِ والكراهيةِ نظرةٌ جاهلية، ولا يمكن أن تكونَ هنالكَ كرامةٌ إنسانيةٌ في مجتمعٍ ينظرُ لأحدِ الجنسين بهذه النظرة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، بَابُ: تَحْرِيمِ الظُّلْمِ رقم (٢٥٨٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

١٧. فيها بيانٌ لفضلِ اللهِ علىٰ البشريةِ من خلالِ ما شرعَه من أحكامٍ تَحققَ من خلالِها كرامةُ الإنسانية: الذكرُ والأنثىٰ؛ ورفعهما إلىٰ المكانِ اللائق بهما.

١٨. تفيدُ أن الظلمَ لا يضيعُ في الآخرةِ، فإذا كان اللهُ سينتصرُ لأولادِ المشركينِ فكيف بغيرِهم.

١٩. تفيدُ حرمةَ الدماءِ، وهي أولُ ما يسألُ عنه العبادُ من الحقوقِ.

٢٠. تفيدُ التحذيرَ من القتلِ بغيرِ ذنبٍ، وهو يستوجبُ القتل.

٢١. تفيدُ أن هنالك أسئلةً في الآخرةِ من بابِ التبكيت للمشركين، كسؤالِ الموءودةِ هنا، وسؤالِ عيسىٰ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

٢٢. تفيدُ نشرَ الصحفِ المشتملةِ علىٰ ما عَمِلَه العاملون من خيرٍ وشرٍ، تُنشرُ وتُفرقُ علىٰ أهلِها، فآخذٌ كتابَه بيمينِه، وآخذٌ كتابَه بشمالِه، أو من وراءِ ظهره ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾.

٢٣. تفيدُ أن نشرَ الصحفِ يفيدُ كشفَها ومعرفتَها، فلا تعودُ خافيةً ولا غامضةً، هذه العلنيةُ أشدُّ علىٰ النفوسِ وأنكىٰ. فكم من سوأةٍ مستورةٍ يخجلُ صاحبُها نفسه من ذكرِها، ويرجفُ ويذوبُ من كشفِها! ثم إذا هي جميعُها في ذلك اليومَ منشورةٌ مشهودة!

٢٤. فيها ما يخيفُ القلوبَ المؤمنة، حيثُ تفيدُ أن كلَّ عملٍ يعملُه الإنسانُ من قولٍ أو فعلٍ فإنه يكتبُ ويسجلُ بصحائفَ علىٰ يدِ أمناء، كرامٍ

كاتبين يعلمون ما تفعلون، فإذا كان يومُ القيامة فإن اللهَ سبحانه وتعالىٰ يخرجُه لعبادِه، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ يعني عمله في عنقه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي مفتوحًا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٤].

٢٥. فيها بيانُ حالِ السماءِ، فتنزعُ وتطوىٰ، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٢٦. تفيدُ عظمَ ذلك اليوم الذي تكشفُ فيه خفايا الصدور، وتُكْشَطُ فيه السماء.. وكشطُها إزالتُها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣ – ١٨].

٢٧. تفيدُ حالَ النارِ يومَ القيامة ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي: أوقدَ عليها فاستعرت، والتهبت التهابا لم يكن لها قبل ذلك.

٢٨. تفيدُ الترهيبَ من الشركِ والمعاصي إذ بهما المصيرُ إلىٰ النار.

٢٩. تفيدُ أن الجنةَ تدنو وتقربُ لأهلِها، وهم في الطريقِ إليها كرامةً واحتفاءً بهم، ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ – ٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

www.Quranonlinelibrary.com

٣٠. تفيدُ الترغيبَ في الإيمانِ والتقوىٰ إذ بهما الفوزُ والفلاح، وميراثُ الجنان.

٣١. تفيدُ الفرقَ بين حالِ دار الكافرين، ودار المؤمنين يوم القيامة، فدارُ الكفارِ تسعّر، وتوقدُ، ودارُ المؤمنين تزيّن وتقرّب.

٣٢. تفيدُ أن كلَّ نفسٍ تَعلمُ في ذلك اليوم ما أحضرت من خيرٍ أو شر ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، تعلمُ والهولُ يحيطُ بها ويغمُرُها، تعلمُ وهي لا تملكُ أن تغيرَ شيئا مما أحضرت، ولا أن تزيدَ عليه، ولا أن تنقصَ منه، وهذا يفيدُ الحسرةَ من وراءِ هذا العلم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨].

٣٣. تفيدُ أن ما يُقدمُه الإنسانُ اليومَ هو الذي سيحضرُ به في الآخرة.

٣٤. تفيدُ الحثَّ علىٰ الاستعدادِ لذلك اليومِ بما يقربُ إلىٰ اللهِ والدارِ الآخرة.

٣٥. تفيدُ أن هذه الأوصافَ التي وصفَ اللهُ بها يومَ القيامَة، من الأوصافِ التي تنزعجُ لها القلوب، وتشتدُ من أجلِها الكروب، وترتعدُ لها الفرائص، وتعمُ بها المخاوف، تحثُّ أولي الألبابِ للاستعدادِ لذلك اليوم، وتزجرُهم عن كلِّ ما يوجبُ اللوم.

٣٦. فيها بيانٌ مفصلٌ عن مبادئِ القيامة، وخواتيمِها، وهنالك أحداثٌ أخرىٰ تشيبُ لها الولدان كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١ - ٢].

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٣٧. فيها بيانٌ للأحداثِ التي تقعُ في الدنيا، والتي تقعُ في الآخرة، **فالأحداثُ الستةُ التي تقع في الدنيا، وهي مبادئُ الآخرة هي:**

- تكويرُ الشمسُ بلفِها وذهابِ ضوئها.
- انكدارُ النجومِ بانطماسِها وسقوطِها علىٰ الأرضِ.
- تسييرُ الجبالُ بذهابِها عن وجهِ الأرضِ واستحالتِها إلىٰ هباءٍ يتطاير.
- تعطيلُ العشارِ.
- حشرُ الوحوشِ وموتِها، وهي دوابُّ البرِ قاطبة.
- تسجيرُ البحارِ باشتعالِها نارا.

والأحداثُ الستةُ التي تقعُ في الآخرةِ هي:

- تزويجُ النفوسِ، وهو قرنُ الأرواحِ بأجسادِها بعدَ خَلْقِ الأجسادِ لها، وبعدَ ذلك بأمثالِها في الخيرِ والشرِّ.
- سؤالُ الموءودةِ عن ذنبِها الذي قتلتْ به.
- نشرُ صحفُ الأعمالِ وفتحُها وبسطُها.
- كشطُ السماءِ.
- تسعيرُ النار أي تأجيجها وتقويتها.
- إزلافُ الجنةِ وتقريبُها لأهلِها، أهلِ الإيمان والتقوىٰ.

ثالثًا: التناسقُ الموضوعي بين الآيات:

لما تكَلَم الله تعالىٰ عن ما يحدثُ في ذلك اليومِ بدأَ بعالمِ الشهادة؛ لأنه أقربُ تصورًا لما يغلبُ علىٰ الإنسانِ من الوقوفِ مع المحسوساتِ، وبدأ بالشمسِ التي هي أعظمُ آياتِ السماءِ الظاهرةِ وأوضحُها للحسِ، فقال:

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ ولما كان التأثيرُ في الأعظمِ دالًّا علىٰ التأثيرِ فيما دونه بطريقِ الأولىٰ، أَتبَع ذلك بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، ولما ذَكَر اثنين من أعلامِ السماءِ، أَتْبَعَهَا بأعلامِ الأرض، فبدأ بالجبالِ التي هي في العالمِ السفلي كالنجومِ في العالمِ العلوي، وهي أصلبُ ما في الأرضِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾، ولما ذكرَ أعلامَ الجمادِ، أَتْبَعَها أعلامَ الحيوانِ النافعِ الذي هو أعزُّ أموالِ العربِ فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾، ولما ذَكَر الـمُقرعاتِ الدالاتِ علىٰ إرادةِ أمر عظيمٍ، قَرَّبَ ذلك الأمرَ بإفهامِ أنه الحشرُ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ أي بعثتْ وجمعتْ للعرضِ علىٰ الملكِ الأعظمِ، وللفصلِ فيما بينها.

ولما أَفهَم هذا الحشرَ ذكرَ ما يدلُ علىٰ ما ينالُ أهلَ الموقفِ من الشدائدِ من شدةِ الحر فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾، ولما ذَكَر من الآياتِ العلويةِ من عالمِ الملكِ اثنين، ومن السفليةِ أربعة، فأفهم جميعَ الخلقِ أن الأمرَ في غايةِ الخطرِ فتشوفت النفوسُ إلىٰ ما يفعلُ، قال ذاكرًا لما أرادَ من عالمِ الغيبِ والملكوتِ، وهيَ أمورٌ ستة علىٰ عددِ ما مضىٰ من عالمِ الملكِ والشهادةِ، ترغيبًا في الأعمالِ الصالحةِ والقرناء الصالحين لئلا يزوجُ بما يسوؤه، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، ولما صرحَ بأحوالِ الحشرِ ذكرَ ما يكونُ بعده من السؤالِ علىٰ وجهٍ يُفهم العمومَ، فقال ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾.

ولما دلَ هذا علىٰ عمومِ السؤال ذكرَ ما ينشأُ عنه مما يدلُ علىٰ النعيمِ أو النكالِ فقال: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾، ولما ذكرَ ما يطلقُ وينشر، أتبعه ما يطوىٰ ويحصرُ، ليبدو ما فوقَه من العجائبِ وينظرُ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ أي قلعت بقوةٍ عظيمةٍ وسرعةٍ زائدةٍ وأزيلتْ عن مكانِها التي هي ساترةٌ له محيطةٌ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

به، ولما زالت الموانعُ ظهرت عجائبُ الصنائعِ التي هي غاياتُ المطالبِ، ونهاياتُ الرغائبِ والرهائبِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، ولما ذكر دارَ الأعداءِ البعداءِ ترهيبًا، أتبعه دارَ المقربين السعداءِ ترغيبًا، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي قربت من المؤمنينِ ونعمت ببردِ العيش وطيبِ المستقر. ولما كانت هذه الأشياءُ لهولها مشوقةً للعلمِ بما يرجىٰ نعيمًا أو يوجبُ جحيمًا، قال تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي عملت وأوجدت.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوع الثاني

بيانُ حقيقةِ القرآن الذي أخبرَ بالبعث

قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ
﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ
﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا
هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا
ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١٥ - ٢٩].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما وصَفَ اللهُ تعالىٰ بعضَ أحداثِ البعثِ والجزاءِ بما يفيدُ تحققَ وقوعِه، الذي أَنكرَه المشركون وكذبوا بالقرآنِ الذي أخبرَهم بذلك وأَنذَرهم به، فافتقَرَ الموضوعُ إلىٰ صحةِ الوحيِ والإيمان به، فإذا صَحَ الوحي، وآمنَ به العبدُ، آمنَ بصحةِ البعثِ والجزاءِ؛ ومن هنا أقسمَ تعالىٰ بقسمٍ عظيمٍ علىٰ أن القرآنَ نَزَلَ به جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ محمدٍ ﷺ، وما يقولُهُ محمدٌ ﷺ هو كلامُ اللهِ ووحيُه، وليس هو بمجنونٍ يقولُ ما لا يدري، ولا هو بقولِ شيطانٍ رجيمٍ ممن يسترقون السمعَ ويلقونَه إلىٰ إخوانِهم من الكهانِ، بل هو كلامُ اللهِ صدقًا وحقًا لمن شاءَ اتّباعَ الحقِ.

www.Quranonlinelibrary.com

ثالثًا: معاني الكلمات:

١. فلا أقسم: «لا «هنا ليست نافيةٌ للقسمِ؛ بل هي مثبتةٌ للقسم، ويُؤْتىٰ بها لتأكيدِ القسم.

٢. بِٱلۡخُنَّسِ: جمع خَانِسَة، وهي التي تخنسُ. أي: تختفي، وهي الأشياءُ التي تغيبُ في سيرِها، قيل: هي النجومُ، تخنسُ بالنهارِ وتكنسُ بالليلِ، وهو قولُ علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقيل: هي بقرُ الوحش، وهو قولُ ابن مسعود، وقالَ ابنُ عباسٍ الظِّباءُ، وقال ابنُ جرير رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولم يكن في الآيةِ دلالةٌ علىٰ أن المرادَ بذلك النجومُ دون البقر، ولا البقرُ دون الظباء، فالصوابُ أن يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانت صفتُهُ الخنوسَ أحيانًا والجري أخرىٰ»(١).

٣. ٱلۡجَوَارِ: جمعُ جاريةٍ، وهي التي تجري، أي تسيرُ سيرًا حثيثًا.

٤ .ٱلۡكُنَّسِ: جمعُ كانسةٍ، وكانس: وهو الداخلُ في كِناسه (بكسر الكاف وهو البيتُ الذي يتخذُه للمبيتِ، وهي محلُ إيوائِها.

٥. عَسۡعَسَ: أَقبَلَ بظلامهِ، وقِيلَ أَدبَر، وهو من الألفاظِ المشتركةِ في المعنيين.

٦. تَنَفَّسَ: والتنفسُ: خروجُ النَفسِ من الحيوان، والمرادُ أضاءَ وطلَعَ وارتفعَ ضوؤه، وانتشرت نسماتُهُ الباردة.

٧. إِنَّهُۥ: أي القرآن.

٨. رَسُولٖ كَرِيمٖ: شريفٌ، حَسَنُ الخلقِ، بهي المنظرِ، قاله ابنُ عباس(٢) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وهو جبريلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٨/ ٣٣٨).

٩ . ذِى قُوَّةٍ : أي صاحبُ قوةٍ، أي شديدُ القوىٰ.

١٠ . عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ : أي: عندَ اللهِ، والعرشِ فوقَ كلِّ شيءٍ، وفَوقَ العرشِ ربُّ العالمين.

١١ . مَكِينٍ: له مكانةٌ عندَ الله ومنزلةٌ رفيعة، فهو من ساداتِ الملائكة.

١٢ . مُّطَاعٍ : مسموعُ القولِ مطاعٌ في الملأ الأعلىٰ.

١٣ . أَمِينٍ : والأمينُ: الذي يحفظُ ما عُهِدَ له به حتىٰ يؤدّيهِ دونَ نقصٍ ولا تغيير.

١٤ .صَاحِبُكُم : يعني محمدٌ ﷺ. والصاحبُ حقيقتُهُ: ذو الصحبةِ، وهي الملازمةُ في أحوالِ التجمعِ والانفرادِ للمؤانسةِ والموافقة.

١٥ . بِٱلْأُفُقِ : الفضاءُ الذي يبدو للعينِ من الكُرةِ الهوائيةِ بين طرفي مطلعِ الشمس ومغربِها من حيثُ يلوحُ ضوءُ الفجرِ، ويبدو شَفَقُ الغروب، وهو يلوحُ كأنه قبةٌ زرقاء، والمعنىٰ رآه ما بينَ السماءِ والأرض.

١٦ .ٱلْمُبِينِ: الواضحُ البيِّن، وهي الرؤيةُ الأولىٰ ببطحاء مكة جهة أجياد.

١٧ . ٱلْغَيْبِ: ما غابَ عن أعينِ الناس، أو عن علمِهم؛ والمرادُ ما استأثَرَ اللهُ بعلمهِ إلا أن يُطلعَ عليهِ بعضَ أنبيائه، ومنه وحي الشرائعِ، والعلمُ بصفاتِ اللهِ تعالىٰ وشؤونهِ، ومشاهدَةُ مَلَك الوحي، والبعث.

١٨ .بِضَنِينٍ: بخيل، وعلىٰ قراءةِ الظاء: متهمٌ، فينقص منه.

١٩ . رَّجِيمٍ: فعيلٌ بمعنىٰ مفعول، أي مرجومٌ، والمرجومُ: المبعدُ الذي يتباعدُ الناسُ من شرِه، فإذا أقبلَ عليهم رجمَوه، فهو وصفٌ كاشفٌ للشيطان؛ لأنه لا يكون إلا مُتَبَّرأ منه، والمعنىٰ: ليس القرآنُ بقولِ شيطانٍ مسترقٍ للسمعِ مرجوم.

٢٠. تَذۡهَبُونَ: تعدلون، أو أين تَذْهَبُ عقولُكُم في تكذيبِه مع وضوحِ براهينه.

٢١. ذِكۡرٞ: تذكرةٌ وموعظة.

٢٢. يَسۡتَقِيمَ: أي علىٰ هديِه عقيدةً وعملًا.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ تأكيدَ حقيقيةِ القرآنِ، وصدقَ ما فيه من أمورِ الغيبِ بأعظمِ المؤكداتِ؛ لأن القسمَ مرادٌ به تأكيدُ الخبرِ وتحقيقُهُ، وأدمجَ فيه أوصافَ الأشياءِ الـمُقْسَمِ بها للدلالةِ علىٰ تمامِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ البعثِ وغيرِه.

٢. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ أقسَمَ بالكواكبِ في أحوالِها الثلاثةِ حالِ ظهورِها وجريِها واختفائِها، ونبه بخنوسِها علىٰ حالِ ظهورِها؛ لأن الخنوسَ هو الاختفاءُ بعدَ الظهور، ولا يقالُ لما لا يزالُ مختفيًا: إنه قد خنسَ، وهذا الذي اختارَه الجمهور؛ لأن المعروفَ في إقسامِ القرآنِ أن تكونَ بالأشياءِ العظيمةِ الظاهرة الدالةِ علىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ، أو الأشياءِ المباركة، والنجومُ من أعظمِ آياتِه ودلائلِ ربوبيتِه.

٣. تفيدُ عظمَ آيةِ الليلِ عندِ إقبالِه وإدبارِه، أي: في أولِه وآخرِه، وآخره للعابدين أبرك ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

٤. تفيدُ بلاغةَ القرآنِ الكريم في استخدامِ الألفاظِ، فإن إيثارَ فعلِ ﴿عَسۡعَسَ﴾؛ لإفادتِه حَالَين صالحين للقسمِ به فيهما؛ لأنهما من مظاهرِ القدرةِ، إذ يعقبُ الظلامَ الضياءُ، ثم يعقبُ الضياءَ الظلامُ، وهذا إيجاز بليغ.

٥. تفيدُ أن انصرامَ الليلِ وإقبالِ النهارِ عَقبِه من غيرِ فاصلٍ من أعظمِ

www.Quranonlinelibrary.com

الدلائلِ والعبر، قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

٦. فيها بيانُ عَظَمَةِ آيةِ تَنَفسِ الكونِ بنسيمِه البارد، وضوئِه المشرقِ عندِ الفجر، ورؤيةُ الفجرِ تشعرُ القلبَ الحيَّ كأنه بالفعلِ يتنفس ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

٧. تفيدُ أن تنفسَ الصبحِ بَعدَ عسعسة الليل فيه اشارةٌ إلىٰ ظهورِ الإسلام، وأنه سينتشرُ نورُهُ كما ينتشرُ ضوءُ النهار، ولا تقوىٰ قوةٌ قط علىٰ حجبِه، وسيعمُ الآفاقَ كلّها، مهما وقفوا دونه، قال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨]، وكما جاء عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، وَيِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ)[1].

٨. تفيدُ أن للهِ تعالىٰ له أن يُقسمَ بما شاءَ من مخلوقاتِه؛ لأنها دالةٌ علىٰ قدرته، وليس للمخلوقِ أن يحلفَ إلا بالله تعالىٰ.

٩. تفيدُ تنوعَ القسمِ الذي أقسمَ به ربُّ العزة في كتابِه، وهنالكَ مناسباتٌ دقيقةٌ بين كلِّ مقسم به، ومقسمٌ عليه، عَلِمَهُا من علمها، وجهلَها من جهلها، والله سبحانه لا يقسمُ بشيءٍ في موضعٍ دونَ غيرِه، إلا لغرضٍ يتعلقُ بهذا الموضع، يكونُ بينَ المقسمِ به، والمقسمُ عليه مناسبةٌ وارتباط، وقد يظهرُ ذلك جليًا، وقد يكون خفيًا.

---

(١) أخرجه أحمد ح رقم (١٦٩٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ح رقم (١٨٤٠٠)، والحاكم ح رقم (٨٣٢٦)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٧) أخرجه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

١٠. تفيدُ روعةَ القرآن من خلالِ اكتشافِ العلاقةِ بين المقسمِ به والمقسمِ عليه، فهنا أقسمَ بحالاتِ الكواكبِ علىٰ أصحِ الأقوال، في ظهورِها واختفائِها وجريانِها، وبالليلِ إذا عسعس: أَقبَلَ وأَدبَرَ، أو أَضاءَ وأظلم، والصبحِ إذا تنفس: أي أظهرَ وأشرق، وهما أثرانِ من آثارِ الشمسِ في غروبِها وشروقِها. والمقسمُ عليه: هو أن القرآنُ قولُ رسولٍ كريم، كأنه يقولُ: إن القرآنَ المقسمُ عليه حالُه في الثبوتِ والظهورِ، وحالُ الناسِ معه، كحالِ هذه الكواكبِ الثوابتِ لديكم في ظهورِها تارة، واختفائِها أخرىٰ. وكحالِ الليلِ والصبح، فهو عند أناسٍ موضعُ ثقةٍ وهدايةٍ كالصبحِ في إسفاره، قلوبُهُم متفتحةٌ إليه وعقولُهُم مهتديةٌ به، فهو لهم روحٌ ونور، وعند أناسٍ مظلمةٌ أمامَهُ قلوبُهُم عُمْيٌ عنه بصائرُهُم، وفي آذانِهم وقر، وهو عليهم عمىٰ، وأناسٌ تارةٌ وتارةٌ كالنجومِ أحيانًا، تارةٌ ينقدحُ نورُهُ في قلوبِهم، فتظهرُ معالِمُهُ فيسيرون معه، وتارةٌ يغيبُ عنهم نورُهُ فتخنسُ عنه عقولُهُم وتكنسُ دونه قلوبهم،كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾[البقرة:٢٠].

١١. تفيدُ منزلةَ القرآنِ الكريم حيثُ حملَ رسالَته رسولٌ كريمٌ علىٰ مرسلِه، ووصفُهُ بالكريمِ يقتضي نفي المذامِ كلِّها، وإثباتُ صفاتِ المدحِ اللائقةِ به، فهو جوادٌ شريفُ النفسِ، ظاهرةٌ عليه معالي الأخلاق، بريءٌ من أن يلمَّ شيءٌ من اللومِ بساحتِه، فلذلك هو يفيضُ بالخيراتِ بإذنِ ربه علىٰ من أمر به ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

١٢. تفيدُ أن جبريلَ عليه السلام مرسلٌ من اللهِ لتبليغِ كلامه؛ لأن التعبيرَ عن جبريلَ بوصفِ ﴿رَسُولٖ﴾ إيماءٌ إلىٰ أن القولَ الذي يبلغُه هو رسالةٌ من الله مأمورٌ بإبلاغها كما هي، واضافةُ القولِ إليه إضافةُ تبليغٍ، وليستْ اضافةُ إنشاءٍ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

من عنده، وإلا تناقضتِ النسبتان؛ لأن الرسولَ لا يأتي بقولٍ من عنده، وإنما القولُ الذي جاء به هو ما أرسل به من غيرِه، إلىٰ من أرسلَ إليه به.

١٣. تفيدُ أهميةَ القوىٰ الجسديةِ والمعنويةِ فيمن يتحملون عبء الرسالة، ليقفوا ضدَّ شياطين الجنِّ والأنس، ويصبروا ويتحملوا ما يجدونه من تكذيبٍ وأذىٰ، ولا يعجزُ عن أداءِ مهمته ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾.

١٤. فيها بيانُ منزلةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفاتِه الكماليةِ الكرمِ، والقوةِ، وعلوِّ المكانة، والطاعةِ، والأمانةِ، وقوله: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ عنده جل وعلا.

١٥. تفيدُ أن العدولَ عن اِسم الجلالة إلىٰ ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ بالنسبةِ إلىٰ جبريلَ لتمثيلِ حالِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومكانتِه عندَ الله بحالةِ الأميرِ الماضي في تنفيذِ أمرِ الملكِ، وهو بمحلِّ الكرامةِ لديه، حتىٰ تبرزَ مكانته ومكانة كتابه بصورةٍ بارزة إلينا.

١٦. تفيدُ أن جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ له جنودُهُ وأعوانُهُ يطيعونَه إذا ندبهم لنصرةِ النبيِّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك في قولِه ﴿مُّطَاعٍ﴾، قال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَرَضَ اللهُ علىٰ أهلِ السماواتِ طاعةَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما فرضَ علىٰ أهلِ الأرضِ طاعة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

١٧. تفيدُ أهميةَ صفةِ الأمانةِ في الرسولِ ومن يقومون بتبليغ الإسلام ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقرئ ﴿ثُمَّ﴾ تعظيمًا للأمانةِ، وبيانًا أنها أفضلُ صفاتِه المعدودة»(٢).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤٣).

(٢) الكشاف (٤/ ٧١٣).

١٨. تفيدُ أنَّ وصفَه بالأمانةِ إشارةٌ إلىٰ حفظِهِ مَا حملَه وأدائَه له علىٰ وجهِهِ.

١٩. تدلُّ علىٰ عظمةِ شأنِ المُرسِلِ، والرسولِ، والرسالة، والمرسَلِ إليهم، حيث انتَدَبَ الله له الكريمَ القويَ المكينَ عنده، المطاعَ في الملأ الأعلىٰ، الأمينَ، فإن الملوكَ لا ترسلُ في مهماتِها إلا الأشرافَ ذوي الأقدارِ والرتبِ العالية، فإنَّ المهامَ العظيمةَ ينتدبُ لها دائمًا النفيسُ من الناس، القادرُ علىٰ تنفيذِ ما أمر به، الأمينُ في مهمتِه كما وصفَ الله عبده جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الصفات.

٢٠. تفيدُ أن وصفَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بتلك الأوصافِ نصٌ في تمكينِه من حفظِ ما أرسلَ به، وصيانتِه عن التغييرِ والتبديلِ؛ لأنه مكين، فلا يصلُ إليه ما يخلُّ برسالته، ولأنَّه مطاع، والمطاعُ لا يؤثرُ عليهِ غيرُهُ، والأمينُ لا يخونُ ولا يبدل، فكان القرآنُ الذي جاء به مصونًا من أن يتسلَّطَ أحدٌ عليه فيغيرَه، ومن أن يغيرَهَ الذي جاء به.

٢١. تفيدُ أن تزكيةَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذِهِ الصفاتِ الخمس تتضمنُ تزكيةَ سندِ القرآن، وأن محمدًا سمعَه من جبريلَ عن ربِّ العزة.

٢٢. تفيدُ أن أهلَ مكةَ كانوا يعرفون صدقَ النبيِّ ﷺ ورجاحةَ عقله؛ لأنهم صحبُوهُ وعرفوه برجاحةِ عقله، وصدقِ لهجته، بل كان يعرفُ عندهم بالصادقِ الأمينِ، وذكرُ المصاحبةِ يشيرُ إلىٰ إحاطتِهم بتفاصيلِ أحوالِه عليه الصلاةِ والسلام من حيثُ خُلقُه وعقلُه ويعلمون أنه ليس بمجنونٍ، إذ شأنُ الصاحبِ أن لا تَخفىٰ دقائقَ أحوالِهِ علىٰ أصحابه ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

٢٣. تفيدُ إبطالَ بهتانِ المشركين فيما اختلقوه علىٰ النبيِّ ﷺ من قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وقولِهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٨]، فأبطلَ قولَهم إبطالًا مؤكدًا ومؤيدًا، فتأكيدُهُ بالقَسمِ وبزيادةِ الباء بعد

النفي عما يقولُ فيه أعداؤه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، وهذا أمرٌ يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتِهم خلافَه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

٢٤. فيها ما يدعُوهُم للاستجابةِ له؛ لأنه صاحبُهُم وهم أولىٰ الناسِ به.

٢٥. تفيدُ رجاحةَ عقلِ النبيِّ ﷺ وتزكيتِه، فهو المبرأُ من كلِّ منقصاتِ العقل، فهو مزكّىٰ الفؤاد، مزكّىٰ البصر، مزكّىٰ اللسان، مزكىٰ النفس.

٢٦. تفيدُ سفه الذين يكذبون القرآنَ والرسولَ ويتهمونَه بالسحر، والجنونِ والكهانةِ والأساطيرِ.

٢٧. تفيدُ أن رؤيةَ النبيِّ ﷺ لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تتضمنُ أنه ملكٌ موجودٌ في الخارجِ يُرَىٰ بالعيان ويُدرِكُه البصر لا كما يقول المتفلسفةُ ومن قلدَهم أنه العقلُ الفعال، وأنه ليس مما يُدرك بالبصر، وحقيقتُهُ عندَهم أنه خيالٌ موجودٌ في الأذهان لا في الأعيانِ، وهذا مما خالفوا به جميعَ الرسلِ وأتباعهِم وخرجوا به عن جميعِ المللِ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢٨. تفيدُ أن رؤيةَ النبيِّ ﷺ لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ المقصودُ من هذا الوصفِ نعتُ الأفقِ الذي تراءىٰ منه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبيِّ ﷺ بأنه أفقٌ واضحٌ بيّن لا تشتبه فيه المرئيات ولا يتخيلُ فيه الخيال، وجُعلت تلك الصفةُ علامةً علىٰ أن المرئي ملَكٌ وليس بخيالٍ؛ لأن الأخيلةَ التي يتخيلُها المجانين إنما يتخيلونها علىٰ أرضٍ تخالفُ هذه الصفةَ البينة.

٢٩. تفيدُ أن إثباتَ رؤيةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيانٌ آخرُ لكمالِ عقلِه؛ لأن المجنونَ لا يثبت ما يسمعُه ولا ما يبصرُه حقَّ الإثبات.

٣٠. تدلُّ علىٰ ثقةِ النبيِّ ﷺ فيما يبلغه، وأنه علىٰ ثقةٍ من الغيبِ الذي يخبرُ به، فلا يخافُ أن ينتقضَ ويظهرَ الأمرُ بخلافِ ما أخبر به، كما يقعُ من الكهانِ وغيرِهم ممن يخبرُ بالغيب، فإنَّ كذبَهم أضعافُ صدقِهم، وإذا أخبرَ

أحدُهم بخبرٍ لم يكن علىٰ ثقةٍ منه؛ بل تجده خائفًا من ظهورِ كذبِهِ، فإقدامُ هذا الرسولِ علىٰ الاخبارِ بهذا الغيبِ العظيمِ وهو واثقٌ به، مقيمٌ عليه، مبديٌ له في كلِّ مجمعٍ من أعظمِ الأدلةِ علىٰ صدقه.

٣١. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ ما ضنَّ بما أنزلَه الله عليه بل نشرَه وبلَّغه وبذَله للناسِ كما أنزل عليه بشهادةِ رب العباد ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾.

٣٢. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ مبرأٌ أن يزيدَ أو ينقصَ أو يبدلَ فيه أو يغيرَ فيما حملَه من الوحي بتزكيةِ اللهِ له.

٣٣. تفيدُ بلاغةَ القرآنِ الكريمِ حيث جَمعَ المعنىٰ الدقيقَ الكاملَ في لفظةٍ واحدة بقراءتينِ، في كلمةِ ﴿بِضَنِينٖ﴾، فإن الرسالةَ لا يتمُ مقصُودُها إلا بأمرينِ: أدائِها من غيرِ كتمان، وأدائِها علىٰ وجهِها من غيرِ زيادةٍ ولا نقصان.

٣٤. تفيدُ كرمَ النبيِّ ﷺ، فإنه قد أَجمعَ المفسرون علىٰ أن الغيبَ ههنا القرآنُ والوحي، وهو نفيسٌ، ومع أن عادَة النفوسِ الشحُ بالشيءِ النفيسِ، ولا سيما عمن لا يعرفُ قدرَه ويذَمُه ويذمُّ من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسولُ لم يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفسُ شيءٍ وأجله.

٣٥. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ وَصفَ نَبيه بما وصفَ به رَسولَه من الملائِكة جبريلَ عليه السلام من الأمانةِ، فنفىٰ عنه التهمةَ، كما وصَفَ جبريلَ عليه السلام بأنه أمين.

٣٦. تفيدُ أن القرآنَ من أمرِ الغيبِ الذي أوحي به إلىٰ محمدٍ ﷺ وفيه كثيرٌ من الأخبارِ عن أمورِ الغيب الجنةِ والنارِ ونحو ذلك، والتعبيرُ عن الوحيِ بالغيب، هو المناسبُ هنا لموضوعِ السورة المتعلقةِ بإثبات البعث.

٣٧. تفيدُ أن الداعيةَ ومن عنده علمٌ لا ينبغي أن يضنَ به في الناس.

٣٨. فيها بيانُ كمالِ تلقي النبيِّ ﷺ للقرآنِ وكمالِ تبليغِه، فنفىٰ عنه ﷺ

نقصُ التلقي بنفي آفةِ الجنون في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، فهو في كمالِ العقلِ وقوة الإدراكِ، ومن قبل أثبت له كمالَ الخلق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأثبتَ له اللقيا، فلم يلتبسْ عليه جبريل بغيرِه، وهي أعلىٰ درجاتِ السند، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٣ – ٢٤]، فاجتمعَ له ﷺ الكمالُ الخَلقي، والكمالُ الخُلقي، أي الكمالُ حسًا ومعنىٰ، ثم نفىٰ عنه التهمةَ بأن يضنَ بشيءٍ مما أرسل به مع نفاستِه وعلو منزلتِه وجليل علومه، وأنه كلام رب العالمين.

٣٩. فيها نفي الكهانةِ عن النبيِّ ﷺ، أي وما صاحبُكم ببخيلٍ أي بما يوحَىٰ إليه وما يخبرُ به عن الأمور الغيبيةِ طلبًا للانتفاعِ بما يخبر به بحيث لا ينبئكم عنه إلا بِعِوَض تُعطونه، وذلك كنايةٌ عن نفي أن يكونَ كاهنًا أو عرَّافًا يتلقّىٰ الأخبارِ عن الجنِ إذ كان المشركون يترددون علىٰ الكهان ويزعمون أنهم يخبرون بالمغيباتِ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١ – ٤٣] فأقامَ لهم الفرقَ بين حالِ الكهان وحالِ النبيِّ ﷺ بالإشارةِ إلىٰ أن النبيَّ لا يسألُهُم عوضًا عما يخبرُهُم به، وأن الكاهنَ يأخذُ علىٰ ما يخبرُ به ما يسمونه حُلْوانًا، ولهذا قال بَعدَه ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

٤٠. تفيدُ أن من علم هذه الأوصافَ للقرآنِ والرسولينِ الآتيينِ به، الملكي والبشري أحبَه وأحبَهما، وبالغَ في التعظيمِ والإجلالِ، وأقبلَ علىٰ تلاوتِه في كلِّ أوقاته، وبالغَ في السعيِ في كلِّ ما يأمر به، والهربَ مما ينهىٰ عنه، ليحصلَ له الاستقامةُ رغبةً في مرافقةِ من أتىٰ به، ورؤيةِ من أتىٰ من عنده.

٤١. تفيدُ شرفَ النبيِّ ﷺ حيثُ كانَ اللهُ تعالىٰ هو المدافعُ عنه.

٤٢. تفيدُ الوثوقَ بكلِّ شيءٍ جاء النبيُّ ﷺ به في كلِّ أحواله.

٤٣. فيها استبعادُ أن يكونَ القرآنُ قولَ شيطانٍ رجيم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾،وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١١]، وكلُّ من له أدنىٰ خبرةٍ بأحوالِ الشياطين والمجانِين والمتهمين، وأحوالِ الرسلِ يعلمُ ذلك علمًا لا يماري فيه ولا يشك.

٤٤. تفيدُ أن نفي أن يكونَ القرآن قولَ ملكٍ أو بشرٍ أو شيطانٍ ليُلزِمَهُم الحجةَ للأخذِ به حيثُ أصبحَ من الثابتِ أنه كلامُ الله.

٤٥. تفيدُ ذمَ الشيطانِ بوصفِ رجيم؛ لأنه خبيثٌ، لئيمٌ، كذابٌ، عديمُ الخيرِ، قبيحُ المنظر، فهو أبعدُ ما يكون عن صفاتِ الكرامِ من هم أولىٰ بالقرآن.

٤٦. تفيدُ أن اللهَ سبحانه نفىٰ أقسامَ الكذبِ كلَّها عما جاء به من الغيب؛ فإن ذلك لو كان كذبًا فإما أن يكونَ منه أو ممن علمَه، وإن كان منه فإمّا أن يكون تعَمَّده أو لم يتعمدْه، فإن كان من معلمِه فليس هو بشيطانٍ رجيم، وإن كان منه مع التعمدِ فهو المتهمُ ضدُ الأمين، وإن كان عن غيرِ تعمدٍ فهو المجنونُ فنفىٰ سبحانه عن رسولِه ذلك كلَّه ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

٤٧. فيها إنكارٌ علىٰ من ذَهَبَ عَقلُهُ بعيدًا عن القرآن، أو بحثَ عن الهدىٰ في غيرِهِ و(أين) اسمُ استفهامٍ عن المكانِ، وهو استفهامٌ إنكاري عن مكانِ ذهابِهم، أي طريقُ ضلالِهم، تمثيلًا لحالِهم في سلوكِ طرقِ الباطلِ بحالِ من ضلَّ الطريقَ الجادةَ فيسألُهُ السائلُ منكرًا عليه سلوكه، أي اعدلْ عن هذا الطريق فإنه مضلة، ويجوز أن يكونَ الاستفهامُ مستعملًا في التعجيزِ عن طلبِ طريقًا يسلكونه إلىٰ مقصدِهم من الطعنِ في القرآن.

٤٨. فيها بيانُ عالميةِ رسالةِ القرآن، فـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعمُّ كلَّ البشر؛

www.Quranonlinelibrary.com

لأنهم مدعوون للاهتداءِ به، ومستفيدون مما جاء فيه.

٤٩. تدلُّ علىٰ عظمةِ هذا الكتاب الذي يخاطبُ العالمين ويهديهِم ويصلِحُهم عبرَ الزمانِ وفي كلِّ مكان.

٥٠. تفيدُ أن القرآنَ الكريم ذكرٌ يذكرُ العبادَ بخالقِهم، وما له من صفاتِ الكمالِ، وما يُنزهُ عنه النقائصِ، ويذكرُ بما لَه عليهم من حقِّ العبادة، ويذكرُهم بنعمِهِ عليهم، وواجبُ شكره، ويذكرُهُم بفاقتِهم وحاجتِهم إليه، وأنهم مضطرون إليه، لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدا، ويذكرُهُم بأسَه وشدةَ بطشِه وانتقامَه ممن عصىٰ أَمرَه وكذَبَ رسلَه، ويذكرُهم بثوابِهِ وعقابِه، ويذكرُهم ما فيه صلاحُ اعتقادِهم، وطاعةُ ربهم، وتهذيبُ أخلاقهم، وآدابُ بعضِهم مع بعض، والمحافظةُ علىٰ حقوقِهم، ودوامُ انتظامِ جماعتِهم، وكيف يعاملون غيرَهم من الأممِ الذين لم يتبعوه، ويذكرُهم بأوامرِ ربهم ونواهيه، وحدودِه وشرائعِه وأحكامِه القدريةِ والشرعيةِ، ويذكرُهم بالمبدئِ والمعاد، ويذكرُهم بالخيرِ ليقصدوه، وبالشرِ ليجتنبوه، ويذكرُهم بنفوسِهم وأحوالِها وآفاتِها وما تكملُ به، ويذكرُهم بعدوِهم وما يريدُ منهم، وبماذا يحترزون من كيدِه، ومن أي الأبوابِ والطرقِ يأتي إليهم، وبالجملةِ فهو يذكرُ العبادَ بكلِّ مصالحِهم وما فيه صلاحُهم في معاشِهم ومعادِهم وما به تكون سعادةُ الدارين.

٥١. تفيدُ إثباتَ المشيئةِ للإنسانِ العاقل فيما يأتي ويدع، إن شاءَ فعل، وإن شاءَ لم يفعل، ولو لا ذلك لما كان في إرسالِ الرسل حجةٌ علينا؛ إذا أننا نقولُ لا نقدرُ علىٰ الاختيارِ، وأنه لا عذرَ له إذا قال: هذا أمرٌ قُدِّر، وهذا مكتوبٌ عند الله، فإن تلك كلماتٌ يضعونها في غيرِ محالها.

٥٢. تفيدُ أن فعلَ الاستقامةِ موقوفٌ علىٰ إرادةِ الاستقامةِ.

٥٣. تفيدُ أن بَعدَ هذا البيان، وقوةَ هذا السند، وإظهارَ ثبوتِ الرسالة،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

فقد أَعذَر من أنذر، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

٥٤. فيها ردٌ علىٰ الجبريةِ القائلين بأن العبدَ لا مشيئة له أو أن مشيئتَه مجردَ علامةٍ علىٰ حصولِ الفعلِ لا ارتباطَ بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غيرِ أن يكون سببا فيه، فهي تثبتُ للعبدِ كسبًا وقدرةً علىٰ اختلافِ التعبير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

٥٥. تفيدُ أن الدينَ مستقيمٌ لا يوصفُ بعوجٍ وإنما العوجُ في التدين، فمن الخطأ أن يوزنَ حالُ الدين الإسلامي بميزانِ أحوال بعض المسلمين أو معظمِهم كما يفعلُه بعضُ أهلِ الأنظار القاصرةِ من الغربيين وغيرهم، لأن اللهَ تعالىٰ فرق بين الدين، والتدين، فالدينُ مستقيم، والتدينُ قد يكون مستقيمًا وقد يكون معوجًا.

٥٦. تفيدُ أن المشيئةَ والتوفيقَ والخذلان بيدِه جل وعلا، فما شاءه كان وما لم يشأ لن يكونَ، لأن مشيئةَ اللهِ سابقةٌ لمشيئةِ العبد، فلا يقعُ في ملكِ الله تعالىٰ إلا ما يريد، فمن شاءَ الاستقامةَ من العالمين لم يشأها إلا بعد أن شاءَها اللهُ تعالىٰ، وما شاءَ العبدُ شيئًا إلا وقد شاءه اللهً له من قبل ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥٧. فيها ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ردٌ علىٰ القدريةِ القائلين بأنَّ مشيئةَ العبدِ مستقلةٌ بإيجادِ الفعلِ من غيرِ توقفٍ علىٰ مشيئةِ الله؛ بل متىٰ شاءَ العبدُ الفعلَ وجدَّ، ويستحيلُ عندهم تعلقِ مشيئةِ اللهِ بفعلِ العبد، بل هو يفعلُهُ بدون مشيئة الله.

٥٨. تشيرُ إلىٰ أهميةِ الضراعةِ إلىٰ اللهِ دائمًا، بطلبِ التفضلِ من اللهِ تعالىٰ علينا بالمشيئةِ بالاستقامةِ فضلًا من عنده، كما أمرنا في الصلاة في كلِّ

ركعةٍ منها أن نطلبَه هذا الطلب ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٥٩. تفيدُ أن الذي أَنزلَ القرآنَ وبيدِه المشيئةُ المطلقةُ هو مالكُ الناسِ أجمعين ومربيهم.

٦٠. تفيدُ أن المسلمين الذين تذكروا بالقرآنِ قد شاؤوا الاستقامةَ لأنفسِهم فنصحُوا أنفسَهم، وهو ثناءٌ عليهم، وفي مفهومِ الصلةِ تعريضٌ بأن الذين لم يتذكروا بالقرآنِ، ما حَالَ بينهم وبين التذكرِ به إلا أنهم لم يشاؤوا أن يستقيموا، فرضوا لأنفسِهم بالاعوجاجِ، المتمثل في سوءِ العملِ والاعتقادِ، ليعلمَ السامعون أن دوامَ أولئك علىٰ الضلالِ ليس لقصورِ القرآن عن هديِهم؛ بل لأنهم أبوا أن يهتدوا به، إما مكابرةً فقد كانوا يقولون: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦].

٦١. فيها إفصاحٌ عن شرفِ أهل الاستقامةِ بكونِهم بمحلِ العنايةِ من ربِّهم إذ شاء لهم الاستقامةَ وهيأهم لها.

٦٢. تفيدُ أن هاتين الآيتين متضمنتان إثباتَ الشرعِ والقدرِ، والأسبابَ والمسبباتِ وفعلَ العبدِ واستنادَه إلىٰ فعلِ الرب، ولكلٍّ منهما عبوديةٌ مختصةٌ بها، فعبوديةُ الآيةِ الأولىٰ: الاجتهادُ واستفراغُ الوسعِ والاختيارِ والسعيِ، وعبوديةُ الثانيةِ: الاستعانةُ باللهِ والتوكلُ عليه واللجأُ إليه واستنزالُ التوفيقِ والعونِ منه والعلمُ بأن العبدَ لا يمكنه أن يشاءَ ولا يفعلُ حتىٰ يجعلَه الله كذلك.

٦٣. فيها بيانٌ لشموليةِ ربوبيةِ اللهِ للعالمينِ، خلقًا وحفظًا وتدبيرًا.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات في عرض هداياتها:

بَدَأَ تعالىٰ قَسَمه بذكرِ ظهورِ النجومِ وجريِها وغيابِها، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾، وعطفَ علىٰ القسمِ بالكواكبِ القسم بـ (الليل) لمناسبةِ جريانِ الكواكبِ في الليلِ، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، ولما ذَكَرَ الليلَ عطفَ عليهِ القسمَ بالصُبحِ حين تنفسِه، أي انشقاقُ ضوئه لمناسبةِ ذكرِ الليل، فقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، ولما ذَكَر تنفسَ الصبحِ الذي يدلُ علىٰ النورِ والانفراجِ والحياةِ، ذَكَرَ نورَه الذي أضاءَ به الكون، منوهًا علىٰ عظمتِه من خلالِ بيانِ قُدسيةِ مصدرِه، فبينَ مكانةَ الملكِ الحاملِ له من عندِ الله، ولما بينه بوصفِ الرسالةِ الذي يدلُ في الحقيقةِ علىٰ قولِ من أرسلَه، وصفَه بما يدلُّ علىٰ كمالِ حفظِه لما حمله، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾، ولما بين وصفَ السفيرِ الملكي بتلك الصفاتِ الخمسِ التي أزالت عن القرآنِ كلَّ لبس، وكان وصفُهُ بها إنما هو لأجلِ بيانِ شرفِ القرآنِ وشرفِ الرسولِ البشري الذي هو بينَ الحقِ وعامةِ الخلق، الذي كانوا يصفُونَه بما هو في غايةِ النزاهةِ عنه وهم يعلمون ذلك، أبطلَه مبكتًا لهم بالكذبِ وموبخًا بالبلادة، فبينَ كمالَ عقلِ النبيِّ المتلقي وصدَقه من خلالِ رؤيةٍ محققةٍ لا تخيلَ فيها، أبعدُ ما تكونُ الشياطينُ تنزلَتْ به عليه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، ولما لم يدعْ وجهًا لا يعرفون به صدق ما جاءَ به بين سَفَه عقولِ الكافرين من عدمِ إيمانهم به، وبين أنه أنزلَه ذكرًا للعالمين، فقال: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولما أتمَّ بيانَه ترك لهم اختيارَ ما يرونَه فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، ولما تكَلَمَ عن مشيئةِ الخلقِ بين أنها تابعةٌ لمشيئته، ولا يكونُ في الكونِ إلا ما يشاء، فهو الهادي من يشاءُ بتوفيقِه إلىٰ مصالحِ الدارين أكثرُ من هدايةِ النجومِ والفجرِ المقسم بهما، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن

﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولما وصفَ نفسَه سبحانه بأنه لا يخرجُ شيءٌ عن أمرِه، أَتبعَ ذلك الوصفَ بما هو كالعلةِ لذلك فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الموجدُ لهم والمالكُ والمحسنُ إليهم والمربي لهم وهو أعلمُ بهم منهم، فلأجلِ ذلك لا يقدرون إلا علىٰ ما أقدرهم عليه، ويجب علىٰ كلِّ منهم طاعتُه والإقبالُ بالكليةِ عليه سبحانه وتعالىٰ وشكرُه استمطارًا للزيادة، فلهذه الربوبيةِ صحَ تصرفُه في الشمسِ وما تبعها مما ذكرَ أولَ السورةِ لإقامةِ الساعةِ لأجلِ حسابِ الخلائق، والإنصافِ بينهم بقطع كلِّ العلائق، كما يفعلُ كلُّ رب مع من يربيِه فكيف بأحكمِ الحاكمين وأرحم الراحمين! فقد التقىٰ طرفاها علىٰ أشرف الوجوه وأجلاها.

خامسًا: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

كانت فاتحة السورة في الحديث عن كيفية وقوع الساعة، وخاتمتها كان في الحديث عن صدق القرآن والرسول اللذين أخبرا عن الساعة، مع التحذير من عاقبة عدم الإيمان في يوم المعاد ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

سادسًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. الحديثُ عن تكويرِ الشمس، وانكدارِ النجوم، وتعطلِ العشار، وحشرِ الوحوش، وتسجيرِ البحار.

٢. الحديث عن سؤالِ الموؤُدة، وكشطِ السماءِ، وتسعيرِ الجحيم.

٣. القسمُ بالخنس والجواري الكنس، والليلِ إذا عسعس، والصبحِ إذا تنفس.

٤. وصفُ جبريلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بخمسِ صفاتٍ كريمة تدلُ علىٰ منزلته.

٥. بيان أن النبيَّ ﷺ لا يضنُ بالغيبِ، ولا يزيدُ ولا ينقصُ ولا يغير.

٦. الكلامُ عن مشيئةِ العبد ومشيئةِ اللهِ الغالبة.

www.Quranonlinelibrary.com

سابعًا: التكاليفُ الإيمانيةُ والعمليةُ من هدايات السورة:

١. التفنن في مخاطبة الناس بما يشد انتباههم ويرفع من مستوىٰ تركيزهم.

٢. العيش مع نور القرآن والهدىٰ، والتزود منه ليكون نورًا للعبد في ظلمات البرزخ ويوم القيامة.

٣. عدم الانشغال بالفاني عن الباقي، وبالعاجلة عن الآخرة؛ بل ينبغي أن تكون الآخرة شغل الإنسان الأول والأهم، فإن الدنيا ذاهبة وذاهب من فيها.

٤. العمل علىٰ رعاية حقوق الضعفاء، ومحاربة كل صور الظلم التي تقع عليهم في المجتمع خاصة المرأة.

٥. إحسان جميع الأعمال التي سوف يحضر بها الإنسان أمام الله تعالىٰ يوم القيامة، وسوف يكون عليها الحساب والجزاء، والاستعداد ليوم المعاد بكل سبيل ممكن.

٦. اليقين بأن القرآن كلام الله نزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ قلب النبي ﷺ، وبلغه للناس كما سمعه.

٧. إدراك منزلة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وعظيم صفاتهم الكريمة.

٨. إدراك عظمة القرآن الكريم من خلال معرفة منزلة من نزل به، ومن أنزل عليه، ومن خلال عالمية خطابه.

٩. العمل لتبليغ رسالة الإسلام لجميع الناس، لأنه نزل للعالمين.

١٠. العمل علىٰ تحقيق الاستقامة علىٰ الصراط المستقيم عقيدة وعبادة وسلوكًا، وطلب ذلك من الله تعالىٰ وحده، فهو الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم.

تمَّ الكلام عن سورة التكوير ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في ربيع الأول عام ١٤٣٥ هـ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سورة الانفطار

موضوع السورة:

التحذيرُ من الانهماكِ في الأعمالِ السيئةِ

من خلال موضوعين:

- بيانُ ما يقعُ يومَ القيامةِ وتوبيخُ المغرورين المكذبين
- بيان جزاء الأعمال في يوم الدين

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: ما جاء من أحاديث عن سورة الانفطار:

عن النبيِّ ﷺ قالَ: (من سَرَّه أن يَنْظُرَ إلىٰ القيامةِ رأي عينٍ فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾)[(١)].

ثانيًا: موضوعاتُ السورة:

موضوعُ السورةِ التحذيرُ من الانهماكِ في الأعمالِ السيئةِ اغترارًا بإحسانِ الربِ وكرمِهِ ونسيانِ يومِ الدينِ وما فيهِ من نعيمٍ وجحيم، من خلالِ الحديثِ عن موضوعين:

- بيانُ بعضِ ما يقعُ في يومِ القيامة من أهوالٍ وتوبيخِ المنكرين المغرورين عن النظرِ في دلائلِ وقوعِ البعث والجزاءِ، وإعلامِهم بأنَّ أعمالَهم محصاةٌ، وهذا من الآيةِ (١-١٢).
- بيانُ جزاءِ الأعمالِ خيرِها وشرِّها في يومِ الدين الذي لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئا، وهذا من الآيةِ (١٣- ١٩).

ثالثًا: المناسبةُ بين سورةِ التكوير وسورة الانفطارِ:

هذه السورةُ من تمامِ سورةِ التكويرِ لاتحادِ المقصدِ في بيانِ أحداثِ اليومِ الآخرِ، فالمناسبةُ واضحة.

---

(١) أخرجه الترمذي، ح رقم (٣٣٣٣)، والحاكم في المستدرك، ح رقم (٣٩٠٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الأول
بيانُ ما يقعُ يومَ القيامةِ وتوبيخُ المغرورين المكذبين

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا
ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ
أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ
١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[الانفطار:١ - ١٢].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ٱنفَطَرَتۡ: أي: انشقت، لأن الفَطرَ الشقُ.

٢. ٱنتَثَرَتۡ: النثرُ ضدُّ الجمعِ والضم، فالنثرُ هو رمي أشياءَ علىٰ الأرضِ بتفرقٍ، بمعنىٰ: تساقطت وتفرقت.

٣. فُجِّرَتۡ: أي: فَجَّرَ اللهُ بعضَها علىٰ بعضٍ حتىٰ اختلطَ عذبُها بمالِحها. وقيل: ذهب ماؤُها وييست.

٤. بُعۡثِرَتۡ: البعثرةُ: الانقلاب، يقالُ: بعثرَ المتاعَ إذا قلبَ بعضَه علىٰ بعضٍ، أي: انقلبَ باطنُها ظاهِرَها وخرجَ من فيها.

٥. عَلِمَتۡ: والعلمُ يتحققُ بإدراكِ ما لم يكن معلومًا من قبل، وبتذكرِ ما نُسي لطولِ المدةِ عليه.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٦. ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾: أي: من الأعمالِ، وما أخرت منها فلم تعمله.

٧. ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: قيل المرادُ به الكافر، وقيل: جنسُ الإنسان؛ لأنَّه ظلومٌ كفار.

٨. ﴿مَا غَرَّكَ﴾: أي: ما دعاكَ إلىٰ الاغترارِ، وخدعَك، وجرَّك علىٰ عصيانِه، والغرورِ: الإطماعُ بما يتوهَمه المغرورُ نفعًا وهو ضرّ.

٩. ﴿خَلَقَكَ﴾: والخَلق: الإيجادُ علىٰ مقدارٍ مقصود.

١٠. ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: والتسْوية: جعلُ الشيءِ سويًّا، أي قويمًا سليمًا، أي: جعلكَ مستويَ الخلقِ تمشي قائمًا لا كالبهائِم، سويًا مستقيمًا.

١١. ﴿فَعَدَلَكَ﴾: التعديلُ: التناسبُ بين أجزاءِ البدنِ مثل تناسبِ اليدين، والرجلينِ، والعينين، فعدلَ أعضاءَك بعضَها ببعضٍ أي وازنَ بينها، فلم يجعلْ إحدىٰ اليدين أطول، ولا إحدىٰ العينين أوسع، ولا بعضَ الأعضاءِ أبيض وبعضَها أسود، من غيرِ تفاوتٍ، سالمَ الأعضاء، مسواةً معدةً لمنافعها.

١٢. ﴿رَكَّبَكَ﴾: والتركيب: التأليفُ وجمعُ شيءٍ إلىٰ شيء.

١٣. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: المعادُ والجزاء، وقيلَ الدينُ نفسه.

١٤. ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: حفظةٌ يرقبون أعمالَكم، ويسجلونَها عليكم.

١٥. ﴿كِرَامًا﴾: شرفاءَ أمناء، ومن كرمِهم لا يكتبون علىٰ أحدٍ ما لم يفعله.

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ بيانَ تشققِ السماءِ مع شدةِ إحكامِها واتساقِها وانتظامِها بأمرِ اللهِ يومَ القيامةِ لنزولِ الملائكةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٥ - ٢٦]، وفي هذا بيانُ هولِ ذلك اليوم، وعظمةِ ما يحدثُ من تغيرٍ في الكون.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٢. تفيدُ بيانَ تساقطِ النجومِ وزوالِ جمالِها وانتظامِها، مع كثرتِها وعظمتِها وسعةِ انتشارها، بما يدخلُ الفزعَ في قلوبِ المؤمنين عند تصورِ هذا الهول.

٣. فيها بيانٌ لما يحدثُ للبحارِ من التفجيرِ حتىٰ تصيرَ بحرًا واحدًا ثم تذهبُ في ذلك اليومِ العظيم.

٤. فيها بيانٌ لما يحدثُ للقبورِ حيثُ يقلبُها اللهُ وَيَخْرُجُ أهلُها منها أحياء.

٥. تفيدُ أن صيغةَ الماضي في انفطرت، وانتثرت، وفجرت، وبعثرت، للدلالةِ علىٰ تحققِ وقوعِ البعث، حتىٰ كأنه حدثَ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

٦. فيها بيانٌ لبعضِ الأحداثِ التي تسبقُ يومَ البعث؛ وذلك في نفخةِ الفناء، وأما النفخةُ الثانية وهي نفخةُ البعثِ حيثُ تجمعُ الخلائق، ويجْري الحسابُ فَتُعْطَىٰ الصحفُ، وتوزنُ الأعمال، وينصبُ الصراط، ثم إلىٰ جنةٍ أو إلىٰ نار.

٧. تفيدُ أن الذي خلقَ هذا الكونَ ونظمه، وهو وحدَه القادرُ علىٰ نقضه وتغيره وخرابه.

٨. تفيدُ أن أيَّ نفسٍ تعلمُ يومَ القيامةِ جميعَ أعمالِها وما قدمته في حياتِها من خيرٍ وشر، وما لحقها من آثارِ أعمالِها من سننِ الهدىٰ أو سننِ الضلال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس:١٢] كما في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

شَيءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ وِزْرُهَا وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ»(١).

٩. تفيدُ التحذيرَ من السنةِ السيئةِ فيتركُها المرءُ بعدَه، فإن أوزارَها تكتبُ عليه وهو في قبره.

١٠. تفيدُ أن المقصودَ من ﴿قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ تعميمُ عِلْمِها بما عملتْهُ ومثلُهُ قولُهُ تعالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

١١. فيها وعيدٌ بالحسابِ علىٰ جميعِ الأعمال؛ لأن المقصودَ من العلمِ ما يتبعه من سؤالٍ وحساب.

١٢. تفيدُ أن المقصودَ من هذا التخويفِ الزجرُ عن المعصية، والترغيبُ في الطاعة، فإن كان قدمَ الكبائر، وأخرَ العملَ الصالح فمأواه النار، وإن كان قدمَ العملَ الصالح وأخرَ الكبائرَ فمأواه الجنة.

١٣. تفيدُ أن المواعظَ تحتاجُ إلىٰ تهيئةِ السامعِ لتلقي الموعظة؛ لأن ما سَبقَه من بيانِ أهوالِ البعثِ لتهيئةِ النفسِ لقبولِ الموعظة؛ إذ الموعظةُ تكونُ أشدَّ تغلغلًا في القلبِ لما يحدثُ للسامعِ من انكسارِ نفسِه ورقّة قلبِه فيزولُ عنه طغيانُ المكابرة والعناد.

١٤. تفيدُ أن النداءَ للتنبيهِ والاهتمامِ بالكلامِ الذي يرد بعده، وهو ليسَ مستعملًا في حقيقتِهِ إذ ليس موجهًا لشخصٍ معينٍ أو جماعةٍ معينةٍ؛ بل مثلُهُ يجعلُهُ المتكلمُ موجّهًا لكلِّ من يسمعه بقصدٍ أو بغيرِ قصد.

١٥. فيها بيانُ شرفِ إنسانيةِ الإنسانِ التي تميزَ بها عن سائرِ الأحياءِ، وكُرِّمَ بها غايةَ التكريم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ

(١) أخرجه ابن ماجه: بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً، ح رقم (٢٠٣)، وصححه الألباني.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

[الإسراء: ٧٠].

١٦. تفيدُ أن هذا النداءَ يشملُ الكافرَ والفاجرَ، وقيل إنه موجَهٌ لمن أنكروا البعثَ بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، وقد يكونُ مرادٌ به جنسَ الإنسانِ المقصرِ دائمًا في حق ربه، وهو الأقرب.

١٧. تفيدُ التحذيرَ من الغرورِ والانخداع بهوىٰ النفس وما يزينُه شياطينُ الإنسِ والجنِّ.

١٨. فيها ما يدعو إلىٰ التوبةِ والانابةِ، من خلالِ وصفِ الربوبية ﴿بِرَبِّكَ﴾ دونَ ذكرِ اسمِ الجلالة لما في معنىٰ الربِّ من الملكِ والإنشاءِ والرفقِ، وكذلك إجراءُ وصفِ الكريمِ دون غيرِه من صفاتِ الله للتذكيرِ بنعمتِهِ علىٰ الناسِ ولطفِهِ بهم فإن الكريمَ حقيقٌ بالشكرِ والطاعةِ.

١٩. تفيدُ أن وصفَه بالكريمِ يدعو كذلك إلىٰ المبالغةِ في التقربِ إليه بالطاعةِ شكرًا له، وألا يُعرِضَ أحدٌ عنه؛ لأن بيده كلَّ شيءٍ، ولا شيءَ بيدِ غيرِه، كما يجب أن يخشىٰ شدةَ بطشِه؛ لأن المتصفَ بالكرمِ كذلك لا يكون إلا عزيزًا، فإنه يكون شديدَ الحلمِ عظيمَ السطوةِ عند انتهاكِ حرمتِه.

٢٠. تفيدُ أنه ينبغي أن يستحيي من المحسنِ الذي لا تكديرَ في إحسانِهِ بوجهٍ، قال الإمامُ الغزالي في شرحِهِ للأسماء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الذي إذا قدر عَفا، وإذا وَعَد وفَّىٰ، وإذا أعطىٰ زَاد علىٰ منتهىٰ الرجال، ولا يبالي لمن أعطىٰ ولا كم أعطَىٰ، وإذا رفعتَ حاجةً إلىٰ غيره لا يرضىٰ، وإذا جفىٰ عاتبَ وما استقصىٰ، ولا يضيعُ من لاذَ به وإليه التجأ، ويغنيه عن الوسائلِ والشفعاء»[1].

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤٩).

www.Quranonlinelibrary.com

٢١. تفيدُ أن هذا يقتضي غايةَ الشكرِ والخوفِ منه إن عصىٰ؛ لأنه كما قدر علىٰ التسويةِ يقدرُ علىٰ التشويهِ وغيرِه من العذاب.

٢٢. تفيدُ أن اللهَ تباركَ وتعالَىٰ من كرمهِ لا يعاجلُ بالعقوبةِ بسطًا في مدةِ التوبة، وتأخيرًا للجزاءِ إلىٰ أن يجمعَ الناسَ في الدارِ التي جعلَها لهم للجزاءِ فظنَّ بعضُ العبادِ به ظنَّ السوء.

٢٣. تفيدُ أن الله تعالىٰ هو المتفضلُ علىٰ الجميعِ بالخلقِ ﴿خَلَقَكَ﴾.

٢٤. فيها بيانُ ربوبيةِ اللهِ تعالىٰ المقضيةُ لألوهيته، كما فيها بيانٌ لكرمِهِ.

٢٥. تفيدُ أن تعدادَ الصلاتِ وإن كان بعضُها قد يغني عن ذكرِ البعضِ فإن التسويةَ حالةٌ من حالاتِ الخلق، وقد يغني ذكرُها عن ذكرِه؛ ولكن قُصِدَ إظهارُ مراتبِ النعمة، وهذا من الإطنابِ المقصودِ به التذكيرُ بكلِّ صلةٍ، والتوقيفَ عَليهَا بخصوصِها، ومن مقتضياتِ الإطنابِ مقامِ التوبيخ.

٢٦. تفيدُ أن قراءةَ (فعدَّلك) بتشديدِ الدالِ تدلُ علىٰ المبالغةِ في العدلِ، أي التسوية فيفيدُ إتقانَ الصنع.. وجعَلَه مستقيمَ القامةِ، فلو كانت إحدىٰ اليدين في الجنبِ، والأخرىٰ في الظهرِ لاختلَّ عملُهُما ولو جعلَ العينين في الخلفِ لانعدمت الاستفادةُ من النظرِ حال المشي، وكذلك مواضعُ الأعضاءِ الباطنةِ من الحَلقِ والمعدةِ والكبدِ والطحالِ، والكليتينِ وموضعِ الرئتينِ، والقلبِ، وموضعِ الدماغِ، والنخاعِ، وغيرها.

٢٧. تفيدُ أن الربَّ الكريمَ علىٰ عبادِهِ ينبغي أن يعبدَ ويطاعَ شكرًا لإحسانِهِ، بل إن كثرةَ كرمِه تستدعي الجدَّ في طاعتِه لا الانهماكَ في عصيانِهِ اغترارًا بكرمِه.

٢٨. تفيدُ أن اللهَ سبحانه وتعالىٰ هو المصورُ للخلقِ في الصورةِ التي

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يريدُها من حسنٍ وطولٍ، ولونٍ، وذكورةٍ، وله المشيئةُ المطلقة، وليس لمخلوقٍ خيارٌ في ذلك.

٢٩. تفيدُ أن اختلافَ الصُّورِ بين الخلقِ إنما هو آيةٌ من آياتِ الله، ويكون التصويرُ في الرحم، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، وعلىٰ العبدِ أن يرضىٰ بالصورةِ التي اختارَها له الكريم.

٣٠. تفيدُ أن من قدرَ علىٰ الخلقِ من العدمِ قادرٌ علىٰ الإعادة.

٣١. فيها بيانُ قبحِ التكذيبِ بالجزاءِ مع سطوعِ الأدلة، وفي صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إفادةٌ أن تكذيبَهم بالجزاءِ متجددٌ لا يقلعون عنه، وهو سببُ استمرارِ كفرِهم، وفي المضارعِ أيضًا استحضارُ حالةِ هذا التكذيبِ استحضارًا يقتضي التعجيبَ من تكذيبهم.

٣٢. فيها بيانُ قبحِ التكذيبِ بالإسلامِ وما جاء فيه.

٣٣. تفيدُ أن التكذيبَ بيومِ الدين هو الذي يولدُ الغرور، وهو أكبرُ عاملٍ من عواملِ الشرِّ والفسادِ في الدنيا، وأكبرُ موجبٍ للعذابِ يوم القيامة.

٣٤. فيها إثباتُ الملائكةِ الذين يكتبونَ اعمالَ ابن آدم، وفي وصفِهم بالكرمِ يدلُّ علىٰ نفي المذامِ عنهم، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ - ١٨].

٣٥. فيها إثباتُ كتابةِ الأعمالِ حَسَنِها وسيئِها والحسابُ بمقتضاها يومَ القيامة بواسطةِ ملكين كريمين علىٰ كلِّ إنسان مكلف، وأن كتابةَ الأعمال هي مزيدُ إقامةٍ في الحجةِ علىٰ الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ

www.Quranonlinelibrary.com

فِيٓ عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

٣٦. تفيدُ أن الملائكةَ حافظةٌ لأقوالِ بني آدم وأعمالِهم من خلالِ ما يكتبونه.

٣٧. فيها تأكيدُ الجزاءِ علىٰ الأعمالِ من خلالِ إثباتِ الحفظ.

٣٨. تفيدُ أن الكرامَ لا يخفىٰ عليهم شيءٌ من أعمالِ العباد.

٣٩. تفيدُ أن الكريمَ لا ينتدب للأعمالِ العظيمةِ إلا الكرامَ من الخلقِ.

٤٠. تفيدُ أن في تعظيمِ الكتبةِ بالثناءِ عليهم تعظيمًا لأمرِ الجزاء وأنه عندَ الله من جلائلِ الأمور.

٤١. فيها إنذارٌ وتهويلٌ للمجرمين ولطفٌ للمتقين، وجاء عن الفُضَيلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان إذا قرأها قال: «ما أشدَّها من آيةٍ علىٰ الغافلين»[1].

٤٢. تفيدُ أن تسجيلَ الأعمالِ وحفظَها يفيدُ وقوعَ الجزاء؛ إذ لولا الجزاءُ علىٰ الأعمالِ لكانَ الاعتناءُ بإحصائِها عبثًا.

٤٣. تفيدُ أنه تعالىٰ وصفَ هؤلاء الملائكةَ الكتبةَ بصفاتٍ لبيانِ ما لهم من التأهيل، فكونُهم حافظين لا يُخلطُ عليهم عملًا بعملٍ، ولا يضيعون شيئًا ولو كان مثقالَ الذرة، وكونهم كرامًا للدلالةِ علىٰ النفاسةِ في النوعِ، الجامعةِ للكمالِ في المعاملةِ وما يصدرَ عنهم من الأعمالِ، وكونهم كاتبون فمراد بها ضبطُ ما وكّلوا علىٰ حفظِهِ ضبطًا لا يتعرضُ للنسيان ولا للإجحافِ ولا للزيادةِ، وكونهم يعلمون ما تفعلون فهو الإحاطةُ بما يصدرُ عن الناسِ من أعمالٍ وما يخطرُ ببالهِم من تفكيرٍ مما يرادُ به عملُ خيرٍ أو شرٍ وهو الهَمّ.

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٤/ ١٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿مَا تَفۡعَلُونَ﴾ يعمُ كلَّ شيءٍ يفعله الناس، وطريقُ علمِ الملائكة بأعمالِ الناس مما فطرَ الله عليه الملائكة الموكّلين بذلك، فأُجْرِي علَىٰ الملائكةِ الموكّلين بإحصاءِ أعمالِهم أربعةُ أوصافٍ هي: الحفظُ، والكرمُ، والكتابةُ، والعلم بما يعلمه الناس بما يدلُ علىٰ تأهلهم.

٤٤ . فيها تنبيهٌ علىٰ أن الإنسانَ لا يجوز له الشهادةَ إلا بعد العلم، وألا يكتبونها حتىٰ يكونوا عالمين بها عند أداءِ الشهادة.

٤٥ . فيها توجيهٌ لما ينبغي مراعاتُهُ في اختيارِ الكُتَّابِ الحافظين لحقوقِ الناس.

٤٦ . تفيدُ أن التذكيرَ بالكرامِ الكاتبين هنا علاجٌ لما يتوقعون من التسامحِ والإهمالِ.

٤٧ . تفيدُ أن هذه الصفاتِ الأربعَ هي عمادُ الصفاتِ المشروطةِ في كلِّ من يقوم بعملٍ للأمةِ في الإسلامِ من الولاةِ وغيرِهم فإنهم حافظون لمصالحِ ما استحفظوا عليه وأولُ الحفظِ الأمانةُ وعدمُ التفريط. فلابد فيهم من الكرمِ وهو زكاءُ الفطرة، أي طهارةُ النفس، ومن الضبطِ فيما يجري علىٰ يديهِ بحيث لا تضيعُ المصالح العامة ولا الخاصةُ بأن يكون ما يصدرُهُ مكتوبًا، مع العلم بأحوال من استرعاهم الله من عباده.

٤٨ . فيها ما يدعو إلىٰ الاستحياءِ عندِ المعصية، لأنه إذا كان يستحىٰ من فعلِ القبيحِ أمامَ الكرامِ من البشر، كيف لا يستحي من حضرةِ الكرامِ من الملائكة، والملائكةُ تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنو آدمَ، وإذا كان ابنُ آدم يتأذىٰ ممن يَفجرُ ويعصي بين يديهِ وإن كان قد يعملُ مثلَ عملهِ فما الظن بأذىٰ الملائكةِ الكرامِ الكاتبين والله المستعان.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٤٩. تفيدُ أن التعبيرَ بالمستقبلِ يدلُّ علىٰ أنهم يعلمون كلَّ ما انقدحَ في القلبِ وخطرَ في الخاطرِ قبلَ أن يفعل، وأما ما لم يجرِ في النفسِ له ذكرٌ فلا يعلمونه كما بينه حديث: (وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً)(١)، ولما كانت نتيجةُ حفظِ الأعمالِ الجزاء عليها، جاءت الآيات بعدها في الجزاء.

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

ذكر تباركَ وتعالىٰ أربعَ علاماتٍ للساعة، اثنتان منها تتعلقان بالعلويات، واثنتان تتعلقان بالسفليات، ولما كان من أرادَ تخريبَ دارٍ فإنه يبدأ أولًا بتخريبِ السقف، بدأ بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، ولما كان يلزمُ من انفطارِ السماء عدمُ إمساكِها لما تعلق بها قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، ولما أخبر بوهيِ السماءِ، أخبرَ بوهيِ الأرض وتبعثرِها من خلالِ الحديث عن تفجر البحارِ المحيط والضابطة للأرض أتم ضبط لنفع العباد علىٰ كثرتها فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، ولما كان ذلك مقتضيًا لغمر القبور بما يوهم أن أهلها لا يقومون دفع ذلك فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ ولما انتهي من ذكرِ علاماتِ النشورِ وإحياءِ النفوس ليوم النشور، بين ما يحدثُ من يقينٍ في النفوسِ بعد أن ينكشفَ المستور فقال: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، ولما أخبرَ في الآياتِ السابقةِ عن وقوعِ البعث ذكرَ غفلةَ بعضِ الخلقِ منوهًا بالسببِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾، ولما ذكر غفلتهم ذكر ما يدلُّ عقلًا علىٰ إمكانيةِ الوقوع، وذلك من وجهين:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، بَابُ: الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، ح رقم (١٦٢).

الأول: أنه الإله الكريمُ الذي لا يجوزُ من كرمه أن يقطعَ موائدَ نعمهِ عن المذنبين، كيف يجوزُ في كرمه ألا ينتقمَ للمظلومِ من الظالم؟ ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾.

الثاني: أنه القادرُ الذي خلقَ هذه البنيةِ الإنسانيةِ ثم سواها وعدلها، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، ولما أوضحَ سبحانه غايةَ الإيضاحِ الدليلَ علىٰ قدرتهِ علىٰ الإعادةِ بالابتداءِ، بين ما أوقعَ الناس في الغرور ما عليه من التكذيب فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ثم بين ما يجعلهم يقلعون عن ذلك الغرور والتكذيب ببيان تفاصيلِ الأحوالِ المتعلقةِ في الدنيا بأحوالِ النشور فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

الموضوع الثاني

جزاء الأعمال في يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئا

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا
يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:
١٣ - ١٩].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما بينَّ في الآياتِ السابقةِ أن الأعمالَ محفوظةٌ محصاةٌ عليهم بواسطةِ ملائكةٍ كرام، بين هنا ما يترتبُ علىٰ ذلك الحفظِ من الثوابِ والعقاب.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ: جمعُ بَر بفتح الباء، وهو التقيّ، وهو فَعْلٌ بمعنىٰ فاعلٌ مشتقٌ من بَرَّ يَبرُّ، والبارُ أو البَرُّ المكثرُ من البرّ بكسر الباء وهو فعلُ الخير، ولذلك كان البَرُّ من أوصافِ اللهِ تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨)، والمراد هنا أي: المؤمنين المتقين الصادقين.

٢. نعيم: والنعيمُ: اسمُ ما يَنعمُ به الإنسان.

٣. ﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾: جمعُ فاجرٍ، والفاجرُ: المتصفُ بالفجورِ وهو ضدُ البر. أي: الكافرُ والخارجُ عن طاعةِ اللهِ ورسوله.

٤. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾: أي يدخلُونها ويقاسون حرَّها يومَ الجزاءِ وهو يومُ القيامة، وصَلْيُ النار: مَسُّ حرِّها للجسمِ، وحقيقتُهُ: الإِحساسُ بحرِّ النارِ المؤلم.

٥. ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾: أي بمخرجين.

٦. ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾: أي من المنفعةِ وإن قلَّت.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ بيانَ مصيرِ الأبرارِ الذين بروا بطاعةِ ربهم لما يصيرون إليه من النعيمِ المقيم ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾.

٢. تفيدُ الحثَّ علىٰ القيامِ بحقِّ اللهِ وحقوقِ عبادِهِ، والملازمةُ للبرِ في أعمالِ القلوبِ والجوارحِ.

٣. فيها بيانُ ما يترتبُ علىٰ أعمالِ البرِ من نعيمِ القلبِ والروحِ والبدنِ في الدنيا والبرزخِ وفي الآخرةِ؛ لأن ما هم فيه من نعيم هنا مطلقٌ غيرُ مقيد.

٤. تفيدُ عظمَ نعيمِ الجنة؛ لأن التنكيرَ في النعيمِ والجحيمِ يفيدُ التفخيمَ والتهويلَ ما لا يخفي.

٥. فيها بيانٌ لعظمِ ما فيه أهلُ الجنةِ من نعيمٍ أحاطَ بهم لا ينفكُ عنهم ولا ينفكون عنه أصلًا ﴿لَفِي نَعِيمٖ﴾.

٦. فيها بيانُ مصيرِ الفجارِ، وأنهم يصيرون إلىٰ الجحيمِ والعذابِ المقيم ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾.

٧. فيها الزجرُ عن المعاصي والفجورِ لما يترتبُ عليه من جحيمٍ وعذابٍ أليم في دارِ الدنيا، والبرزخِ، وفي دارِ القرار.

٨. تفيدُ أن الجزاءَ بالنعيمِ والجحيمِ أشدُّه وأعظمُه يكون يوم الدين ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾.

٩. تفيدُ أن جميعَ الخلقِ يحشرون ليومِ الدين فلا يغيبُ منهم أحد ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٧].

١٠. تفيدُ أن الفجارَ لا يغيبون من العذابِ ساعةً واحدةً ولا يخففُ عنهم من عذابِها ولا يجابون إلىٰ ما يسألون من الموتِ أو الراحةِ ولو يومًا واحدًا.

١١. تفيدُ أن من أسماءِ القيامةِ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ سمي بيومِ الدين؛ لأن كلَّ إنسانٍ يدينُ لعملِه إن خيرًا أو شرًا.

١٢. فيها بيانُ عظمةِ يومِ الدين وشدةِ هولِه الذي تحتارُ لهوله العقول؛ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾.

١٣. فيها أنه لا يقدرُ أحدٌ علىٰ نفعِ أحدٍ أو خَلاصِهِ مما هو فيه مهما كانت بينهُما من قرابةٍ ومحبةٍ إلا بإذنِ اللهِ لمن يشاء ويرضىٰ ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ ﴾.

١٤. تفيدُ أن الحكمَ والفصلَ بين العبادِ للهِ تعالىٰ وحده في ذلك اليومِ العظيم ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾.

١٥. فيها تأييسٌ للمشركينَ من أن تنفعَهم أصنامُهم وما يعبدونَهم من دونِ الله يومئذ كما قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٤].

www.Quranonlinelibrary.com

١٦. فيها الحثُ على الإقبالِ على اللهِ تعالى بقلبٍ خالصٍ، لأنه مالكُ الأمرِ في الدنيا والآخرة.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

ولما كانت نتيجةُ حفظِ الأعمالِ الجزاءَ عليها، بيَّن بعدَه ما كانت الكتابةُ لأجلِهِ من جزاءٍ للمحسنين والمسيئين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾، ولما كان السياقُ للترهيبِ، وصفَ عذابَ الفجارِ بقولِه: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، ولما كان العذابُ على ما نعهدُه لابد أن ينقضي، بيَّن أن عذابَه على غيرِ ذلك فقال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، بل هم فيها خالدون. ولما كان هذا الوعيدُ الأعظمُ يومَ الدين، هوَّل أمرَه بالسؤالِ عنه إعلامًا بأنه أهلٌ لأن يُصرَفَ العمرُ إلى الاعتناءِ بأمرِه، والسؤالِ عن حقيقةِ حاله، سؤالُ إيمانٍ وإذعانٍ لا سؤالُ كفرانٍ وطغيانٍ فقالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. ولما كانت أهوالُهُ زائدةً على الحدِ، كررَ ذلك السؤالَ لذلك الحالِ فقال معبرًا بأداةِ التراخي زيادةً في التهويلِ: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، ولما بين عظمةَ ذلك اليوم وهولَه، بين عظمة سلطانِه في ذلك اليوم الحق، وأنه لا أمرَ لأحدٍ من الخلقِ أصلًا، لا ظاهرًا ولا باطنًا معه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

خامسًا: المناسبةُ بين فاتحةِ السورةِ وخاتمتِها:

ذكرَ في أولِها أمورًا من مشاهدِ أهوالِ القيامة، وختمتْ بذكرِ ما يدلُّ على هولِ ذلك اليومِ العظيم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سادسًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. الحديثُ عن انفطارِ السماءِ، وتناثرِ الكواكبِ، وتفجرِ البحارِ، وتبعثرِ القبورِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾.

٢. بيانُ ما يعلمَه الإنسانُ مما قدّمه وأخرَه يوم القيامة ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

٣. سؤالُ الإنسانِ عن سببِ غرورِهِ بربِّهِ الكريمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

٤. التذكير بنعم الله تعالىٰ علىٰ عبده ومن ذلك تعديلُ خلقِ الإنسانِ وحسنِ تصويرِه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

٥. الحديثُ عن الحافظينَ، الكرامِ الكاتبينَ، الذين يعلمون ما تفعلون ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

٦. الحديثُ عن جزاءِ الأبرارِ ومصيرِ الفجارِ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾.

٧. بيان أن الأمرَ في ذلك اليومِ لله وحده تعالىٰ ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

سابعًا: التكاليف الإيمانيةُ والعملية من هدايات السورة:

١. التذكر الدائم لأهوال القيامة وشدتها، وتقديم العمل الذي ينجي من هولها وشدتها كما في حديث السائل عن الساعة فقال له النبي ﷺ ماذا أعدت لها.

٢. اليقين بأن الله يبعث من في القبور، ويحاسبهم علىٰ ما قدموا وأخروا،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وأن الإنسان يعلم في ذلك اليوم كل ما قدمه، ويعطىٰ كتاب أعماله الذي سجل عليه في الدنيا.

٣. تجنب ترك سنة سيئة تجر تبعات من الذنوب يوم القيامة علىٰ العبد بعد موته.

٤. عدم الاغترار بكرم الله وعفوه، وفيوض نعمه علىٰ عباده، والغفلة عن عقوبته وشدة انتقامه.

٥. تذكر نعم الله الكبيرة علىٰ العبد خاصة نعمة الخلق، والتسوية والتعديل والتفضيل، وهي نعم تطلب الشكر بترك الغرور والاجتهاد في طاعة الله تعالىٰ.

٦. الإيمان بالملائكة الكرام الكاتبين، المصاحبين للإنسان، والمسجلين لكل أعماله، وعدم الغفلة ونسيان ذلك.

٧. اليقين بما يكون فيه أهل البر من النعيم، وأهل الفجور من الجحيم في يوم الدين، بما يتطلب فعل الطاعات وترك السيئات.

٨. تقديم الأعمال التي بها يكون نجاة العبد يوم القيامة، وعدم الاعتماد علىٰ الشفاعات التي لا يملك أحد فيها شيئًا إلا بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ.

تمَّ الكلام عن سورة الانفطار ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في يوم الجمعة ٥ جماد الآخر ١٤٣٥ هـ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة المطففـين

موضوع السورة:

عواقبِ الأعمالِ السيئةِ والحسنةِ

من خلال أربع موضوعات:

- التحذير الشديدُ من التطفيفِ وبيانُ عاقبتِه
- بيان عاقبةِ الفجارِ المكذبين
- بيان نعيمِ الأبرارِ المصدقين

استهزاء الكفارِ بالمؤمنين وعاقبة ذلك

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: ما جاء في سببِ نزولِ سورةِ المطففين:

عن عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ(١).

وسبَبُ النزولِ يفيدُ أن الآياتِ الأولىٰ مدنية، ولكنَّ بقيةَ الآياتِ تتفقُ تمامًا مع سياقِ الآياتِ المكية، حيثُ تتحدثُ عن حوادثِ يومِ القيامة، والآياتِ الأخيرةِ تبين حالةَ استهزاءِ الكفارِ بالمسلمين، وهو ما ينسجمُ مع أوضاعِ الفترةِ المكيةِ عندما كان المؤمنون قلةً والكفارُ كثرةً، ولعل ذلك يرجحُ القولَ بأن بعضَها مكي وبعضَها مدني، واللهُ أعلم. قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نزل بعضُها بِمكة، ونزلَ أمرُ التطفيفِ بالمدينةِ؛ لأنهم كانوا أشدَّ الناسِ فسادًا في هذا المعنىٰ، فأصلَحَهُم اللهُ بهذه السورة»(٢).

ثانيًا: موضوعات السورة:

موضوعُ السورةِ: التحذيرُ من عواقبِ الأعمالِ السيئةِ، وبيانُ عاقبةِ

(١) أخرجه النسائي في السننِ الكبرىٰ ح رقم (١١٦٥٤)، وابنِ ماجة ح رقم (٢٢٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم (٥٢٨٦)، والطبراني في المعجمِ الكبير ح رقم (١٢٠٤١)، وابن حبان في صحيحِهِ ح رقم (٤٩١٩)، والحاكمُ في المستدركِ ح رقم (٢٢٤٠)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرجاه، وقال الذهبيُّ: صحيحٌ، وحسنه الألبانيُّ في صحيح ابن ماجة.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٢١).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الأعمالِ الحسنةِ، من خلالِ الحديثِ عن أربعةِ موضوعاتٍ جاءت علىٰ النحو الآتي:

١. التحذيرُ الشديدُ من التطفيفِ وبيانُ عاقبتِه (من الآية ١ إلىٰ٦).

٢. بيانُ جوانبَ من عاقبةِ الفجارِ المكذبين في يوم الدين (من الآية ٧ إلىٰ ١٧).

٣. بيانُ جوانبَ من نعيمِ الأبرارِ المصدقين في يومِ الدين (من الآية ١٨ إلىٰ ٢٨).

٤. بيانُ استهزاءِ الكفارِ بالمؤمنين في الدنيا وانعكاسِ الحالِ عليهم يومَ القيامة (من الآية ٢٩ إلىٰ ٣٦).

ثالثًا: المناسبةُ بين سورةِ الانفطارِ وسورةِ المطففين:

لَما ذكرَ تعالىٰ السعداءَ والأشقياءَ ويومَ الجزاءِ وعظمَ شأنِه، خوف هنا العصاة المطففين منه ببيان أعدَّه لهم.

وقيل: لما ذكر تعالَىٰ في سورةِ الانفطارِ كتابةَ الأعمالِ وحفظَها صغيرَها وكبيرَها للجزاءِ عليها، وبينَ أنه لا يفوتُ عملًا، أَتْبَعَ ذلك هنا ببيانِ عملٍ يعتبرهُ البعضُ صغيرًا، وهو عندَ اللهِ كبيرٌ، ألا هو التطفيفُ في المكيالِ والميزانِ والانحرافُ عن إقامةِ القسطِ في ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١]، وبين هنا أين تحفظ تلك الكتب بعد أن تكتب، ببيان موضع كتاب الفجار، وكتاب الأبرار.

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الأول

التحذير الشديد من التطفيف وبيان عاقبته

قال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

أولًا: معاني الكلمات:

١. وَيۡلٞ: الويلُ هو الدعاءُ بالشدةِ والهلاكِ، وقيل: شدةُ العذابِ، وقيل: شدةُ الشرِّ، وعن السديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو: وادٍ في جهنمِ يسيلُ فيه صديدُ أهلِ النارِ يتوعدُ اللهُ به من خالفَ أمرهَ وارتكبَ نهيَه علىٰ الوجهِ المقيدِ في الجملةِ التي بعده(١).

٢. لِّلۡمُطَفِّفِينَ: جمعُ مطففٍ، وهو المنقصُ، وحقيقتُهُ الأخذُ في الكيلِ أو الوزنِ شيئًا طفيفًا، أي نزرًا حقيرًا، وَقِيلَ لَهُ الْمُطَفِّفُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْرِقُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا الشَّيْءَ الطَّفِيفَ، مَأْخُوذٌ مِنْ طَفِّ الشَّيْءِ وَهُوَ جَانِبُهُ.

٣. عَلَى ٱلنَّاسِ: متضمنة لمعنىٰ: من الناسِ.

٤. يَسۡتَوۡفُونَ: أي يستوفونَ حقوقهم بالوافِي والزائدِ، وقيل: يستوفونه راجحًا.

٥. وَإِذَا كَالُوهُمۡ: كالوا لهم.

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٠٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٦. أَو وَّزَنُوهُمۡ : أي وزنوا لهم.

٧. يُخۡسِرُونَ: أي ينقصون في الكيلِ والوزن.

٨. أَلَا: استفهامٌ توبيخي انكاري.

٩. يَظُنُّ : أي: يتيقن، والظنُّ يأتي في القرآنِ كثيرًا بمعنىٰ اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

١٠. لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ: هو يومُ القيامة، سماه عظيمًا لعظمِ ما فيه من هولٍ وشدةٍ وفزع، ولكنه علىٰ المتقين يسير.

١١. يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ: أي من قبورِهم للحسابِ والجزاءِ حفاةً عراةً غرلا.

١٢. لِرَبِّ: الربُ المالكُ المدبرُ المتصرف.

١٣. ٱلۡعَٰلَمِينَ: كلُّ ما سوىٰ اللهِ تعالىٰ.

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. فيها بيانُ أثرِ الإجمالِ ثم التفصيلِ في لفتِ انتباهِ السامع؛ ليُحسنَ إقْبَالُه علىٰ الكلام؛ لأن اللهَ تعالىٰ جعلَ الويلَ للمطففين ثم بينَ من هم. وويلٌ: اسمٌ، وليس بمصدرٍ لعدمِ وجودِ فعل له.

٢. فيها بيانُ حرمةِ التطفيفِ في الكيلِ والوزنِ، وهو أن يأخذَ زائدًا ولو قلَّ، أو ينقصَ عامدًا شيئًا ولو قَلَّ بمختلفِ الوسائلِ والأساليب.

٣. فيها ذمٌ لما كان عليه أهل الشرك في مكة والمدينةِ من التطفيف، وبيانٌ لما كانوا عليه من سوءِ المعاملةِ فيما بينهم حتىٰ رحمَهم اللهُ بالإسلامِ المحققِ لسعادةِ الدارين.

٤. تفيدُ أن افتتاحَ هذه السورةِ بالويلِ للمطففين يفيدُ مع الحرمةِ خطورةِ

هذا العمل، وأن أمرَ المكيالِ والميزانِ عظيمٌ؛ وذلك لأن عامةَ الخلقِ يحتاجون إلىٰ المعاملات وهي مبنيةٌ عليهما، وهي تمثلُ مظهرًا من مظاهرِ العدلِ ورعايةِ الحقوقِ في المجتمع، ولهذا السببِ عظَّمَ اللهُ أمرَه فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ – ٩]، وقالَ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقد جاء شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليحذرَ قومَه من هذا الداءِ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ – ٨٥].

٥. تشيرُ إلىٰ حرمةِ التطفيفِ عمومًا في جميعِ الأعمال، ووجوبِ إقامةِ العدلِ في الأمورِ كلِّها، قالَ العُلَمَاءُ: التَّطفِيفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ وَالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رحمة الله: «كمَا أَنَّ السَّرقةَ في كلِّ شيءٍ، وأَسوأُ السَّرقةِ مَنْ يسرقُ صلاتهُ؛ فلَا يتمُّ ركوعهَا ولا سجودهَا»(١). قال العلماء: وهذا الذي ذكرَه هو مثالٌ لكلِّ مَنْ يطلبُ الحقَّ الذي له، ولا يؤدي حقوقَ غيرِه، فالتطفيفُ قد يكون في حقِّ العمال، أو الموظفين، وكلِّ من يؤدي إليك العملَ ولا تعطيَه أجرَه كاملًا.

٦. فيها التحذيرُ للمسلمين من التساهلِ في حقوقِ الآخرين ولو كان ذلك في أمرٍ يسير قد لا يُلْتَفَتُ إليه، حيثُ نبه بعواقبِه الوخيمةِ في الدنيا

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (٨/ ١٨).

والآخرة، فأطلقَ كلمةَ الويلِ هنا، وقد جاء فيما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال: رسول الله ﷺ: (خَمْسٌ بِخَمْسٍ: ما نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ إلا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ، وما حَكَمُوا بِغَيْرِ ما أَنْزَلَ اللهُ إلا فَشا فِيهِمُ الفَقْرُ، ولا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الفاحِشَةُ إلا فَشا فِيهِمُ المَوْتُ، ولا طَفَّفُوا المِكْيالَ إلا مُنِعُوا النَّباتَ وأُخِذُوا بالسِّنِينَ، ولا مَنَعُوا الزَّكاةَ إلا حُبِسَ عَنْهُمُ القَطْرُ)(١).

٧. تفيدُ أنه إذا كان هذا الوعيدُ لمن ينقصُ قليلًا في المكيال والميزان فالذي يأخذُ أموالَهم قهرًا وسرقةً أولىٰ بهذا الوعيد، فكلُّ مَنْ غش في سلعةٍ، أو دلَّسَ، أو زاد في عددٍ، أو نقصَ داخلَ تحتَ الوعيد.

٨. تفيدُ أن الإنسانَ كما يأخذُ من الناسِ الذي له وافيًا يجبُ أن يعطيَهم كلَّ ما لهم من الأموالِ والمعاملاتِ دونَ نقصٍ وتقصير.

٩. تدلُّ علىٰ بلاغةِ القرآن حيث عُدي الفعلُ بحرفِ الجر ﴿عَلَى﴾ بدلَ (من) لتضمين ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ معنىٰ التحامل والاستعلاءِ للمكتالِ منه، واستغلالِ ضعفِهِ وحاجتِه، وذلك أن شأنَ التاجرِ وخُلقَه أن يتطلبَ الربحَ والزيادةَ، وتتصفُ نفسُهُ -إلا من رحم الله- بالعلوِ لوجودِ المالِ والسلعةِ بيده. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كان اكتيالُهُم من الناسِ اكتيالًا يضرُّهم ويتحاملُ فيه عليهم، أبدلَ ﴿عَلَى﴾ مكانَ (من) للدلالةِ علىٰ ذلكَ؛ ويجوز أن يتعلقَّ بـ ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾، أي يستوفون علىٰ الناسِ خاصة، فأما أنفسُهُم فيستوفون لها»(٢).

١٠. تفيدُ أن أصلَ الآفاتِ الخلقُ السيئ، الذي يقومُ في أساسِهِ علىٰ حبِّ الدنيا الموقعِ في جمعِ الأموالِ من غيرِ وجهها، ولو بأخسِ الوجوه.

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في المعجمِ الكبير ح رقم (١٠٩٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ح رقم (٦٣٩٨) وحسنَه الألباني في صحيحِ وضعيفِ الجامع.

(٢) الكشاف (٤/ ٧٢٠).

١١. تفيدُ سماحةَ الإسلامِ حيثُ حرمَ التطفيفَ الذي يجمعُ ظلمًا واختلاسًا ولؤمًا، والعربُ كانوا يرفضون هذه الأخلاق الذميمة ويتعيرونَ بكلِّ واحدٍ من هذه الخلالِ متفرّقةٍ ويتبرؤون منها، فكيف إذا اجتمعت في الرجل.

١٢. تفيدُ أن اليقينَ بالبعثِ والحسابِ يولدُ مسؤوليةَ محاسبةِ الإنسانِ لنفسِهِ فيما يفعله، فلا ينقصُ في الكيلِ والوزنِ ويظلمُ العبادَ، فإن عدمَ اليقين أو عدمَ المبالاةِ يبعثُ لسوءِ العمل.

١٣. فيها دلالةٌ علىٰ عظمِ ذنبِ التطفيفِ ومزيدِ إثمِهِ وفظاعةِ عقابه، لأن الجملةَ مسوقةٌ لتهويلِ ما فعلوه وتفظيعِهِ وللتعجبِ من حالِهم في الاجتراءِ عليه ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾.

١٤. فيها بيانُ فظاعةِ خيانةِ الأمانة، وأكلِ حقِ الغيرِ وهم في غفلةٍ.

١٥. تفيدُ أن الذي يخفىٰ علىٰ الخلقِ لا يخفَىٰ علىٰ اللهِ، وأن ما ضاعَ من الحقوقِ في الدنيا لا يضيعُ في الآخرة، بل يورثُ الثبور.

١٦. تفيدُ التذكيرَ بالبعثِ والحسابِ والجزاءِ، وأنه كائنٌ لا محالة، بما ينبغي أن يكونَ يقينًا حاضرًا في كلِّ تصرفاتِ العبد.

١٧. تفيدُ دقةَ استخدامِ القرآن للألفاظِ؛ لأنه لما كان سوءُ ذلك التصرفِ لا يكون إلا ممن أنكرَ الحسابَ، أو تغافلَ عنه مع إيمانِهِ به، حتىٰ جعله في حكمِ الظانين الذين ضعفَ في قلوبِهم اليقين مع إيمانِهم بيوم الدينِ، جاء كلمةُ الظن هنا في مكانِ كلمةِ اليقين لتفيدَ كلا المعنيين علىٰ الوجهِ الصحيح. والله أعلم.

١٨. تفيدُ عظمةَ يوم القيامة: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، والشيءُ الذي يستعظمُهُ اللهُ لا شك أنه في غايةِ العظمة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢]، وهذه فقط الزلزلةُ فكيف بغيرها، وعظمةُ يوم القيامة لشدةِ ما فيه كذلك من الأمورِ العظامِ والأهوالِ الشدادِ من البعثِ، والعقابِ، ودخولِ أهلِ الجنةِ الجنة، ودخولِ أهلِ النارِ النارِ.

١٩ . فيها بيانُ قيامِ الناسِ يومَ القيامةِ لِلَّهِ ربِّ العالمِينَ سبحانهُ ليحكم بينهم، ويجزي كلَّ عاملٍ بعملِه، وهو من دلائلِ العبوديةِ التي تليقُ بعظمتِهِ وحقِّهِ؛ «فَأَمَّا قيامُ النَّاسِ بعضِهُمْ لبعضٍ فاختلفَ النَّاسُ فيهِ، فمنهُمْ مَنْ أجازَهُ، ومنهُمْ مَنْ منعَهُ. وقدْ رُويَ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قامَ إِلَىٰ جعفرِ بنِ أَبِي طالبٍ واعتنقَهُ)، وقامَ طلحةُ لكعبِ بْنِ مالكٍ يومَ تِيبَ عليهِ، وقالَ النَّبِيُّ ﷺ للأنصارِ حينَ طلعَ عليهِ سعْدُ بْنُ مُعاذ: (قُومُوا لِسَيِّدِكُمْ)، وقالَ أَيضًا: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ)(١). وقدْ بيَّنَ العلماءُ أَنَّ ذلكَ راجعٌ إِلىٰ حالِ الرَّجُلِ وَنِيَّتِهِ، فَإِنْ انتظرَ لذلكَ واعتقدَهُ لنفسِهِ حقًّا فهوَ ممنوعٌ، وَإِنْ كانَ علىٰ طرِقِ البشَاشَةِ والوصلَةِ فإِنَّهُ جائِزٌ، وخاصَّةً عندَ الأَسبابِ، كالقدومِ مِنْ السَّفَرِ ونحوِهِ»(٢).

٢٠ . فيها بيانُ شدةِ القيامِ وطولِهِ بين يدي عالمِ السرِ وأخفىٰ للحسابِ والجزاءِ؛ لأن اللهَ وصفَ يومَه بأنه عظيم، وقد جاء عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ: (يَقُومُونَ حَتَّىٰ

(١) أخرجه الترمذي ح رقم (٢٧٥٥)، وابن أبي شيبة ح رقم (٢٥٥٨٢) والطبراني في المعجم الكبير ح رقم (٨١٩) وصححه الألباني.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٨/ ١٩).

www.Quranonlinelibrary.com

يَبْلُغَ الرَّشْحُ آذَانَهُمْ)(١).

وجاء في صحيح مسلم عن الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّىٰ تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ). قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِىٰ مَا يَعْنِىٰ بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِىٰ تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: (فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا). قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَىٰ فِيهِ(٢)، وفي بعضِ الأخبارِ أن العرقَ يذهبُ في الأرض سبعين ذراعًا والله أعلم.

٢١. تفيدُ أن القيامَ بحدودِ اللهِ وفرائضِه وتركِ محرماتِه يخففُ شدةَ ذلك القيامِ في الموقفِ العظيم يومَ يقومُ الناسُ لرب العالمين.

٢٢. تفيدُ أنه ينبغي للمسلمِ أن يعدَّ لذلك الموقفِ عدتَه، بطولِ القيامِ بعبوديتِه في الدنيا كما قال تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٢٣. تفيدُ أن التعبيرَ عن اللهِ تعالىٰ بوصفِ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يورث الهيبة والإجلال، فهو لاستحضارِ عظمتِه بأنه مالكُ أصنافِ المخلوقاتِ القائمةِ بين يديهِ للحساب.

٢٤. تفيدُ عظمةَ اللهِ تعالىٰ حيثُ يجمعُ الخلائقَ خاشعين ذليلين

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم ٥٣٨٨، وإسنادُهُ صحيحٌ علىٰ شرط مسلم، رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشيخين غيرَ حماد بن سلمة فمن رجالِ مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيم أهلها، بَابٌ: فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَىٰ أَهْوَالِهَا، ح رقم (٢٨٦٤).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

للحسابِ والجزاءِ، وليحاسبَهم علىٰ كلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

٢٥. تفيدُ كمالَ علمِ الله المحيطِ بالدقيقِ من الأمورِ المتعلقةِ بالمكاييل والموازين، فإن الشيءَ كلّما كان أحقرَ وأصغرَ كان العلمُ الواصلُ إليه أعظمَ وأتم.

٢٦. تفيدُ كمالَ عدلِ اللهِ تعالىٰ حيثُ انتصفَ للمظلومِ من الظالمِ بسببِ ذلك القدرِ الحقيرِ الطفيف.

٢٧. فيها بيانٌ لعظمةِ هذا الدين، وشموليةِ منهجِه للحياة، وسعيِه لإقامتِها علىٰ أسسِ العدل والخلقِ القويم، وما ينبغي أن يكونَ عليه المسلمُ من صدقِ المعاملة، وتركِ الانانيةِ والجور، وأن يرضىٰ لأخيهِ المسلمِ ما يرضاه لنفسه.

٢٨. تفيدُ ارتباط الدنيا بالآخرة، فالتطفيف من المعاملات الدنيوية مربوط عذابه بالآخرة.

٢٩. تفيدُ شموليةَ الدين علىٰ العقائدِ والأخلاقِ والعبادات والمعاملات.

٣٠. تفيدُ الردَ علىٰ العلمانيين الذين يفصلون الدنيا عن الدين.

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ختمَ تعالىٰ سورةَ الانفطارِ ببيانِ مصيرِ السعداءِ والأشقياءِ، وأبلغَ في التهديد بيومِ المعاد، وأنه لا أمرَ ولا قضاءَ لأحدٍ معه جلَّ وعلا، وكان أعظمُ ما يدورُ بينَ العبادِ المقادير، وكانت المعصيةُ بالبخسِ فيها من أخسِّ المعاصي وأدناها، حذرَ من الخيانةِ فيها، وذكرَ ما أعدَّ لأهلِها، فقال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، ثم فسرَه تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾، ولما ذكرَ سبحانه وتعالىٰ أنهم أدمنوا علىٰ هذه الرذائلِ حتىٰ صارت لهم خلقًا مرنوا عليه وأَنَسوا به وسكنوا إليه، وكان ذلك لا يكون إلا ممن أنكرَ الحسابَ، أو تغافلَ عنه مع إيمانهِ به، أنكر عليهم بأبلغِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الوجوهِ، بما يبينُ أن حالَهم أهلٌ لأن يُتعجبَ منه ويُستفهَم عنه، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ولما عظمَ ذلك اليومَ تحذيرًا منه، ذَكَرَ بأعظمِ ما يقعُ فيه، وهو قيامُ العبادِ خاشعين ذليلين لفصلِ القضاءِ فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لأجلِّ حكمِ موجدِ الخلائقِ ومربيهِم كلِّهم فلا ينسىٰ أحدًا من رزقِه، ولا يهمله من حكمِهِ، ولا يرضىٰ بظلمِ أحدٍ ممن يربيهم.

رابعًا: التساؤلات التدبرية:

لماذا كان الاقتصار علىٰ قوله: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟﴾ دون أن يقول: وإذا اتَّزنوا كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؟ قيل: اكتفاء بذكر الوزن في الثاني تجنبًا لفعل: (اتزنوا) لقلة دورانه في الكلام فكان فيه شيء من الثقل. ولنكتة أخرىٰ وهي: أن المطففين هم أهل التجارة، وهم يأخذون السلع من الجالبين في الغالب بالكيل؛ لأن الجالبين يجلبون التمر والحنطة ونحوهما مما يكال ويدفعون لهم الأثمان عينًا بما يوزن من ذهب أو فضة مسكوكين أو غيرَ مسكوكين، فلذلك اقتُصر في ابتياعهم من الجالبين علىٰ الاكتيال نظرًا إلىٰ الغالب، وذكر في بيعهم للمبتاعين الكيل والوزن لأنهم يبيعون الأشياء كيلًا ويقبضون الأثمان وزنًا. وفي هذا إشارة إلىٰ أن التطفيف من عمل تجارهم؛ ولأنهم يتمكنون في الاكتيال من المبالغة في استيفاء المؤدي إلىٰ الزيادة ما لا يتمكنون من مثله في الاتزان، وهذا بخلاف الإخسار فإن التمكن بسببه حاصل في الموضعين فلذلك ذكرهما فيه[1].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩١).

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الثاني

بيانُ جوانبَ من عاقبةِ الفجارِ المكذبين في يوم الدين

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

[المطففين: ٧ - ١٧].

أولًا: معاني الكلمات:

١. كَلَّآ: كلمةٌ تقال للردعِ والزجرِ والتنبيهِ؛ كأنه يقول: ليس الأمرُ كما تزعمون أيها المطففون المكذبون إنه لا دقةَ في الحسابِ، أو إن مثلَ هذا لا يكتبُ ولا يحاسبُ عليه، فارتدعوا.

٢. كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ: فيه قولان، أحدُهما: أنه كتابُ الأعمالِ، والآخرُ أنه أرواحُ الكفارِ، والأظهرُ هو الأول.

٣. ٱلْفُجَّارِ: شاملةٌ لكلِّ فاجرٍ من الكافرين، والمنافقين، والفاسقين.

٤. لَفِى سِجِّينٍ: السجينُ المكانُ الضيقُ الضنك، فهو: فعيلٌ من السجنِ، وهو الضيق، فهو يجمعُ الضيقَ والضنكَ والسفول، وقيل: هو موضعٌ في

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

أسفلِ الأرضِ السابعةِ فيه ديوانُ كتبِ الفجار، وبه أرواحُ الأشقياءِ عامة[١].

٥. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾: استفهامٌ للتهويلِ والتعظيم.

٦. ﴿مَّرۡقُومٞ﴾: المكتوبُ كتابةً بينةً تشبه الرقمَ في الثوبِ المنسوج، فهو مسطورٌ فيه أعمالُهُم، مفروغٌ منه، لا يستطيعُ أحدٌ أن يَزيدَ فيه، أو ينقصَ منه.

٧. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾: أي الهلاكُ والدمارُ إذا صاروا يومَ القيامةِ إلىٰ ما أعدَّه اللهُ لهم من العذابِ المقيم.

٨. ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي لا يصدقون بوقوعهِ، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمرَه.

٩. ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي يومُ القيامةِ الذي هو يومُ الحسابِ والجزاء، الذي يدينُ فيه كلُّ إنسانٍ لعمله.

١٠. ﴿مُعۡتَدٍ﴾: أي ظالمٌ مضيعٌ لحقوقِ ربهِ تعالىٰ وحقوقِ غيرِه، متجاوزٌ لحدودِ الله.

١١. ﴿أَثِيمٍ﴾: كثيرُ الآثامِ والانهماكِ في المعاصي.

١٢. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: جمعُ أسطورةٍ، وهي القصةُ، والأكثرُ أن يرادَ به: القصةُ المخترعةُ التي لم تقع، وكان المشركون يقولون في قصصِ القرآن أنها مما سطرَه الأولون من الأباطيلِ والكذبِ التي لا تصحُ، وإنما تروىٰ للتسلية.

١٣. ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: يرادُ بهم الأممُ السابقةُ؛ لأن الأولَ يطلقُ علىٰ السابقِ علىٰ وجهِ التشبيه، بأنه أولٌ بالنسبةِ إلىٰ ثانٍ بعده، وإن كان هو قد سبقتَه أجيال.

١٤. ﴿رَانَ﴾: أي غطىٰ وغشىٰ قلوبَهُم وحجبَها عن قبولِ الحق، وأن يدخلَها فهمُ القرآن، والبونُ شاسِعٌ بينه وبين أساطيرَ الأولين، والرانُ أصلُه

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٣٧٧).

www.Quranonlinelibrary.com

الصدأ الذي يغطي حديدَ السيفِ، ولما فيه من معنىٰ التغطيةِ جاءَ منه فعلُ رانَ بمعنىٰ غطىٰ.

١٥ . ﴿قُلُوبِهِم﴾: القلوب: العقولُ ومَحالُّ الإدراك.

١٦ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ﴾: أي من الذنوبِ والآثام

١٧ . ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾: لممنوعون، يحالُ بينَهم وبين رؤيةِ الربِ إلىٰ يوم القيامة.

١٨ .﴿لَصَالُوا۟ ٱلۡجَحِيمِ﴾: لداخلُوها وذائقو حرِّها؛ لأن ﴿لَصَالُوا۟﴾ جمعُ صال، وهو الذي مسَّه حرُّ النارِ.

١٩ . ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: أي يقالُ لهم توبيخًا وخزيًا لهم، وهم في العذابِ هذا الذي كانوا به يكذبون؛ ولهذا يقولون: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

ثانيًا: المناسبة بين الآيات:

ما زالَ السياقُ في التحذيرِ من الظلمِ والفِسْقِ عن أوامرِ الربِّ تباركَ وتعالىٰ، خاصةً ما كانوا عليه من التطفيفِ والغفلةِ عن البعثِ والحساب، ففي الوقتِ الذي لا يظنون أنهم مبعوثون يؤكدُ القرآنُ أن لهم كتبًا تحصىٰ فيها أعمالُهُم، ويُحددُ الله تعالىٰ موضعَهُ زيادةً في التوكيدِ، ويتوعدَهُم بالويلِ في ذلك اليومِ الذي تعرضُ فيه كتابُهُم المرقومة، فقولُه تعالىٰ ﴿كَلَّآ﴾ فهي ردعٌ وتنبيهٌ لهم عما كانوا عليه من التطفيفِ والغفلةِ عن البعثِ والحساب، أي ليس الأمرُ كما يظنُّ المطففون والباخسون للحقوقِ أنه لا دقةَ في الحسابِ، أو أن مثلَ هذا لا يكتبُ ولا يحاسبُ عليه، فبينَ أنه يكتبُ ويثبتُ ويوضعُ في موضعٍ يسمىٰ سجين.

www.Quranonlinelibrary.com

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. فيها ﴿كَلَّآ﴾ ردٌ وزجرٌ للكافرين المكذبين الغافلين بيومِ الدين، بأنه الكائنُ حقًا، تكتبُ له الكتب، وتحفظُ من أجلهِ الدواوين.

٢. فيها الوعيدُ الشديدُ للفجارِ عمومًا بعدَ وعيدِه جلَّ وعلا للمطففين، وبيانُ سوءِ مصيرِهم مع ما فيه من تعريضٍ وتهديدٍ للمطففين بأن يكونَ عملُهُم موجِبًا لكتابته في كتابِ الفجار.

٣. فيها بيانٌ للمكانِ الضيقِ السافلِ الذي تحفظُ فيه كتبُ أعمالِ الفجارِ وأرواحُهم ليومِ الحساب، وهو موضعٌ أسفلُ الأرضِ السابعة، وهو مستودعٌ لكتبِ أعمالِ الفجارِ الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

٤. تفيدُ أن خبرَ كتابِ الفجارِ مما لم يكن يعلَمُه النبيُّ ﷺ ولا قومُهُ قبلَ نزولِ الوحي، وإنما جاء علمُهُ بالوحي، ولهذا قالَ تعالىٰ مهولًا من أمرِه وعلمِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

٥. تدلُّ علىٰ أن أمورَ الآخرةِ أكبرُ مِنْ أن تحيطَ بها مداركُ العباد، وأن تصلَ إليها عقولُهُم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

٦. فيها بيانُ خساسةِ منزلةِ الكفارِ وهوانِها حيثُ وضعت كتبُهُم وأرواحُهُم في مكانٍ ضيقٍ سافلٍ ضنك.

٧. تفيدُ أن أعمالَ الكفارِ مكتوبةٌ مثبتةٌ عليهم كالرقمِ في الثوبِ، لا يُبلىٰ ولا يُمحىٰ حتىٰ يجازوا به ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

٨. فيها ما يدلُ علىٰ الفصلِ بينَ كتابِ الفجارِ وكتابِ الأبرارِ، ومصيرِهما بعدَ الموتِ مباشرة، كما قال تعالىٰ عن مصيرِهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٥-٦].

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٩. تشيرُ إلىٰ سوءِ عاقبةِ الكفارِ؛ لأنه إذا كانت كتابُهُم في سجنٍ عظيمٍ ضيقٍ كانوا هم في أعظمِ سوءٍ منه، فإنهم يكونون في غايةِ الخسارةِ؛ لأنه يقالُ لكلِّ من انحط: صار ترابًا ولصقَ بالأرضِ ونحو ذلك.

١٠. تدلُّ علىٰ سوءِ عاقبةِ المكذبين الشديدةِ في الآخرة، حيثُ توعدَهُم اللهُ تعالىٰ بالويلِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وهو وعدٌ مفتوحٌ في العذاب.

١١. فيها بيانُ قبحِ وخطورةِ التكذيبِ بيومِ الجزاءِ والحساب الذي أقامَ اللهُ تعالىٰ الأدلةَ القاطعةَ علىٰ صدقهِ لكلِّ صاحبِ عقلٍ سليم، ولهذا بعدَ ما توعدَ المكذبين عمومًا، علقَ وعدَه بالمكذبين به خصوصًا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

١٢. تفيدُ أن تسميتَه بيومِ الدينِ يدلُّ علىٰ أن كلَّ إنسانٍ يدينُ في ذلك لعملهِ، شرًا كان أو خيرا.

١٣. فيها بيانُ صفاتِ المكذبين بيومِ الدين في كلِّ زمانٍ ومكان، وهو متمثلٌ في الظلمِ والتعدي علىٰ الحدودِ والحقوق، مع كثرةِ الإثمِ والفسوق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

١٤. تفيدُ أن المكذبين بيومِ الدين لما جهلوا حكمةَ اللهِ من شرعهِ الذي جاءَ بما فيه صلاحُ العبادِ، ونهاهم عما فيه فسادُهم، وحكمتَه من بعثِهم ليجزَي كلَّ عاملٍ بعمله، ولو أهملَهم بدونِ هديهِ لضلوا، ولو تركَ جزاءَهم لظلموا وأفسدوا، بين لنا هنا كيف كان عاقبةُ المكذبين من الفسادِ العريض، بما يشيرُ لحكمتهِ ورحمتهِ وعدلهِ من خلال أمرِهم وبعثِهم.

١٥. تفيدُ التنفيرَ عن تجاوزِ حدودِ اللهِ وارتكابِ محارمه، والتلبسِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

بالمعاصي والذنوب؛ لأن ذلك ليس من صفاتِ المؤمنين، بل هو من صفاتِ الكافرين المكذبين بيومِ الدين، والمؤمنُ عكسُ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ – ٦١].

١٦. تفيدُ أن التكذيبَ بيومِ الجزاءِ هو منشأُ الإقدامِ علىٰ السيئاتِ والجرائم، ولذلك أعقبَه بقولِه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٧. تفيدُ التحذيرَ من الاعتداءِ، وهو التجاوزُ عن المنهجِ الحق، فالهدايةُ في معرفةِ الحقِ، والعملِ به، وعدمِ تجاوزه.

١٨. تفيدُ الزجرَ من المبالغة في ارتكاب الإثمِ والمعاصي، والاشتغالِ بالشهوةِ التي يكونُ صاحبُها أثيمًا، قلما يتفرغُ للعبادةِ والطاعة، وربما صارَ ذلك مانعًا له عن الإيمانِ بالقيامة.

١٩. تفيدُ موقفَ المكذبين بيومِ الدين من آياتِ اللهِ الدالةِ علىٰ الحق، وعلىٰ صدقِ ما جاءَ به الرسولُ الكريم، وعلىٰ صدقِ البعثِ والنشور، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٠. تفيدُ أهميةَ تلاوةِ القرآن وإسماعهِ للكافرين وإن كذبُوا به وأعرضوا عنه، وإيصالُ معانيهِ وحججهِ إليهم، لعلَّهُم يهتدون، ونكونُ قد أعذرَنا إلىٰ اللهِ تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]، وهي من السننِ المهجورةِ، نسألُ اللهَ العفوَ والعافية.

٢١. فيها بيانُ تعجلِ الكافرِ في التكذيبِ بالقرآن، فمجردُ ما تتلىٰ عليه

من غيرِ توقفٍ ولا تأملٍ بل بمسارعةٍ قالَ: إنها أساطيرُ الأولين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٢. تفيدُ أن المعاصيَ والذنوبَ تقودُ إلىٰ سوءِ الأدبِ مع كتابِ اللهِ تعالىٰ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٣. تفيدُ أن الكفارَ لإعراضِهم لم تنفعهم شواهدُ النقل، كما لم تفدْهم دلائلُ العقل.

٢٤. تفيدُ أن الذنوبَ والمعاصيَ إذا استكثرَ منها العبدُ أحاطت بقلبهِ فحجبتْه عن نورِ الحق ومعرفةِ الهدىٰ والانقيادِ له، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

٢٥. تفيدُ أن مواصلةَ الذنوبِ وعدمَ التوبةِ منها تؤدي إلىٰ حرمانِ العبدِ من التوبة، فإنها تغطي علىٰ القلبِ شيئا فشيئا، حتىٰ ينطمسَ نورُه، وتموتَ بصيرتُهُ، فتنقلبُ عليه الحقائق، فيرىٰ الباطلَ حقًا، والحقَّ باطلًا، وهذا من بعضِ عقوباتِ الذنوب، وهي من أشدها والعياذ بالله.

٢٦. تفيدُ مصيرَ الكفارِ الفجارِ المكذبين بالبعثِ وآياتِ اللهِ حيثُ ذكرَ لهم ثلاثةَ أنواعٍ من العذاب، الحجبُ من رؤيةِ المولىٰ الكريم، وصُلوُّ الجحيم، والتوبيخُ واللومُ العظيم لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

٢٧. تدلُّ علىٰ حِرمانِ الكفارِ من النظرِ لوجهِ اللهِ الكريم، أي: من السعادةِ الكبرىٰ التي لا تتاحُ للكافرين ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

٢٨. تدلُّ علىٰ أن المؤمنينَ لا يُحجبون عن رؤيةِ ربهم يومِ القيامةِ وفي الجنة، بل يرونَه حقًا بأعينِهم، ويتلذذون بالنظرِ إليه أعظمَ من سائرِ اللذات،

www.Quranonlinelibrary.com

ويبتهجون بخطابهِ، ويفرحون بقربهِ، بدليلِ قولهِ ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي الأشقياءُ، إذًا فالسعداءُ غيرُ محجوبين، فهم يرون ربَّهم، كما ذكرَ اللهُ ذلك في عدةِ آياتٍ من القرآن، وتواترَ فيه النقلُ عن رسولِ الله ﷺ، قال مالكُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما حجبَ اللهُ الفجارَ عن رؤيتهِ دلَّ أنه ليتجلىٰ للمؤمنين حتىٰ يروه»[1]؛ لأن حجبَهم كان من بابِ العقوبةِ، ويظهرُ لآخرين كرامةً لهم، قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما أن حجبَ هؤلاء في السخطِ كان في هذا دليلٌ علىٰ أن أولياءَه يرونه في الرضىٰ»[2].

٢٩. تفيدُ أن المؤمنَ عاصيًا كان أو مطيعًا لا يُحجبُ عن رؤيتهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الآيةَ خصت الحجبَ بالكفارِ المكذبين، والعاصي لم يكذب.

٣٠. تفيدُ أن عذابَ الحجابِ من ربِّ العالمين، المتضمنَ لسخطهِ وغضبهِ عليهم، هو أعظمُ عليهم من عذابِ النار، ولهذا قدمَه، كما أن أعظمَ نعيمٍ لأهلِ الجنةِ رؤيتُهُ جل في علاه.

٣١. تفيدُ أن من حَجَبَ قلبَه في الدنيا عن الحقِّ، حُجِبَ في الآخرةِ عن كلِّ خيرٍ ومن أعظمهِ رؤيةُ وجهِ اللهِ الكريم، قال ابنُ الفضل رَحِمَهُ اللَّهُ: «حجبَهم في الدنيا عن توحيدِه وحجبَهم في الآخرةِ عن رؤيته»[3].

٣٢. تفيدُ أن التقريعَ للكفارِ يكونُ من خزنةِ النار، ومن أهلِ الجنة، ومن غيرِهم؛ لأنه لا منعةَ عندهم، ولذا جاءَ بناءُ الفعلِ للمفعول: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٠٤).

(٢) أحكام القرآن، للشافعي (١/ ٤٠).

(٣) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٣٦٦).

www.Quranonlinelibrary.com

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما عظمَ تعالىٰ في الآياتِ السابقةِ يومَ الدينِ تحذيرًا منه، واستعدادًا له، وزجرًا عن التطفيفِ بتعظيمِ إثمه، بينَ أنَّه في الوقتِ الذي لا يوقنون بالبعثِ الذي لو أيقنوا به ما وقعوا في ظلمِ عباده، أن هنالك كتبًا تحصي أعمالَهُم لذلك اليوم، وحددَ موضعَ حفظهِ زيادةً في التأكيدِ، فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾، ثم زادَ في هولهِ بالإخبارِ بأنه أهلٌ لأن يسألَ عنه، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، ولما أتمَّ ما أرادَ من وصفهِ، أعرضَ عن بيانهِ إشارةً إلىٰ أنه من العظمةِ بحيثُ إنه يكلُّ عنه الوصف، استأنفَ أمرَ الكتابِ المسجونِ فيه فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي مسطورٌ بينُ الكتابةِ، وهو كالرقمِ في الثوبِ والنقشِ في الحجر لا يُبلىٰ ولا يُمحىٰ. ولما أعلمَ بما للكتابِ من الشرِ، استأنفَ الإخبارَ بما لأصحابهِ من الويلِ فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾. ولما أخبرَ عن تكذيبِهم إجمالًا، بينَ ما كذبوا به تفصيلًا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ثم بينَ صفاتِ المكذبين فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ولما كانَ قولُهُم في القرآنِ في غايةِ البطلان قال رادعًا لهم ومكذبًا ومبينًا لما أدىٰ به إلىٰ هذا القول وهم لا يعتقدونه: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ولما بين ما حجبهم عن نورِ الحقِ في الدنيا، بيان ما يترتبَ عليه من حجبِهم عن الحقِ جل وعلا في الآخرة فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾، ولما بينَ ما لهم من العذابِ بالحجابِ الذي هو عذابُ القلبِ الذي لا عذابَ أشدَّ منه، لأنه يتفرعُ عنه جميعُ العذاب، شرعَ يبينُ بعضَ ما تفرعَ عنه من عذابِ البدنِ معبرًا بأداة التراخي إعلامًا بعلوِ رتبتهِ في أنواعِ العذاب فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي لداخلوا النارَ العظمىٰ، ويقيمون فيها مقاسون لحرِها، ويغمسون

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فيها كما تغمسُ الشاةُ المصلية، أي المشوية، ولما بينَ ما لهم من الفعلِ الذي هو للقلبِ والقالب، أتبعَه القولَ بالتوبيخِ والتبكيتِ الذي هو عذابُ النفس، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقالُ لهم تبكيتًا وتقريعًا وتنديمًا وتبشيعًا.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الثالث
بيانُ بعضِ نعيمِ الأبرارِ المصدقين في يومِ الدين

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢٨].

أولًا: معاني الكلمات:

١. كِتَٰبَ: صحائفُ أعمالهم.

٢. ٱلۡأَبۡرَارِ: جمعُ بَرٍّ بفتحِ الباء أو بارٍّ، وهو الذي يعملُ البِرَ، وهو المؤمنُ الذي برَّ ربَه بطاعتهِ في أداءِ فرائضهِ واجتنابِ نواهيه، وكان صادقًا في ذلك، وهو خلافُ الفاجر.

٣. عِلِّيِّينَ: مشتقٌّ من العلوِ، وهو للمبالغةِ في الوصفِ، جاء علىٰ صورةِ جمعِ المذكرِ السالم؛ لأنه من الأسماءِ التي ألحقت بجمعِ المذكرِ السالمِ علىٰ غيرِ قياس، لأنه لا وَاحدَ له من لفظِه، وعلِّيّون عَلَمٌ بالغلبةِ لمحلِ الأبرار في الجنّة، وقيل: هو علمٌ لديوانِ الخيرِ الذي تحفظُ فيه أعمالُ الصالحين في

www.Quranonlinelibrary.com

السماءِ السابعة، وفيها أرواحُ المؤمنين(١). قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني ارتفاعًا بعدَ ارتفاعٍ لا غايةَ له، وقال الزجاجُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعلىٰ الأمكنة، وقال آخرون هي: مراتبُ عاليةٌ محفوظةٌ بالجلالةِ قد عظمَها اللهُ وأعلىٰ شَأنَها»(٢).

٤. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾: هذا تعظيمٌ لشأنها.

٥. ﴿يَشۡهَدُهُ﴾: يحضرُه ويشاهدُه.

٦. ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾: الملائكة، وقيل: يشهدُه مقربو كلِّ سماءٍ.

٧. ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ بوزنِ سفينة، وهي الأسرةُ التي في الحجالِ. أي: السررُ المزينةُ المزخرفةُ بالفرشِ الحسانِ الناعمةِ، الحسنةِ البهية.

٨. ﴿يَنظُرُونَ﴾: إلىٰ صنوفِ النعيمِ الذي أعلاه رؤيةُ الباري الكريم.

٩. ﴿نَضۡرَةَ﴾: بهجةُ النعيمِ وحسنِها وبهائِها، من أنضرَ النبات، وإضافةُ (نضرة) إلىٰ (النعيم) من إضافةِ المسببِ إلىٰ السبب.

١٠. ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾: أي بأيدي الخدام.

١١. ﴿رَّحِيقٖ﴾: وفي الرحيقِ ثلاثةُ أقوالٍ: الأولُ قيل: الخمرُ، ثم اختلفوا في وصفِها فقيل: التي لا غشَ فيه ولا شيءَ يُفسدُه. وقيل: أجودُ الخمر، وقيل: الخمرُ البيضاء، وقيل: العتيقة. والثاني: قيل: إنه عينٌ في الجنةِ مشوبةٌ بالمسك، والقول الثالث: قيل: أنه الشرابُ الذي لا غشَ فيه(٣).

١٢. ﴿مَّخۡتُومٍ﴾: الذي له ختمٌ علىٰ إنائه.

١٣. ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾: آخرُ طعامِهِ وعاقبتِهِ تفوحُ برائحةِ المسك، وقيل: أن

(١) انظر: جامع البيان (٢٤/ ٢٩١)، والنكت والعيون (٦/ ٢٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٨).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٨٢/ ٧).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

خَتْمَه الذي يختمُ به الإناءُ مسك.

١٤ . مِسۡكٞۚ : والمِسكُ مادةٌ حيوانيةٌ ذاتُ عَرْفٍ طيبٍ مشهورٍ بطيبِهِ وقوةِ رائحتِهِ منذُ العصورِ القديمة، وهذه المادةُ تتكونُ في غُدّةٍ مملوءةٍ دَمًا تخرجُ في عنقِ صنفٍ من الغزال.

١٥ . وَفِي ذَٰلِكَ : أي لا في غيرِه.

١٦ . فَلۡيَتَنَافَسِ : أي: فليرغبُ الراغبون. والتنافسُ: إظهارُ شدةِ الطلب، وقيل: المسابقةُ إلىٰ التحصيل، قال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصلُهُ من الشيءِ النفيسِ الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناسِ فيريدُهُ كلُّ واحدٍ لنفسهِ وينفسُ به علىٰ غيرِه، أي يضن به، وهو من قبيلِ الاشتقاقِ من الشيءِ النّفيس، وهو الرفيعُ في نوعهِ المرغوبُ في تحصيله»(١).

١٧ . وَمِزَاجُهُۥ: ما يمزجُ به.

١٨ . تَسۡنِيمٍ: علمٌ لعينٍ في الجنةِ يشربُها المقربون صرفًا، وتمزجُ لأصحابِ اليمين مزجًا، منقولٌ من مصدرِ سنَّمَ الشيءَ إذا جعلَه كهيئةِ السِّنام. ووجه هذه التسميةِ أن هذه العينَ تصبُّ علىٰ جنانِهم من علوٍّ، فكأنها سَنامٌ فهي عينٌ رفيعةٌ معنىٰ وحسا؛ وذلك لأن أنهارَ الجنةِ تفجرُ من الفردوسِ الذي هو أعلىٰ الجنةِ ووسطِها وفوقِها.

١٩ . ٱلۡمُقَرَّبُونَ: هم الأبرار، أي: فالشاربون من هذا الماء مقربون.

ثانيًا المناسباتُ بين الآيات:

لما ذكرَ تعالىٰ كتابَ الفجارِ، وحالَهم، ومصيرَهم، أتبعَه بذكرِ كتابِ

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٣٦٨).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الأبرارِ، وحالِهم، ومصيرِهم، فهي مقابلة بين حال الفجار والأبرار؛ وفي ذلك مزيدُ تنديمٍ وتحسرٍ للذين أنكروا البعثَ، وضيعوا فرصَ السعادةِ، وبدأ بهم لأن الخطابَ في السورةِ أصلُهُ للمطففين والفجارِ والمجرمين.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ بيانَ محلِ كتابِ الأبرارِ ومصيرُهم، بعدَ بيانِ مكانِ كتابِ الفجارِ ومصيرِهم ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

٢. تشيرُ بأن التطفيفَ فجورٌ، والإيفاءَ برٌ، ولذلك عقبَ به بعده.

٣. تفيدُ أن ارتفاعَ كتابِ الأبرارِ يدلُ علىٰ علو درجاتِ أهلِهِ في الجنة؛ لأن العلوَ والفُسحةَ والضياءَ والطهارةَ من علاماتِ السعادة، والسُفلَ والضيقَ والظلمةَ من علاماتِ الشقاوة، فلما كان المقصودُ من وضعِ كتابِ الفجارِ في أسفلِ السافلين وفي أضيقِ المواضعِ إذلالَ الفجارِ وتحقيرَ شأنِهم، كان المقصودُ من وضعِ كتابِ الأبرارِ في أعلىٰ عليين، وشهادةِ الملائكةِ لهم بذلك يفيدُ إجلالَهم وتعظيمَ شأنِهم.

٤. تفيدُ أن القرآنَ مثاني فلما ذكرَ أن كتابَ الفجارِ في أسفلِ الأمكنةِ وأضيقِها، بما يدلُ علىٰ الإهانةِ ذكرَ أن كتابَ الأبرارِ في أعلاها وأوسعِها وأفسحِها بما يدلُ علىٰ الكرامةِ، ليقارنَ العاقلُ بين المصيرين والعاقبتين فيختار ما يشاء.

٥. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ لم يدرِ ما عليون حتىٰ أعلمَه الله، فهو أمرٌ فوقَ العلمِ والإدراك، ولا يعلمُ الأنبياءُ من الغيبِ إلا ما يخبرُهم به الوحي ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

٦. فيها بيانُ فخامةِ عليين وكرامتِها حيثُ إنها فوقَ الوصفِ والإدراك،

www.Quranonlinelibrary.com

ويفهمُ ذلك من قولِه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

٧. تفيدُ أن علوَّ الهمةِ والعملِ يؤدي إلىٰ علوِّ الكتابِ والروحِ والنفسِ في الآخرة والعكسُ بالعكس.

٨. تدلُّ علىٰ كرامةِ وشرفِ وطهارةِ كتابِ الأبرارِ إذ جعلَه موضعَ مشاهدةِ المقربين، ومتعتَهم لما فيه من جميلِ الأفعالِ والصفات ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

٩. تفيدُ أن اللهَ يكرمُ كتابَ الأبرار، وينوهُ بذكرِ أصحابِهِ في الملأ الأعلىٰ، ويحتفىٰ به عندَ صعودِه، فـ ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكةِ الكرام، وأرواحِ الأنبياء، والصديقين والشهداء، اعتناءً به، وإظهارًا لكرامةِ صاحبِهِ ومنزلتهِ عندَ ربهِ.

١٠. تفيدُ أن مشاهدةَ المقربين لكتابِ الأبرار لما كانت تسرُّهم نوه الله بذكرها هنا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ (الحاقة: ١٩).

١١. تفيدُ الثناءَ علىٰ الأبرارِ، وبيانُ ما أعدَّ اللهُ تعالىٰ لهم، وهم المؤمنون المتقون الصادقون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

١٢. تفيدُ أن ذكرَ الأبرارِ بالاسمِ الظاهر دون ضميرِهم. خلافًا لما جاء في جملة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥) تنويهًا بوصفِ الأبرار.

١٣. تفيدُ أن أهلَ الجنةِ في نعيمٍ كاملٍ شاملٍ لنعيمِ القلبِ والروحِ والبدن؛ لأن اللهَ تعالىٰ أطلقَ النعيمَ ولم يقيده، ونعيمُ البدنِ تحدثَ عنه القرآن بما لا يحيطُه الوصف، ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ

﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وأما نعيمُ القلبِ فيكفيك فيه ما جاءَ في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

١٤. تفيدُ أن أهلَ الجنةِ ينعمون بما ينظرون إلىٰ ما أعدَّه اللهُ لهم من الكراماتِ والنعيمِ في الجنةِ من الحورِ العين، والولدانِ، وأنواعِ الأطعمةِ والأشربةِ والملابسِ والمراكبِ وغيرِها، وينظرون إلىٰ عدوِّهم حين يعذبون في النار، وينظرون لوجهِ ربِهم الكريم، وحذفَ مفعولَ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للدلالةِ علىٰ التعميم، فيجبُ حملُ اللفظِ علىٰ الكلِّ لعدمِ تقييدِهِ بشيءٍ، أي ينظرون كلَّ ما يبهجُ نفوسَهم ويسرُهم، بقرينةِ مقامِ الوعدِ والتكريم: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، قال الإمامُ القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أثبت النظرَ ولم يبينَ المنظورَ إليه لاختلافِهم: منهم من ينظرُ إلىٰ قصورِه، ومنهم من ينظرُ إلىٰ حورِه، ومنهم ومنهم، والخواصُ علىٰ دوامِ الأوقاتِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ ينظرون كما أن الفجارَ دائمًا عن ربِهم محجوبون»(١).

١٥. فيها بيانُ ما فيه أهلُ الجنةِ من الدعةِ في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾، وهو خبرٌ ثانٍ عن الأبرار، أي هم علىٰ الأرائك، متكئون عليها بما يدلُ علىٰ الدعةِ والسعةِ وراحةِ البال، وانشراحِ النفس ونحو ذلك؛ لأنه لما كان لا شيءَ أنعمُ للإنسانِ من شيءٍ عالٍ يجلسُ عليه، ويمدُ بصرَه إلىٰ ما يشتهي مما لذَّ، قال مبينًا لذلك النعيم: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي: ليس لهم شغلٌ غيرُ ذلك، وما شابهه من المستلذات.

١٦. تفيدُ أنهم ينظرون باستحسانٍ وإعجابٍ لملكِهم الكبير الذي

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٦٢).

www.Quranonlinelibrary.com

ملكَهم اللهُ تعالىٰ، وقد يمتدُ مسافةَ ألفي سنة، وما ينتهي إليه بصرُهُم، فـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ فهي تفيدُ سعتَه وكثرتَه وامتدادَه وجمالَه، ولهذا لا يريدُ النظرُ أن يتحولَ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

١٧. تفيدُ أن نعيمَ الجنةِ ينعكسُ علىٰ وجوهِ أهلِها نورًا وحسنًا وبهجةً وسرورًا، قال تعالىٰ: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

١٨. تفيدُ أن تواليَ اللذاتِ والمسراتِ والأفراحِ يكسبُ الوجهَ نورًا وحسنًا وبهجة.

١٩. تفيدُ أن نعيمَهم بيِّنٌ بحيثُ يعرفُه كلُّ راءٍ، فهو لا يختصُّ برؤيتِهِ راءٍ دون آخر، وهذا يدلُ علىٰ عظمةِ نعيمِهم ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٢٠. تفيدُ أن سعادة الحالِ وشقاءه في الآخرةِ تظهرُ علىٰ الوجوهِ بصورةٍ كبيرةٍ. قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النضرةُ في الوجه، والسرورُ في القلب»(١).

٢١. تفيدُ أن اللهَ تباركَ وتعالىٰ يزيدُ في جمالِ أهلِ الجنة، وفي ألوانِهم وبشرتِهم ما يعجزُ عنه الوصف، وعبرَ عنه القرآن إجمالًا بنضرةِ النعيم.

٢٢. تفيدُ أن التعبيرَ بـ: ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ دون: يشربون، للدلالةِ علىٰ أنهم مخدُومون يخدمُهم الخدامَ في الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ [الإنسان: ١٩]. وذلك من تمامِ الترفِ والراحة.

٢٣. فيها بيانُ عظم خمرِ الجنةِ وطيبِها، ﴿مِن رَّحِيقٖ﴾، ولهذا قال تعالىٰ عنها: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٣٦٧).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦ - ٤٧].

٢٤. فيها بيانٌ لعظمةِ ذلك الشرابِ في قولِه تعالىٰ: ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ بما يدلُ علىٰ مستوىٰ الحفظِ والعنايةِ، والقيمةِ للشراب، فهو مختومٌ عليه، فلا يدخلُه شيءٌ ينقصُ لذتَه، أو يفسدُ طعمَه، وكذلك يدلُ الختمُ علىٰ عظمتِهِ؛ لأن الختمَ لا يكون إلا لما عظمت رتبتُه وعزت نفاستُه. قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحتملُ أن هؤلاء يسقون من شرابٍ مختومٍ قد ختَم عليه تكريمًا له بالصيانةِ علىٰ ما جرت به العادة من ختمِ ما يكرمُ ويصان»[(١)].

٢٥. تفيدُ أن شرابَ أهلِ الجنةِ لا يفتحُه إلا شاربه، وأنه يكونُ علىٰ قدرِ كفايتِهِ فيشربُه كلَّه حتىٰ يصلَ إلىٰ خاتمتِهِ من المسك.

٢٦. فيها بيانُ عظمِ ونفاسةِ شرابِ أهلِ الجنة، وطيبِ رائحتِهِ، ولذتِهِ حيثُ يفوحُ آخرُهُ برائحةِ المسك ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾.

٢٧. تفيدُ أن الشرابَ في الآخرةِ خلافُ ما يكون عليه في الدنيا الذي قد لا يخلو في آخرِه من الكدر.

٢٨. فيها بيانُ عظمةِ ختم ذلك الشراب، ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ حيثُ جعلَ الخاتمُ الذي ختمَ به مسك، وقد قرأ الكسائي (خَاتَمَه) بفتح التاء، أي: ما يختمُ به تعظيمًا وتفخيمًا لشأنِهِ علىٰ القراءة الثانية. قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه أن الذي يختمُ به رأسُ قارورةِ ذلك الرحيقِ هو المسك»[(٢)].

٢٩. فيها بيانُ عظمِ نعيمِ الجنةِ حيثُ بينَ اللهُ أن لمثلِه فليستبقِ المستبقون، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦٠ - ٦١]، وأصلُ التنافسِ التشاجرُ علىٰ الشيءِ والتنازعُ فيه، بأن يحبَّ كلُّ واحدٍ أن يتفردَ به دونَ صاحبه، وأن إيثارَ مادةِ التنافسِ يفيدُ بنفاسةِ هذا النعيم، لأن التنافسَ حصولُ النفاسةِ بين متعدد، والنفيسُ هو الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناسِ وتتغالىٰ فيه.

٣٠. تفيدُ الحثَّ علىٰ السعي للجنةِ، والعملِ لها، و المبالغةِ في طلبها، واتصالِ الرغبة فيها، والتزاحمِ والتنافس عليها، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيمِ المقيم، الذي لا يعلمُ حسنَه ومقدارَه إلا الله، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: يتسابقوا في المبادرةِ إليه بالأعمالِ الموصلةِ إليه، فهذا أولىٰ ما بذلت فيه نفائسُ الأنفاس، وأحرىٰ ما تزاحمت للوصولِ إليه فحولُ الرجال.

٣١. تفيدُ الحثَّ علىٰ المبادرةِ إلىٰ طاعةِ اللهِ ﷻ، والترغيبِ في العملِ الصالح للحصولِ علىٰ نعيمِ الجنةِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ والمنافسةُ في مثل هذا بكثرةِ الأعمال الصالحات والنياتِ الخالصة، مع البعدِ عن الشرك، وسيئِ الأقوالِ، وقبيحِ الأفعال.

٣٢. فيها التزهيدُ في الدنيا والمنافسةُ فيها، والحثُّ علىٰ طلبِها دون ركض، لأن الله تعالىٰ جعلَ المنافسةَ في الآخرةِ دون غيرِها ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: وفي مثل هذا النعيم لا في غيرِه من حطام الدنيا وشرابِها وملكِها الزائل يجبُ أن يتنافسَ المتنافسون، فإن التنافسَ يجبُ أن يكونَ في مثلِ ذلك النعيمِ العظيمِ الدائم لا في النعيمِ الذي هو مكدرٌ سريعُ الفناء.

٣٣. فيها تذكرٌ ومعالجةٌ لما جاءَ في أولِ السورةِ لأولئك المطففين الذين يتنافسون في جمعِ أموالِ الدنيا وعرضِها الزائل، وكلُّ واحدٍ يريدُ أن يسبقَ الآخر، ومن ثم يظلمُ ويفجرُ من أجلِ العرضِ القريب الزهيد، ولا

يتنافسون في طلبِ ذلك النعيمِ المقيم العظيم.

٣٤. تفيدُ أن التنافسَ في أي شيءٍ من حطامِ الدنيا مهما كبرَ وجلَ وارتفعَ فهو حقيرٌ قليل، فإن متاعَ الدنيا قليلٌ محدودٌ زائلٌ، ومتاعُ الآخرةِ لا تحده تصورات البشر، وهو باقٍ دائم، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

٣٥. فيها دليلٌ علىٰ أن المؤمنَ مندوبٌ إلىٰ الرغبةِ في ملاذِ النفوسِ وشهواتِها في الآخرة والسعي في اكتسابِها، وأن التزهيدَ في نعيمِ الجنة نوعٌ من التنطعِ، ومخالفٌ لما دعَا إليه القرآن، في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٣٦. فيها بيانُ عظمةِ العين التي تسمىٰ «تسنيم»، وسميت بذلك لارتفاعِ مكانِها؛ لأنها تأتيهم من فوق، ولرفعةِ شربِها، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أشرفُ شرابِ أهلِ الجنة هو تسنيم»[(١)].

٣٧. تفيدُ أن تسنيمَ عينٌ خاصةٌ خالصةٌ للمقربين، فهم يشربون بتلك العينِ صرفًا محضًا، وأنها تمزجُ للأبرارِ مزجًا كما قال في شراب الأبرار: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، فأخبرَ سبحانه أن مزاجَ شرابِ الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، قال ابن عباس وغيره: يشربُ بها المقربون صرفًا، ويمزجُ لأصحابِ اليمين مزجًا[(٢)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم للإمام الرازي (٢/ ٢٧٢)، والدار المنثور للسيوطي (١٤/ ٢٤٦).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦/ ١٤٣).

www.Quranonlinelibrary.com

٣٨. تفيدُ أن الجزاءَ في الآخرة وفاقُ العملِ، فكما خلصت أعمالُ المقربين كلُّها لله خلصَ شرابُهم، وكما مزجَ الأبرارُ الطاعاتِ بالمباحات مُزجَ لهم شرابُهم، فمن أخلصَ أُخلصَ شرابُه، ومن مزجَ مُزجَ شرابُه.

٣٩. فيها بيانٌ لبلاغةِ القرآنِ عند ما يعدلُ من لفظةٍ لأخرىٰ، فقالَ عن العين: يشرب «بها» المقربون، ولم يقل: «منها»، ليضمن «يشرب» معنىٰ يرویٰ، فعدَّىٰ بالباءَ، وهذا ألطفُ مأْخذٍ، وأَحسنُ معنىٰ من أن يجعلَ الباء بمعنىٰ من، لأن شربَ المقربين لما كان أكملَ استعيرَ له الباءُ الدالةُ علىٰ شربِ الري بالعينِ خالصة، ودلالةُ القرآنِ أَلطفُ وأَبلغُ من أن يحيطَ بها البَشر، والله أعلم.

٤٠. تفيدُ أن الأنهارَ والأعينَ في الجنة متفاوتةٌ في الفضيلةِ، فتسنيمُ أفضلُ عينٍ في الجنة، وهي للمقربين الذين هم أفضلُ أهلِ الجنة.

٤١. فيها تقريرُ عقيدةِ البعثِ والجزاء بذكرِ ما يجري فيها.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما ذكرَ تعالىٰ ما للمكذبين من العذابِ الذي سببُهُ إقبالُهُم علىٰ الدنيا، وعدمُ يقينِهم بالآخرة، أتبعَه بما للأبرارِ المصدقين الذين تركوا المحظورَ قربةً لربِهم، وأقبلوا علىٰ برِه ليقينِهم بلقائهِ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، ولما كان وصفُهُ عظيمًا زادَ في تعظيمِهِ بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، ولما عَظَّمَ المكانَ الذي دلَّ علىٰ عظمةِ الكتاب، أخبر بمزيدِ فضلهِ وعظمتهِ فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، برقم لا يزولُ ما فيه من الأعمالِ الكريمة، فيا له من رقمٍ ما أحسنَه وما أبهاه وما أجملَه. ولما عظَّمَه في نفسهِ، وفي مكانهِ، وفي رقمهِ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عَظَّمَه في شهَّادِه فقال: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، سرورًا وتعظيمًا لصاحبِه من الأنبياءِ والصديقين والشهداءِ والصالحين.

ولما ذكرَ كتابَهم وبجَّله، التفت إلىٰ بيانِ حالِهم ونعيمِهم ومنزلتهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ثم وصفَ كيفيةَ ذلك النعيمِ بأمورٍ ثلاثةٍ أولُها قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، ولما وصفَ نعيمَهم، أخبرَ أنهم من عراقتِهم فيه يعرفُهم به كلُّ ناظرٍ إليهم، فقال ثانيًا: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، ولما كانت مجالسُ الأُنسِ لا سيما في الأماكنِ النضرةِ لا تطيبُ إلا بالمآكلِ والمشارب، وكان الشرابُ يدلُّ علىٰ الأكلِ، قال ثالثًا مقتصرًا عليه: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، ثم ذكرَ اللهُ تعالىٰ لهذا الرحيقِ صفات:

الصفةُ الأولىٰ: أنه مختوم، لقوله: ﴿مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾.

والصفةُ الثانية: أن ختامه مسك لقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، ولما بلغَ وصفُ النعيمِ كمالَه وحسنَه، عطفَ عليه قولَه: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، ولما ذكرَ الشراب، أتبعَه مزاجه بما يدلُّ علىٰ شرفِه، فقال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، ولما عظمَ مزاجَه بيَّن تفاوتَ منازلِ شاربيه، فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فالمقربون يشربون من هذه العينِ صرفًا، والأبرارُ يمزجُ لهم منها، والفرقُ ظاهرٌ، هنيئًا لهم، وجعلنا اللهُ منهم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الرابع
استهزاءِ الكفارِ بالمؤمنين في الدنيا وانعكاسِ الحالِ عليهم يوم القيامة

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا
رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٦].

أولًا: معاني الكلمات:

١. أَجۡرَمُواْ : الإجرامُ مصدرُ أجرمَ إذا ارتكبَ الجرمَ، وهو الإثمُ العظيم، وأعظمُهُ الشركُ والكفر.

٢. يَتَغَامَزُونَ : أي: يغمزُ بعضُهم إلىٰ بعضٍ، ويشيرُ بعينهِ وحاجبهِ إلىٰ المؤمنين استهزاءً بهم واحتقارًا، وقيل: الغمزُ العيب.

٣. ٱنقَلَبُوٓاْ : الانقلابُ: الرجوعُ إلىٰ الموضعِ الذي جيء منه.

٤. أَهۡلِهِمُ : وأهلُ الرجلِ: زوجُه وأبناؤه.

٥. فَكِهِينَ : أي: معجبينَ فرحينَ متلذذينَ بأفعالِهم وذكرِهم والسخريةِ منهم، وقيل: معجبون بما هم عليه من الكفر.

٦. وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ أي: إذا رأىٰ هؤلاء الفكهون المؤمنين.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٧. ﴿لَضَآلُّونَ﴾: والضالُ: من أخطأَ طريقَ الحقِ والرشدِ واتبعَ الباطل.

٨. ﴿حَٰفِظِينَ﴾: موكلين بهم، يحفظون عليهم أحوالَهم، رقباءَ عليهم.

٩. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: أي: يومَ القيامة.

١٠. ﴿ثُوِّبَ﴾: جوزي، يقال: ثوبه وأثابه إذا جازاه.

ثانيًا: المناسباتُ بين الآيات:

لما ذكرَ تعالىٰ جزاءَ المجرمين، وجزاءَ المؤمنين، بما يوضحُ الفرقَ العظيمَ بينهما، ذكرَ بعضَ قبحِ الكافرين في معاملةِ المؤمنين في الدنيا، من ضحكِهم وتغامزِهم وسخريتِهم احتقارًا لهم، وازدراءً بهم، ثم بينَ أن ذلك سينقلبُ عليهم في الآخرة، بما فيه تسليةٌ للمؤمنين، وتقويةٌ لقلوبهم.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ براعةَ الخطابِ القرآني في مخاطبةِ النفوس؛ لأنَّ افتتاحَ الكلامِ بصورةِ الكلامِ المؤكد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ بالكلام، ليتوجَه بذلك الافتتاحِ جميعُ السامعين إلىٰ استماعه، للإشعارِ بأنه خبرٌ مهم، كما أنَّ تأكيدَه كذلك فيه إشارةٌ إلىٰ أن من حقهِ ألا يكون؛ لأنَّ ذا المروءات والهممِ العاليات، والطبعِ السليم، والمزاجِ القويم لا يكاد يصدقُ مثل هذا.

٢. تفيدُ أن الكفرَ باللهِ تعالىٰ من أعظمِ أنواعِ الإجرامِ التي تقعُ في الأرض؛ لأن المرادَ بالذين أجرموا هنا الكفارُ بدليلِ قولهِ تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، والتعبيرُ بالموصولِ وصلتهِ ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ للتنبيهِ علىٰ أن ما أخبرَ به عنهم هو إجرام، والمؤسفُ حقًا أننا لا ننظرُ إلىٰ المشركِ والكافرِ اليومَ علىٰ أنه مجرم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٣. فيها ما يدعو للتنفيرِ من الكفرِ والكافرين حيث وصفَهم بالمجرمين، فهم قد أجرموا في حقِ الله البرِ الرحيمِ، وحقِ أنفسِهم.

٤. فيها التنديدُ بالإجرامِ والمجرمين، ومن أعظمِ الإجرامِ الإجرامُ في حقِّ المؤمن التقي.

٥. فيها بيانٌ لسوءِ خُلُقِ الكفار، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ فإن الضحكَ والاستهزاءَ بالآخرين دليلٌ علىٰ الجهلِ وسوءِ الأدب، كما قال تعالىٰ عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

٦. فيها بيانُ ما كان عليه المشركون في مكةَ إبانَ الدعوة، وما لقيه المؤمنون منهم.

٧. تفيدُ أن الإجرامَ في حقِ الله هو سببُ إجرامهم في حقِّ المؤمنين من ضحكٍ وتغامزٍ بهم، فإنَّ من عرفَ حقَّ الله، عرفَ حقَّ غيره، ومن ضيعَه ضيعَ حقَّ غيرِه.

٨. فيها ما يدلُ علىٰ أن ذلك الضحكَ كان ديدنًا وخلقًا وطبعًا وصفةً لهم في الماضي ﴿كَانُواْ﴾، ومتكررًا منهم في الحال، بدلالةِ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، للدلالةِ علىٰ تكررِ ذلك منهم، كلَّما رأوهم أو ذكروهم استهزاءً بهم وبحالاتِهم التي هم عليها.

٩. تفيدُ أن الكفارَ كان شغلُهُم الشاغلُ الذي يسلون أنفسَهم به السخريةُ بالمؤمنين في جميعِ أحوالِهم؛ لأن القرآنَ تحدثَ عنهم في ثلاثةِ أحوال: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، والظاهرُ أن هذا كان يحصلُ في نواديهم حين يتحدثون بحالِهم،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وعند ما ينقلبون إلىٰ أهليهم في بيوتهم، وعند ما يمرون بهم في طرقاتهم، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾.

١٠. فيها بيانُ شدةِ الأذىٰ الذي كان يلحقُ بالمؤمنين، حيث كانوا يجمعون بين الأذىٰ النفسي والمعنوي بالضحكِ والغمزِ، وسوءِ القولِ بوصفِهم بالضلالِ.

١١. تفيدُ أن الكفارَ كانوا يفعلون الأفعالَ التي تقللُ من شأنِ المؤمنين، وتحدثُ الربكةَ والخجلَ والانكسارَ في نفوسِ المؤمنين، ليصدوا غيرَهم، ولعلهم يرجعون عن الإسلامِ إلىٰ الكفر.

١٢. تفيدُ أن ذكرَ الأهلِ هنا دون بيوتِهم يدلُ أنهم كانوا ينفرونهم إذا رجعوا إليهم بذكرِ المؤمنين وذمِهم، كما هي تدلُ علىٰ علمِ اللهِ المحيطِ بهم وبغيرِهم، وتدلُ علىٰ حلمهِ حيثُ لم يعاجلهم بالعقوبةِ مع استمرارِ فسادِهم.

١٣. تفيدُ أن سوءَ فعلِ الكفارِ وسرورِهم بذلك واطمئنانِهم من أعظمِ ما يكون من الاغترارِ وموتِ الضمير، حيثُ جمعوا بين غايةِ الإساءةِ والأمن في الدنيا، فلو كان في قلوبهم إيمانٌ لتلاوموا وندموا، ولشعروا بقبحِ ما صنعوا.

١٤. فيها فقدان الحجة للرد علىٰ المؤمنين فيلجؤون إلىٰ وسيلة عديمي الحجة التي لا يعجز عنها أحد، وهي الاستهزاء التي يلجأ إيها من عجز من مقارعة الحجة بالحجة.

١٥. تفيدُ أن من أعظمِ السوءِ فعلَ السوءِ ثم التفكهُ والتلذذُ بذكرِه ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾.

١٦. تفيدُ أن الكفارَ يرون أن اتباعَ المؤمنين للإسلامِ من الضلال، ويحكمون لأنفسِهم بالهدىٰ بلا علمٍ افتراءً علىٰ الله، حتىٰ كأنَّهم قد جاءهم

كتابٌ من اللهِ وعهدٌ أنهم من أهلِ السعادة ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

١٧. تفيدُ أن اتهامَ أهلِ الصلاحِ والخيرِ بالضلالِ والفسادِ أسلوبٌ قديمٌ في الحربِ علىٰ الإسلامِ والمسلمين ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

١٨. تفيدُ أن رميَ الآخرين بالضلالِ دونَ دليلٍ وبرهان هو عينُ الإجرامِ والضلال، ومن أكبرِ الذنوبِ والآثام.

١٩. تفيدُ أن اللهَ لم يجعل أحدًا رقيبًا علىٰ خلقهِ، ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، يراقبُ أعمالَهم، يحفظُ عليهم أحوالَهم، ويتفقدُ ما يصنعونَه من حقٍ أو باطل، وإنما أمروا بإصلاحِ أنفسِهم، والاشتغالِ بذلك أولىٰ بهم من تتبعِ غيرِهم.

٢٠. تفيدُ أن الحافظَ لأعمالِ العبادِ، والرقيبَ عليهم هو اللهُ وحده الذي يعلمُ السرَ وأخفىٰ، ويجازي بالحسنةِ والسيئة.

٢١. تفيدُ أن الانشغالَ بتتبعِ عيوبِ الناس هو من صفاتِ الكافرين التي لا يحبُها اللهُ ولا يرضاها، بل من ظهرَ له عيبٌ من أخيه فالسترُ واجب، مع النصحِ والسعي لعلاجهِ.

٢٢. تفيدُ أنه من اشتغل في الدنيا بما لا يغني، فوت علىٰ نفسهِ ما يغني في الآخرة.

٢٣. فيها بيانُ انقلابِ الأحوالِ في الآخرة، وأن الجزاء من جنس العمل، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، من يَضحك يُضحك منه، ومن كان حزينًا يصيرُ مسرورًا، ومن تكبرَ علىٰ ربهِ أذله في يومِ معاده.

٢٤. تفيدُ أن المؤمنين سيرون المشركين في الجحيمِ متىٰ شاءوا وهم يعذبون، وسوف يضحكون منهم بما لحقَهم من الهوانِ والصغارِ بعدما كانوا

عليه من العزِ والنعيمِ والترف، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي يجددون تحديقَ العيون إليهم كلَّما أرادوا.

٢٥. فيها بيانُ الدعةِ والنعيمِ الذي فيه أهلُ الإيمان، حيثُ يضحكون علىٰ عدوِهم بالشماتةِ والعارِ حالَ كونهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: الأسرةِ العاليةِ المزينةِ التي هي من حسنِها أهلٌ لأن يقيمَ المتكئ بها.

٢٦. فيها دليلٌ علىٰ أن الكفارَ يصيرون إلىٰ ألوانٍ من العذابِ يُضحكُ منها، من صراخٍ، وتبرءٍ، ودعاءٍ بالويلِ والثبور، ولعنِ بعضِهم لبعضٍ وغيرِها.

٢٧. فيها عظةٌ شديدةٌ لمن يضحكُ من المؤمنين علىٰ وجهِ السخرية، الذي هو من أخلاقِ الكافرين، ومن تشبه بهم خيفَ عليه من مصيرِهم، كما قال النبي ﷺ: (وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)[1].

٢٨. فيها دليلٌ علىٰ أن الجزاءَ في الآخرةِ مترتبٌ علىٰ أعمالِ الدنيا، وسببُ عذابِ الكفارِ وضحكِ المؤمنين منهم راجعٌ إلىٰ ضحكِهم واستهزائِهم بالمؤمنين في الدنيا.

٢٩. تفيدُ أن الجزاءَ في الآخرةِ وفاق ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبةُ الغي والضلال.

٣٠. فيها بيانُ جزاءِ الله تعالىٰ العادلِ في الآخرة، حيث ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلا من الله، فإن الكفارَ كانوا يضحكون علىٰ المؤمنين في الدنيا،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم ٥١١٤، وأبو داود في سننه ح رقم٤٠٣١، وابن أبي شيبة في مصنفه ح رقم ١٣٤، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع (١/ ٢٦٧).

وفي الآخرةِ يضحكُ المؤمنون منهم بسببِ ما هم فيه من الضرِ والبؤسِ، وأنواعِ العذابِ والبلاء.

٣١. فيها بيانُ إكرامِ اللهِ لأوليائِهِ، وإهانتِهِ تعالىٰ لأعدائِهِ في الآخرةِ دارِ الجزاء.

٣٢. فيها بيانُ مدىٰ الاستخفافِ الذي يلحقُ بأعداءِ المؤمنين في الآخرة، ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ويقال لهم ذلك علىٰ سبيلِ التهكمِ كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] فيكون هذا القولُ زائدًا في سرورِ المؤمنين.

٣٣. تفيدُ أنه يجبُ علىٰ المؤمن ألا يتأثرَ بسخريةِ أحدٍ منه، ويعلمُ أنه علىٰ سننِ غيرِه.

٣٤. تفيدُ أن اللهَ سينتصرُ للمؤمنين عاجلًا أو آجلًا، وأن وصفَ اللهِ لمواجعِ المؤمنين من الكافرين تدلُ علىٰ رعايتِهِ لأوليائه.

٣٥. تفيدُ أن كلَّ أذىٰ محسوب، وسيجازىٰ الجميعُ عليه، المؤمنُ الصابر، والكافرُ المجرمُ الفاجر.

٣٦. تفيدُ أن المؤمنَ ولو كان في أدنىٰ درجاتِ الإيمانِ فهو يضحكُ من الكفار خاصة، أما الذين آمنوا لا يضحكون من عصاةِ المؤمنين ولو رأوهم يعذبون؛ بل يرحمونَهم لاشتراكِهم في الدين.

٣٧. فيها بيانٌ لعلمِ اللهِ المحيطِ بكلِّ ظاهرٍ وخفي، وكلِّ عملٍ وقول، وحركةٍ وسكون.

٣٨. فيها بيانٌ لعدلِ الله تعالىٰ الذي لا تضيعُ عنده مظلمةٌ صغيرةٌ كانت أم كبيرةً ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

www.Quranonlinelibrary.com

٣٩. تفيدُ أن الأذىٰ الذي يلحقُ بالمؤمن في الدنيا يرفعُ من درجتهِ في الآخرة، وما ابتلاهم اللهُ إلا ليمحصَهم ويرفعَ درجاتِهم.

رابعًا: التناسقُ الموضوعي بين الآيات:

لما ذكرَ سبحانه جزاءَ الكافرِ بالجحيم، وجزاءَ المؤمن بالنعيم، وكان من أجلِّ النعيمِ الشماتةُ بالعدو، جاء الحديثُ هنا عن ذلك، مبينًا لما كانوا عليه في الدنيا من أذيةٍ للمؤمنين، وما صاروا إليه في الآخرةِ من العذابِ الأليم، فحكىٰ عنهم أربعةُ أشياءٍ من المعاملاتِ القبيحةِ، فأولُها: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾، وثانيها: قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾، ولما وصفَهم في مواضعِ الترددِ والتقلب، وصفَهم في المنازلِ فقال ثالثًا: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ولما ذكرَ مرورَهم بهم، ذكرَ مطلقَ رؤيتِهم لهم فقال رابعًا: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ولما بلغَ قولُهم قبحَه تولىٰ نصرةَ عبادِه المؤمنين فردَ اللهُ عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، ولما كان لا نعيمَ أفضلَ من الشماتةِ بالعدوِ لا سيما إذا كانت علىٰ أعلىٰ طبقاتِ الشماتةِ، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، ولما كان الخطابُ هنا للتلذذِ بما لحقَ الكافرين وجَه الخطابَ إليهم لإكمالِ النعيمِ لديهم عند ما يرون عدوهم أخذَ ما يستحقُه فقال: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

خامسًا: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

وقد كانت فاتحةُ السورةِ في الوعيدِ بالويلِ لمن يستحقون الويلَ، وهم الذين انتقصوا الأموالَ في خفاءٍ، وبيَّن أن فعلَهم فعلَ من لا يظنُّ أنه يُجازىٰ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

علىٰ فعلهِ، وحذرَهم من يومِ المعاد، وآخرها جاء فيمن انتقصَ الأعرضَ كذلك في خفاءٍ وجهرةٍ، وجانبَ كذلك العدلَ والوفاء، وهم أصحابُ الويلِ في العمومِ. فأولهُا وعيدٌ علىٰ سوءِ الأفعالِ وظلمِ العبادِ في دنياهم، وآخرها في ظلمِهم في أديانِهم، وخاتمتُها في بيانِ جزائِهم علىٰ سوءِ أفعالِهم وأقوالِهم.

سادسًا: خصائصُ السورةِ في عرض هداياتها:

١. الحديثُ عن عاقبةِ المطففين، وبيانِ صنيعِهم، والتحذيرِ من عاقبتِهم ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

٢. الحديثُ عن قيامِ الناسِ لربِ العالمين في الآخرة ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٣. الكلامُ عن كتابِ الفجار، مكانهِ، ووصفِ رقمه ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾.

٤. بيانُ أثرِ الذنوب في حجبِ الهدىٰ عن القلوب ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

٥. بيانُ حجبِ الكفارِ عن رؤيةِ الكريمِ الرحمن في الآخرة ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

٦. الحديثُ عن كتابِ الأبرار، مكانهِ، ووصفِ رقمه، ومن يشهده ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

٧. الحديثُ عن نعيمِ أهل الجنة، وأثرِ ذلك النعيم في نضرةِ الوجوه ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٨. الكلامُ عن الرحيقِ الذي يُسقىٰ للمقربين، من حيثُ ختمهِ، ومزاجه ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾.

٩. الحث علىٰ المنافسة في نعيم الآخرة: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

١٠. الكلامُ عن تسنيمِ التي هي أعظمُ عينٍ في الجنة ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

١١. الكلامُ عن ضحكِ المجرمين، وغمزِهم، وتفكُّهِهم بأذيةِ المؤمنين، وسوءِ صنيعِهم بالمؤمنين، وإنكارِ اللهِ عليهم سوءَ صنيعهم، وبيانِ ضحكِ المؤمنين منهم يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

سابعًا: التكاليف الإيمانية والعملية من هدايات السورة:

١. تجنب تطفيف الكيل والوزن وغش وظلم الناس، وتضييع حقوقهم واستغلال حاجتهم، بل يجب معاملتهم بما يرعىٰ حقوقهم من العدل والصدق والأمانة، مع تجنب الغش والكذب والظلم وسائر ما يضيع حقوق الناس من زبائن، وعمال، وموظفين، وغيرهم.

٢. اليقين بالآخرة ولقاء الله، والمحاسبة علىٰ كل صغيرة وكبيرة، وأنه يوم شديد الخطب.

www.Quranonlinelibrary.com

٣. الحذر من حب الدنيا الذي يؤدي إلىٰ الركون إليها، وأكل أموال الناس بالباطل في سبيل تحصيلها.

٤. ربط جميع التصرفات بما في القلب من إيمان بالله واليوم الآخر، بتذكر اطلاع الله تعالىٰ علىٰ كل أحوال العباد، ومحاسبتهم عليها.

٥. اليقين بكتابة الأعمال وحفظها ونشرها يوم المعاد، وبما يكون من جزاء علىٰ ما فيها للفجار والأبرار.

٦. التخلص من الذنوب، والإسراع في التوبة والإنابة حتىٰ لا تكثر فتحيط بالقلب فتمنعه من معرفة الحق والإقلاع عن الذنب.

٧. حمل النفس علىٰ المنافسة في الخيرات الموصل إلىٰ أعلىٰ الجنات، وعدم المنافسة في أمور الدنيا الزائلة بما يضر في الآخرة.

٨. عدم تتبع عورات الناس وعيوبهم، والتصرف كأنه المحاسب المحصي لحسناتهم وسيئاتهم، والعمل علىٰ شغل النفس بما ينفعها في الآخرة.

٩. تجنب السخرية والأذىٰ للناس بأي صورة كانت من قول أو فعل.

١٠. تذكر ما يكون في الآخرة من قصاص وجزاء موافق للأعمال.

تمَّ الكلام عن سورة المطففين ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في غرة رجب من عام ١٤٣٥ هـ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة الانشقـاق

موضوع السورة:

مآل العباد في الآخرةِ
ونتيجة عملِهم

من خلال موضوعين:

- بعض أحداث الساعة وحالِ العباد عند توزيع الكتب.
- اختلافِ أحوالِ العباد والجزاءِ علىٰ الأعمال.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

مدخل لدراسة السورة

أولًا: ما جاء من أحاديث عن سورةِ الانشقاق:

عن النبيِّ ﷺ قالَ: (من سَرَّه أن يَنْظُرَ إلىٰ القيامةِ رأي عينٍ فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾)[١].

وعَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ فَقُلْتُ لَهُ، قَالَ: سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّىٰ أَلْقَاهُ[٢].

ثانيًا: موضوعاتُ السورة:

موضوعُ السورةِ بيانُ مآلِ العبادِ في الآخرةِ نتيجةَ عملِهم وكدحهم، من خلالِ الحديثِ عن موضوعين:

- بيانُ بعضِ أحداث اليوم الآخر في مشهدِ الاستسلامِ والطاعة لربها، وحالِ الإنسان عند توزيع كتب الأعمال.
- بيانُ تقلبِ أحوالِ العباد كتقلبِ أحوالِ الأمورِ المقسم بها، مع التعجبِ من الذين لا يؤمنون ولا يخضعون لحججِ القرآن القاطعةِ مع بيانِ السبب، وعاقبةِ الكفرِ والتكذيب، واستثناءِ المؤمنين من مصيرِهم وعاقبتهم ببيان أجرهم وفوزهم.

---

(١) أخرجه الترمذي، ح رقم (٣٣٣٣)، والحاكم في المستدرك ح رقم (٣٩٠٠) وصححه، ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، بَابُ: الجَهْرِ فِي العِشَاءِ ح رقم (٧٦٦).

www.Quranonlinelibrary.com

ثالثًا: المناسبةُ بين سورةِ المطففين سورةِ الانشقاقِ:

ذكرَ تعالىٰ في سورةِ الانفطار التعريفَ بالحفظةِ وإحصائِهم على العبادِ في كتبهم، في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ – ١٢]، وبين في سورةِ المطففين موضعَ حفظِها في قولهِ تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، وقولهِ تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وبين هنا كيفيةَ أخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذَها باليمينِ عنوانُ السعادة، وأخذَها وراءَ الظهرِ عنوانُ الشقاءِ والهلاك، وقد تقدمَ في السورتين قبلَ ذكرُ الكتبِ واستقرارِها بحسب اختلافِ مضمونِها، فحصلَ بهذا الإخبارِ الكتب ابتداء واستقرارًا وتفريقًا يوم العرض.

رابعًا: مناسبةُ فاتحةِ السورةِ لمضمونها:

افتتحت السورةُ بذكرِ انشقاقِ السماء، ومدِ الأرض وإلقائِها ما فيها وتخليها تعريفًا بهذا اليومِ العظيم، وما يكون فيه من عرضٍ وجزاءٍ لكلِّ كدح.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوع الأول
بيانُ بعضِ أحداث الساعة وحالِ العباد عند توزيع الكتب

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ
مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ
يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ
ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ [الانشقاق: ١ - ١٥].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾: أي: تصدعت مع عظمِ سمكها.

٢. ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ لربها: استمعت لأمرِ ربها وأطاعت.

٣. ﴿وَحُقَّتۡ﴾: وحقَّ لها أن تسمعَ وتطيع لربها؛ لأنه العظيمُ الذي لا يمانعُ ولا يغالب، بل قهرَ كلَّ شيء، وخضعَ وذل له كلُّ شيء.

٤. ﴿مُدَّتۡ﴾: وُسعِّت وبسطت في مسافتِها لتسعَ الخلائق، وقيل: سويت.

٥. ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾: أي: ألقت ما في جوفِها من الكنوزِ والموتىٰ وغيرهما.

٦. ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: أي عما استحفظت فلم يبق منه شيء؛ لأن فعلَ تخلّىٰ يدلُ

www.Quranonlinelibrary.com

علىٰ قوةِ الخلوِّ عن شيء، لما في مادةِ التفعل من الدلالةِ علىٰ تكلفِ الفعل كما يقال تكرمَ فلان إذا بالغَ في الإكرام.

٧. كَدۡحٗا: الجدُ والاجتهادُ في العملِ حتىٰ يؤثرَ في النفسِ التعبُ والنصب.

٨. فَمُلَٰقِيهِ: أي: ملاقٍ ما عملتَه من خيرٍ وشر، وقيل ملاقٍ ربه.

٩. كِتَٰبَهُۥ: أي: كتابُ عملِه.

١٠. يَسِيرٗا: أي: هينًا سهلًا بلا تعسرٍ، فتعرضُ عليه ذُنُوبه ولا يُدقّقُ عليه ولا يحاسب بها، فإن من حوسب هلك لا محالة.

١١. مَسۡرُورٗا: أي: فرحًا مستبشرًا بنجاتهِ وبما أعطاه اللهُ من الكرامة.

١٢. أَهۡلِهِۦ: من الحورِ العين، والذين كانوا معه في الدنيا.

١٣. وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ: أي بشمالهِ من وراء ظهرهِ إهانةً له.

١٤. يَدۡعُواْ ثُبُورٗا: أي: يدعو بالهلاك.

١٥. وَيَصۡلَىٰ: يحرقُ وينصلي وينضجُ بها ويقاسي عذابها.

١٦. سَعِيرًا: أي نارا مستعرةً شديدةَ الالتهاب.

١٧. إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا: أي فرحًا لا يفكرُ في العواقب.

١٨. يَحُورَ: أي: يرجعُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ بعد الموت، وأصل الحَور: الرجوع.

١٩. بصيرا: عالمـًا.

ثانيًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. فيها تقريرٌ للبعثِ والجزاءِ ببيانِ مقدماتهِ فيما يحدثُ من انقلابٍ وتغيرٍ في الأجرامِ العظامِ في الكون.

٢. فيها بيانٌ لحالِ السماءِ في يومِ القيامة، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، كما

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦]، وهي تنشق بالغمام، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ولذلك قيل تنشقُ لنزولِ الملائكة.

٣. تفيدُ أن انشقاقَ السماءِ من علاماتِ الساعةِ الكبرىٰ التي ورد ذكرها في القرآنُ الكريم.

٤. فيها بيانٌ لحالِ الأرضِ يومَ القيامةِ حيثُ يمدُها اللهُ تعالىٰ مدَّ الأديمِ، حتىٰ تصيرَ واسعةً جدًا، تسعُ أهلَ الموقفِ علىٰ كثرتِهم، فتصيرُ قاعًا صفصفًا لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾.

٥. تفيدُ أن الأرضَ تخرجُ كلَّ ما فيها من مكنونٍ ومحفوظٍ، من الأمواتِ والكنوزِ وغيرِهما، وهي تضمُ الشيءَ الكثير الذي لا تتخلىٰ عنه بصورةٍ كاملةٍ إلا يومَ القيامة ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾.

٦. فيها أن قولَه تعالىٰ: ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ يفيدُ رهبةَ الموقفِ وشدتَه، وأنه لا ملجأ ولا منجىٰ من اللهِ إلا إليه.

٧. تفيدُ أن السمواتِ والأرضَ مسخراتٌ مدبراتٌ لملكِ الملوك، الذي لا يُعصَىٰ أمرُه، ولا يخالفُ حكمُه، لذا فهي انقادتْ لربها حين أرادَ انشقاقَها، وكذلك اطاعت الأرضُ له حين أراد مدَّها وإلقاءَ ما فيها ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

٨. فيها أن التعبيرَ بـ «ربها» في الموضعين دونَ غيرِه من أسماءِ اللهِ يفيدُ أنها مربوبةٌ له، وهو المالكُ المدبرُ المتصرفُ فيهما كيف يشاءُ، وهي محقةٌ بأن تَأْذِنَ لربِّها وتطيعه؛ لأنها لا تخرجُ عن سلطانِ قدرته، وإن عظمَ سمكُها

www.Quranonlinelibrary.com

واشتدَّ خَلقُها، وطالَ زمانُ رتقِها فما ذلك كلُّه إلا من تقديرِ اللهِ لها، فهو الذي إذا شاءَ أزالَها.

٩. فيها بيانُ تفاهةِ عقولِ من يعصون أمرَ ربِهم الذي استجابت له السمواتُ والأرضُ مع عظمِهما، وهي لم تتحمل أمانة، ولن تُسألَ عن واجب، فكيف بالإنسانِ الضعيف، الذي ميزَه ربُه بالعقل، وهو المسؤولُ عن كدحِهِ، فهو أحقُ بالسمعِ والطاعةِ من السماء والأرض.

١٠. فيها أن حذفَ جوابِ «إذا» من أساليبِ القرآنِ العظيمةِ في التهويلِ حتىٰ يُقدِّرَ السامعُ أقصىٰ ما يتصورُه من الثوابِ والعقاب لعمله، وحذفَ للعلمِ به دلَّ عليه قولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ والتقدير: إذا السماءُ انشقت إلىٰ آخره لاقيتَ أيها الإنسان كدحك وربك. وقال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جواب ﴿إِذَا﴾ جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ باعتبار ما فُرع عليه من قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾»[(١)].

١١. تفيدُ أن كلَّ إنسانٍ يقضي رحلةَ حياتهِ كدحًا، فالحياةُ الدنيا والحياةُ الآخرة لا تحصلُ إلا بجهدٍ فيه قدرٌ من النصبِ والتعب، فهذه حقيقةٌ ينبغي أن تفهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾.

١٢. تفيدُ أن كلَّ إنسانٍ إذا مات لقي كدحَه الذي قدمه من خيرٍ أو شرٍ يقينًا، وسوفَ يجزىٰ عليه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

١٣. تفيدُ أن العاقلَ إذا أيقنَ بلقاءِ كدحهِ حسنه؛ لأنه هو الذي سيلاقي

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

به ربَّه، فيجعلُ كدحَه سببًا لنجاتِه، كما في حديث مسلم: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)(١).

١٤ . تفيدُ أن كلَّ إنسانٍ سيلاقي ربه، ولا يعدمُ منه جزاءً بالفضلِ إن كان سعيدًا، أو بالعدلِ إن كان شقيًا، فليتهيأ العقلاءُ لذلك اللقاءِ العظيم.

١٥ . فيها ما يشيرُ إلىٰ سرعةِ الحياة؛ لأن من معاني الكدحِ السرعة، كادحٌ، أي: مسرعٌ، فإن خُطىٰ الزمانِ تسرعُ بالعبدِ في كلِّ لحظةٍ إلىٰ ربه، وهو في كلِّ وقتٍ يقطعُ حظًا من عمرِه القصير، فكأنه مسرعٌ إلىٰ الموتِ ثم يلاقي ربه.

١٦ . تفيدُ أن ذكرَ الكدحِ علىٰ هذا النمطِ حثٌّ علىٰ الاجتهادِ في إحسانِ العملِ؛ لأن من أيقنَ بأنه لابدَ له من العرضِ علىٰ الملك أفرغ جهدَه في العمل بما يحمدُه عليه عند لقائِه.

١٧ . فيها ما يفيدُ أننا نكتبُ من خلالِ سعينا في الليلِ والنهار، وحركاتِ جوارِحنا صحائفَ أعمالنا.

١٨ . فيها إثباتٌ للكتبِ التي تكتب، وهذه سبقت في الانفطار، وأين تحفظُ وهذه سبقت في المطففين، وكيف تنشرُ وتسلمُ وهذه تمَّ بيانُها هنا في الانشقاق بما يشيرُ إلىٰ ترابطِ هذه السور وتناسقِها في بيانِ مصيرِ الإنسان بعد موته.

١٩ . تفيدُ أن أهلَ السعادةِ يتلقىٰ الواحدُ كتابَه بيمينه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

٢٠ . فيها ما يشيرُ إلىٰ سنةِ التيامن، وأن اليدَ اليمنىٰ تتناولُ الأشياءَ الزكية،

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، بَابُ: فَضْلِ الْوُضُوءِ رقم (٢٢٣).

وقد ارتكزَ في النفوسِ أن البركةَ في الجانبِ الأيمن حتىٰ سَموا البركةَ والسعادةَ يُمنًا، ووسموا ضدَّها بالشؤمِ فكانت بركةُ اليمين مما وضعه الله تعالىٰ في أصلِ فطرةِ الإنسان.

٢١. فيها بيانُ رحمةِ اللهِ بعبادِه المؤمنين حيثُ هونَ عليهم الحسابَ وسهله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرضُ اليسير علىٰ اللهِ، فيقرره اللهُ بذنوبه، حتىٰ إذا ظن العبدُ أنه قد هلك، قال اللهُ تعالىٰ له: (إني قد سترتُها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم)[١]، وفي الحديث عن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: ﷺ إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ)[٢].

وقد جاء في صحيح مسلم عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِىٰ النَّجْوَىٰ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ أَعْرِفُ. قَالَ: فَإِنِّى قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِىٰ الدُّنْيَا وَإِنِّىٰ أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَىٰ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ)[٣].

٢٢. تفيدُ أن الإنسانَ يدخلُ الجنةَ علىٰ أهلِه من الحورِ العين، ونسائهِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، بَابٌ: قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ح رقم (١٤٤٢)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ ح رقم (٧١٩١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، بَابٌ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ ح رقم (٦٥٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، بَابُ: قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ ح رقم (٢٧٦٨).

المؤمناتِ في الدنيا مسرورًا مبتهجًا بما أعطاه اللهُ من الكرامة، وقد يكون المرادُ بالأهلِ: قرابتُه من المؤمنين، واللفظ عام ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾.

٢٣. تفيدُ أن المؤمنَ بعدَ العرضِ يرجعُ من نفسهِ إلىٰ أهلهِ في الجنة، فيكون أعرفَ بهم وبمنزلتهِ التي أعدتْ له منه بمنزلهِ في الدنيا.

٢٤. فيها لما كانت ثمرةُ السعادةِ في حصولِ السرور من غيرِ قيد، عبرَ عن السعادةِ بثمرتِها في قوله: ﴿مَسۡرُورًا﴾؛ لأنه قد أوتي جنةً وحريرًا، فذكر هنا الثمرةَ والمسبب؛ لأنها المقصودةُ بالذات، وفي الشقِ الآخر السببُ والأصل.

٢٥. تفيدُ أن كلَّ ناجٍ من العذابِ، وفائزٍ بالثواب سوف يكون مسرورا في ذلك اليوم.

٢٦. فيها بيانُ كيفيةِ تلقي الكافرِ، ومن قضىٰ حياتَه في الضلالِ ومعصيةِ الله لكتابه، ففي الحاقةِ بين أنه يأخذه بشمالهِ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩]، وهنا بين أنه يكون من وراءِ ظهره ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾.

٢٧. تفيدُ أن إعطاءَ الكافرِ لكتابهِ من وراءِ ظهرِه إظهارًا للغضبِ عليه بحيث لا يَنظرُ مُناوِلُه كتابَه إلىٰ وجهه.

٢٨. فيها بيانُ حالِ الإنسانِ عندما يؤتىٰ كتابَه وراءَ ظهرِه حيث يدعو علىٰ نفسهِ بالهلاك ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أي: يصيحُ بالويلِ والهلاكِ من الخزي والفضيحةِ، ولما وقعَ فيه من الشقاءِ وسوءِ الحال، وما يجدُ في كتابهِ من الأعمالِ التي قدمها ولم يتب منها، وهنالكَ موضعٌ آخر يدعو فيها بالثبورِ في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ (الفرقان:

١٣)، فهو يدعوُ بالهلاكِ لينقذه مما هو مُقْدِمٌ عليه من الشقاءِ، وهذا المعنىٰ هو الذي أراده المتنبي من قوله:

كفىٰ بَكَ داءً أن ترىٰ الموتَ شافيًا   حسـب المنايـا أن يكـن أمانيـا [1]

٢٩. فيها بيانُ مصيرِ الكافرِ في قولهِ تعالىٰ: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: تحيطُ به السعيرُ من كلِّ جانب، ويقلبُ في عذابها، وهذا الذي جعله يدعو علىٰ نفسهِ بالهلاك لينقذه منه.

٣٠. تفيدُ أن الكافرَ يكونُ في الدنيا مسرورا مع أهلهِ باتباعِ هواه، وركوبِ شهواتهِ وملذاته.﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾، كما سبق في المطففين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١].

٣١. تفيدُ أن التنعمَ في الدنيا والانكبابَ علىٰ شهواتِها وملاذِها مع تركِ الطاعات والصالحات هو نتيجةُ عدمِ الإيمان أو اليقين بالبعثِ والجزاء.

٣٢. تفيدُ أن المقابلةَ بين سرورين، أحدُهما عاجلٌ، أعقبَه حزنٌ دائم، والآخرُ آجل أعقبه سرورٌ دائمٌ فيه تنبيهٌ عجيبٌ بالغُ الأهميةِ للعقلاءِ في إيثارِ النعيم الباقي وعدمِ الركون إلىٰ شهواتِ الدنيا الزائلة.

٣٣. فيها بيانٌ لكيفيةِ تغيرِ وتبدلِ الأحوال في الآخرةِ، والسعيدُ من كانت عاقبتُه خيرا.

٣٤. تفيدُ أن عدمَ الإيمانِ بالبعثِ أو الشكِ فيه هو الدافعُ لكلِّ سوء، والمضيعُ لكلِّ خير، فالكافرُ لم يكن يخطرُ البعثُ علىٰ باله، ولم يظن أنه راجعٌ إلىٰ ربهِ، وموقوفٌ بين يديه، مما جعله يسيء: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ عكسُ المؤمنِ المشفقِ في دنياه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦

(١) شرح ديوان المتنبي للواحدي (ص:٣١٠).

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦١].

٣٥. تفيدُ أن اللهَ بصيرٌ بالعبادِ وأعمالِهم، مطلعٌ علىٰ كلِّ أمورِهم، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمرِهم، فمن أسمائه وصفات البصير، ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

٣٦. فيها إشارةٌ لدقةِ الحسابِ والجزاءِ فإن المحاسبَ بصيرٌ بأحوالِ عبادهِ لا تخفىٰ منه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماء.

٣٧. فيها إشارةٌ لحكمةِ البعثِ والجزاء؛ لأن الربَّ عليمٌ بأحوالِ عباده، يعلمُ أن منهم المصلحَ، ومنهم المفسد، وأنهم متفاوتون في كدحهم، فليس من الحكمةِ أن يذهبَ المفسدُ بفسادِه، وما ألحقَهُ بالموجوداتِ من ضررٍ، وأن يهملَ صلاحَ المصلح، فجعَلَ اللهُ الحياةَ الأبديةَ للجزاءِ علىٰ ما قدّمَ صاحبُها في حياتهِ الأولىٰ.

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين هدايات الآيات:

بدأت السورةُ في عرضِ أحوالِ العبادِ في اليومِ الآخرِ بذكرِ انشقاقِ السماء ومدِّ الأرض، وإلقائها ما فيها وتخليها تعريفًا بحالِ العباد في هذا اليوم العظيم، فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ مع ما لها من الإحكامِ والعظمة، بل كانت شديدةَ الاستماعِ والطواعيةِ والانقياد لربها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، ولما بدأَ بالعالمِ العلوي لكونه أشرفَ؛ لأنه أعلىٰ مكانةً ومكانًا، ثنىٰ بالسفلىٰ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ مع ما لها من الصلابةِ والكثافة، والعجيبُ

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ من الأموالِ والكنوز والأمواتِ إخراجًا سريعًا كأنها تقذفه قذفًا، ولما كان هذا ربما أوهمَ أنه بغيرِ أمره سبحانه وتعالىٰ قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، والجوابُ محذوفٌ تقديرُه: ليحاسبنَّ كلَّ أحدٍ علىٰ كدحه، ولذا جاء الكلامُ عن ملاقاةِ الكدح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، ثم بين كيف يكونُ أخذُ كتابِ الكدح في القيامة عند العرض، وأن أخذَه بالأيمانِ عنوانُ السعادة، وأخذَه وراءَ الظهرِ عنوانُ الشقاء، فقال في شرحِ ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وقال عن أهل الشمال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، ولما ذكرَ هذا العذاب الذي لا يطاق بين سببَه ترهيبًا منه واستعطافًا إلىٰ التوبةِ وتحذيرًا من السرورِ في دار الأحزان، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ثم بين سببَ سروره فقال: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، فلهذا كان يعمل عمل من لا يخاف عاقبة ﴿بَلَىٰٓ﴾ ليرجعن صاغرًا هالكًا، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: ناظرًا له وعالمًا به أبلغَ نظرٍ وأكملَ علم، فكيف لا يرجعُه ويحاسبه.

الموضوع الثاني
بيانُ اختلافِ أحوالِ العباد والجزاءِ على الأعمال

قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ [الانشقاق:١٦-٢٥].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما تكلمَ تعالىٰ عما يحدثُ عند مجيء الساعة، وفصلَ في أحوالِ العباد، بين هنا بالقسمِ المؤكد بأمورٍ عظيمةٍ، هي من أدلةِ التأكيد علىٰ أن البعثَ حقٌّ؛ لأن الذي غيرَ أحوالَ تلك الكائناتِ العظام من الحركةِ إلىٰ السكون، ومن النورِ إلىٰ الظلمات، قادرٌ علىٰ تغيرِ حالِ العبادِ بين الموتِ والحياة، والإيمانِ والكفر، والخيرِ والشر.

ثانيًا: المناسبةُ بين المقسمِ به والمقسمِ عليه:

مناسبةُ الأمورِ المقسمِ بها هنا للمقسَمِ عليه ـ والله أعلم ـ أنّ الشفقَ والليلَ والقمرَ تخالطُ أحوالًا بين الظلمةِ وظهورِ النورِ معها، أو في خلالِها،

وذلك مناسبٌ لما في قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ من تفاوتِ الناسِ يومَ القيامة، أو في حياتِهم الدنيا، أو من ظهورِ أحوالِ خيرٍ من خلالِ أحوالِ شَرّ، أو انتظارِ تغيرِ الأحوالِ إلىٰ ما يرضِيهم إن كان الخطابُ للمسلمين خاصة.

ولعلَ ذِكرَ الشفقِ يكون إيماءً إلىٰ أنه يشبه حالةَ انتهاءِ الدنيا؛ لأن غروبَ الشمسِ مِثْلُ حالةِ الموت، وأن ذكرَ الليلِ وما جمعَ إيماءً إلىٰ الحشرِ وشدةِ هولهِ عند ما يُجمَعُ فيه الخلائقُ للحساب، وذكرُ القمرِ المبددِ لهذه الظلمةِ إيماءً إلىٰ حصولِ الرحمةِ للمؤمنين في الآخرةِ بسببِ نورِ الحقِ الذي اتسقوا عليه.

ثالثًا: معاني الكلمات:

- بِٱلشَّفَقِ: هو الحمرةُ التي تبقىٰ بعدَ غروبِ الشمس.
- وَمَا وَسَقَ: أي: وما جمعَ وضمَّ وسكنَ من الأشياءِ بعد انتشارِها من كلِّ ذي روحٍ يطيرُ أو يدبُّ، وقيل: وما وسقَ: ما ساقَ من ظلمة، إذا كان الليلُ ذهبَ كلُّ شيءٍ إلىٰ مأواه.
- إِذَا ٱتَّسَقَ: أي: إذا اكتملَ وامتلأ واجتمعَ ضوؤه في ليلةِ أربعةَ عشر، فجعلَه مقابلًا لليلِ وما وسق، والشفقُ بينهما؛ لأنه يمثلُ إدبارَ النهارِ وإقبالَ الليل.
- طَبَقًا عَن طَبَقٖ: أي: حالًا بعد حال.
- فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ: أي: ما المانعُ لهم من الإيمانِ باللهِ ورسولهِ ولقائه.
- قُرِئَ عَلَيۡهِمُ: أي تلي عليهم وسمعوه.
- لَا يَسۡجُدُونَ: أي: يخضعون، فيسجدون لله تعظيمًا وإجلالًا.
- بِمَا يُوعُونَ: أي: يكتمونَ ويجمعونَ في صدورِهم، وأصلُ معنىٰ

www.Quranonlinelibrary.com

الإِيعاءِ: جعلُ الشيءِ وعاءً، والوِعاءُ بكسرِ الواوِ الظرف؛ لأنه يُجمعُ فيه، ثم شاعَ إطلاقُه علىٰ جمعِ الأشياءِ لئلا تفوت، فصارَ مشعرًا بالتقتيرِ، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨] وفي حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: (لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ)(١)، أي لا تَجْمَعي.

• مَمْنُونٍ: أي: منقوصٌ ومقطوع.

رابعًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ أن الله تباركَ وتعالىٰ له أن يُقسمَ بما يشاءُ من مخلوقاته حيث أقسمَ في هذا الموضعِ بآياتِ الليل، فأقسمَ بالشفقِ الذي هو بقيةُ نورِ الشمس، وبالليل وما جمع وضم، وبالقمر عند ما يمتلئ نورًا بعدَ ما كان بدرًا، وذلك أحسنُ ما يكون وأكثرُ منافعَ. فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، والقسمُ بها فيه تشريفٌ لها وتعريضٌ للاعتبارِ بها.

٢. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ بآيةِ الشفقِ الذي يتضمنُ إدبارَ النهارِ وهو آية، وإقبالَ الليلِ وهو آيةٌ أخرىٰ، فإن هذا إذا أدبرَ خلفَه الآخرُ يتعاقبان لمصالحِ الخلق، فإدبارُ النهارِ آية، وإقبالُ الليلِ آية، وتعقبُ أحدِهما الآخرَ آية، والشفقُ الذي هو متضمنُ الأمرين آية، وهو وقتٌ خاشعٌ مرهوب تأخذُ النفسُ المتأملةُ فيه روعةً وهيبة، روعةُ الشعاعِ الذي يلوحُ بالوداع، ورهبةُ الليلِ القادمِ، ووحشةُ الظلامِ الزاحف.

٣. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ بآيةِ الليلِ وما حواه وضمه ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، بَابُ: الصَّدَقَةِ فِيمَا اسْتَطَاعَ ح رقم (١٤٣٤).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بهذا التجهيلِ والتهويلِ وهو يجمعُ ويضمُّ الكثيرَ من عوالمِ الأحياءِ في الأرضِ والبحرِ والسماء، فهو مشهدٌ مهيبٌ، يتجددُ بمعانيهِ العظيمةِ في كلِّ يومٍ لمن يتذكرُ ويعتبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

٤. فيها بيانٌ لنعمةِ الليل حيث يجمعُ ويضمُّ كلَّ منتشرٍ من دوابٍ وغيرِها بالنهار؛ وذلك لأن الليلَ إذا أقبل أوىٰ كلَّ شيءٍ إلىٰ مأواه، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

٥. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ بآيةِ الهلالِ في تزايدِه في كلِّ ليلةٍ حتىٰ اتساقِه وهو امتلاؤُه نورًا آية، ثم أخذُه في النقصِ آية ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وهو مشهدٌ هادئٌ رائعٌ ساحر، وهو يفيضُ علىٰ الأرضِ بنورهِ وخيره.

٦. فيها بيانٌ لنعمةِ القمرِ عند اتساقِه، وقد جعلَ اللهُ في ذلك منافعَ عظيمة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

٧. تفيدُ أهميةَ الاعتبارِ بهذه الآياتِ الثلاثةِ مجتمعةً التي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بها، وما يحدثُ من خلالها، فهي آياتٌ دالةٌ علىٰ ربوبيتهِ، مستلزمةٌ للعلمِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بصفات كماله؛ لأن في انصرامِ إحداهما واتصالِ الأخرىٰ بها مع ما بينهما من التضادِ والاختلاف، وانتقالِ الحيوانِ عند ذلك من حالٍ إلىٰ حالٍ، ومن حكمٍ إلىٰ حكم؛ وذلك مبدأٌ ومعاد يومي مشهودٌ للخليقةِ في كلِّ يومٍ وليلة، فالحيوانُ والنباتُ في مبدأ ومعادٍ، وزمانُ العالمِ في مبدأ ومعاد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، فهو من أقوىٰ أدلةِ البعث؛ لأن القادرَ علىٰ ذلك قادرٌ علىٰ تغيرِ حالِ العباد في الدنيا، وفي الآخرةِ من بعثٍ وحشرٍ وحسابٍ وجزاء، ومن هنا كان مناسبٌ بعدَها أن يوجه إليهم السؤالَ بقولهِ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهو المناسبُ لأجلِها من وراءِ كل كدح.

٨. فيها أهميةُ التفكرِ في آياتِ اللهِ الكونيةِ الدالةِ علىٰ عظمتهِ وحكمتهِ وقدرتهِ وقهرِه ورحمتهِ وعظيمِ فضلهِ وصفاته؛ لأن القسمَ بها للتنبيهِ عليها من حيث تطورِ أحوالها المتنوعة، والتفكرُ في آياتِ الله عبادةٌ عظيمةٌ غائبة، قال تعالىٰ عن عباده: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ودعا إلىٰ التفكرِ في كثيرٍ من الآيات منها قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]، ولهذا جاءَ في مصنفِ ابن أبي شيبةَ عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ)[1].

---

(١) المصنف، لابن أبي شيبة برقم ٣٧، والبيهقي في شعب الإيمان لأبو بكر برقم ١١٨.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٩. فيها بيانٌ لروعةِ القرآن، حيث أقسمَ بهذه الأحوالِ المختلفةِ في الليلِ المشاهدِ حسيًا علىٰ اختلافِ أحوال العباد حالًا بعد حال خاصة في الأمور المعنوية ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾.

١٠. تفيدُ أن تلك الآياتِ مراحلُ وأطباقٌ يركبُها الإنسانُ الكادحُ حتىٰ تنتهي به عند ربه.

١١. فيها بيانُ اختلافِ أحوالِ العباد وأطوارِهم ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أي: أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أي: أطوارًا متعددةً وأحوالًا متباينة، من النطفةِ إلىٰ العلقةِ، إلىٰ المضغةِ، إلىٰ نفخِ الروح، إلىٰ خروجهِ إلىٰ الدنيا، ثم يكون وليدًا، وطفلًا، ثم مميزًا، ثم ركوبُه طبقَ البلوغِ فيجري عليه قلمُ التكليف، ثم ركوبُه طبقَ الأشد، ثم طبقَ الشيخوخة، ثم طبقَ الهرم، ثم ركوبه طبقَ ما بعد الموت من أمورِ البرزخ، وشؤونِ البعث ودواهي الحشر، ثم الحسابِ، ثم الوزن، ثم الصراط، ثم الجزاء من جنةٍ أو نار، وهي آخرُ الأطباق، ومثل هذه الأطباقِ المحسوسةِ أطباقٌ معنويةٌ في الفضائلِ والرذائل، فهذه الطبقاتُ المختلفةُ الجاريةُ علىٰ العبدِ دالةٌ علىٰ أن اللهَ وحدَه هو المعبودُ الموحدُ المدبرُ لعبادِه بحكمتهِ ورحمته، وأن العبدَ فقيرٌ عاجز، تحت تدبيرِ العزيز الرحيم، كما هي تدلُ أن البعثَ حق.

١٢. فيها بيانُ الأدلةِ القاطعةِ للإيمانِ باللهِ والبعثِ وغيرها من أركانِ الإيمان من خلالِ ما بسطَه اللهُ من آياتهِ في تقليبِ الكونِ وتصريفهِ له كيف أراد، ونقلِه إياه وإياهم من حالٍ إلىٰ حالٍ الذي هو من أعظمِ الآياتِ الدالةِ علىٰ الربوبية؛ لأن هذا محالٌ أن يكونَ بنفسهِ من غيرِ فاعلٍ مدبرٍ له، ومحالٌ أن يكونَ فاعلُه غيرَ قادرٍ ولا حيًا ولا مريدًا ولا حكيمًا ولا عليمًا، وكلاهما

www.Quranonlinelibrary.com

في الامتناعِ سواء، فالمقسمُ به وعليه من أعظمِ الأدلةِ علىٰ ربوبيتِه وتوحيدِه وصفات كمالِه وصدقِه وصدقِ رسله وعلىٰ المعادِ؛ ولهذا عقبَ ذلك بقولِه ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكارا علىٰ من لم يؤمن بعد ظهورِ هذه الآياتِ المستلزمةِ لمدلولِها أتمَّ استلزام.

١٣. فيها روعةُ الخطابِ القرآني من استنكارِه هنا من عدمِ إيمانِ الكافرين؛ لأنه في ظلِّ تلك المشاهدِ العظيمةِ من ربوبيتِه التي قهرَ بها عظائمَ خلقه، مناسبٌ بعده التعجبُ من حالِ الكافرين الذين ليس لهم عذرٌ في عدمِ إيمانهم، وأن عدمَ إيمانِ الإنسانِ بربهِ مع قيامِ البيناتِ، وسطوعِ البراهين يدعو للتساؤلِ الإنكاري ما الذي منعهم منه.

١٤. فيها ما يدلُّ علىٰ قوةِ حججِ القرآنِ وبراهينهِ الساطعةِ التي تدعو كلَّ عاقلٍ للخضوعِ إليها إذا تليت عليه وتدبرَها.

١٥. فيها وجوبُ الخضوعِ للقرآنِ والانقيادِ لأوامرِه ونواهيه، وأن عدمَ الانقيادِ لسلطانهِ وحججهِ يدعو للتساؤلِ والعجبِ عن السببِ الذي منعهم؛ ولهذا أنكرَ عليهم عدمَ خضوعِهم وسجودِهم عند تلاوة لقرآنِ المشتملِ علىٰ أفصحِ عبارةٍ وأبينِها وأجزلِها وأوجزِها، حيث استعملَ السجودَ بمعنىٰ الخضوعِ والخشوعِ، أي: إذا قرئ عليهم القرآنُ لا يخضعون لمعانيهِ وحججه، ولا يؤمنون بحقيتهِ، فالمعنىٰ أشرفُ معنىٰ، والعبارةُ أشرفُ عبارةٍ، لأن الاستعمالَ لها هنا يدلُّ علىٰ معنيين عظيمين، معنىٰ الخضوع والسجود. والمعنىٰ الأولُ أظهر لمقابلتهِ بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾.

١٦. تفيدُ مشروعيةَ السجودِ عند تلاوةِ هذه الآية، لقوله تعالىٰ عن الكافرين ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾ والمؤمن بخلاف ذلك.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

١٧. فيها بيانُ سببِ كفرِ الكافرين مع سطوعِ الأدلة، حيث لخصَه في التكذيبِ الذي دافعه العناد ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ أي: فمن كان التكذيبُ طبعَه والعنادُ صفتَه بعد ما تبين له الحقُّ فلا يستغربُ عدمَ إيمانهِ وانقياده.

١٨. تفيدُ أن التعبيرَ عن كذبِهم بالفعلِ المضارعِ يدلُ علىٰ حدوثِ التكذيب منهم وتجدده، كما ييستفادُ منه استحضارُ الحالةِ مثل قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، فهم مستمرون علىٰ التكذيبِ عنادًا، وليس ذلك اعتقادًا، فكما نُفي عنهم تجدُّدُ الإِيمان، وتجددُ الخضوعِ عند قراءة القرآن، أُثبت لهم تجددُ التكذيب.

١٩. تفيدُ أن الصفةَ الملازمة للكافرين في كلِّ زمانٍ التكذيب الذي بواعثه العناد، فهم يكذبون دائمًا، كما قال تعالىٰ لرسوله الأمين: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

٢٠. تفيدُ أن الإِخبارَ عنهم بأنهم يكذبون التي تفيدُ العناد يدلُ علىٰ أنه لا يوجدُ ما لأجلِهِ لا يؤمنون ولا يصدقون بالقرآن؛ بل الواقعُ بضدِ ذلك، فإن بواعثَ الإِيمانِ من الدلائلِ المتوفرة، ودواعي الاعترافِ بصدقِ القرآنِ والخضوعِ لدعوتهِ متظاهرة ولكنهم يكذبون، أي يستمرون علىٰ التكذيب عنادًا وكبرياء ويومئ إلىٰ ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

٢١. تفيدُ أن اللهَ يعلمُ ما يعملون من أعمالِ الكفرِ والتكذيب، وينونه سرًا في صدورِهم من حسدٍ وغلٍ وكبرٍ وبغض، فاللهُ يعلمُ سرَهم وجهرَهم، وسيجازيهم بأعمالهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

٢٢. تفيدُ أن إعلامَ اللهِ بما يعيه في نفوسِ العبادِ يحملُ العبدَ علىٰ مراقبتهِ

وتصفيةِ سريرته من كفرٍ وغلٍ وحسدٍ وبغضاء وغيرها.

٢٣. تفيدُ التهكم بالكافرين حيث بشرَهم بما يغمهم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢٤. تفيدُ أن الإيمانَ والعملَ الصالحَ وحده هو الذي ينجي من العذاب الأليم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

٢٥. تفيدُ أن جزاءَ من آمنوا باللهِ، وقبلوا ما جاءتَهم به الرسل، وعملوا الصالحات غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ؛ بل هو أجرٌ دائمٌ مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، يُقال: مننت الحبل، إذا قطعته[1]، قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وفي ذلك حثٌ لمزيدٍ من الإيمانِ والعمل الصالح.

٢٦. تفيدُ أن جزاءَ أهلِ الجنةِ لكمالهِ غيرُ ممنونٍ به عليهم، فهو من الجوادِ الكريم؛ لأن الأجرَ غيرُ الممنون هو الذي يعطاه صاحبُه مع كرامةٍ، بحيث لا يعرَّضُ له بمنة كما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤]، وهذا يفيد معنى: أن أجرَهم لا تشوبه شائبةُ كدرٍ فإن المنَّ ينغّصُ الإنعام، وقد وصفَ اللهُ الجزاءَ بأنه غيرُ ممنونٍ في أربعةِ مواضع هنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[فصلت: ٨]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم:٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٣٤١).

خامسًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما أخبرَ سبحانه إنكارِهم للحشرِ، أقسمَ هنا علىٰ صحةِ ذلك؛ لأنه ليس عند النذيرِ الناصحِ بعدَ إقامةِ الأدلةِ إلاّ الإيمان علىٰ صحةِ ما قال، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، ولما كانت هذِه الآياتُ من أعظمِ آياتهِ فيما يحدثه في كونهِ من تغييرٍ وتحولٍ، استدلَ منها علىٰ قدرتهِ علىٰ تغييرِ أحوالِ العباد فقال تعالىٰ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، ولما ظهرَ المرادُ في قدرتهِ علىٰ الميعاد، ولم يبق إلا العناد، قال منكرًا عليهم وموبخًا لهم في عدمِ إيمانِهم وخضوعهم: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾، ولما كان هذا استفهامًا إنكاريًا لعدمِ إيمانهم الذي ليس لهم فيه حجةٌ أو برهان، أضربَ عنه وبينَ سببَه الذي اضمروه في نفوسِهم، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، ولما كان هذا موجبًا لشديدِ الإنذار وضعَه موضعه تهكمًا بهم، فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ولما أخبرَ عنهم بهذا الهوان، رغبَهم إلىٰ قبولِ الإيمانِ بالاستثناء منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾، يؤتون ذلك في يوم الدين يوم تنشق السماء، وتمد الأرض فانثنىٰ آخرُها علىٰ أولها.

سادسًا: المناسبةُ بين فاتحةِ السورةِ وخاتمتِها:

ذكرَ في أولِها أمورًا من مشاهدِ أهوالِ القيامة، ومصيرَ من أخذَ كتابه بيمينه، ومن أخذه من وراء ظهره، وختمتْ بجزاءِ الكافرين الآخذين لكتبِهم من وراءِ ظهورِهم، والمؤمنين الآخذين لكتبهم بأيامنهم.

سابعًا: خصائصُ السورةِ في عرض هداياتها:

١. الحديثُ عن شق السماء ومد الأرضِ وتخلِيها عن ما فيها، وطاعِتهما لأمرِ ربهما في خضوعٍ وطاعة، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

٢. الحديثُ عن لقاءِ الإنسانِ لكدحه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

٣. الحديثُ عن الحسابِ اليسيرِ للمؤمن، وحالهِ عند انقلابهِ لأهله ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾.

٤. الحديثُ عن أعطاءِ الكافرِ كتابَه وراءَ ظهره، والدعوةِ عندها بالثبور ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾.

٥. بيانُ حالِ الكافرِ في الدنيا وما هو عليه من سرورٍ باتباعهِ لهواه وشهواته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾.

٦. الحديثُ عن أسباب ضلالِ الكافر وانحرافه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾.

٧. القسمُ بثلاثةِ أمورٍ: بالشفق، والليلِ وما وسق، والقمرِ إذا اتسق، في بيان ركوب الإنسانِ طبقًا عن طبق قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾.

٨. التساؤلُ من عدمِ إيمان الكافرين وخضوعِهم للقرآن الكريم مع قيامِ الأدلة والبراهين ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾.

٩. بيانُ أن اللهَ عليمٌ بما يوعون، والتعبيرُ عن علمهِ بـــ ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾.

١٠. تبشير الكافر بالعذابِ الأليم مع استثناء المؤمنين من ذلك ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾

ثامنًا: التكاليف الإيمانية والعملية من هدايات السورة:

١. المسارعة في الاستجابة لأمر الله الذي استجاب لأمره السماوات والأرض، وأن عدم الاستجابة سفه وخلل في العقول.

٢. إحسان الكدح الذي سوف يلقاه الإنسان أمامه، ويلقىٰ به ربه الكريم العظيم.

٣. المحافظة علىٰ سنة التيامن، رجاء أن يعطىٰ الإنسان كتابه بيمينه في الآخرة.

٤. اليقين بلقاء الله والكدح والحساب والجزاء، وما يكون بعده من نعيم وجحيم.

٥. عدم العيش علىٰ اللهو والباطل والهوىٰ والشهوات حتىٰ لا تكون سبب خزي في الآخرة.

٦. التعامل مع مراحل الحياة وتقلباتها كسنن ربانية، وهي مراحل مقدرة بحكمة عجيبة، ومن ورائها أسرار دقيقة.

٧. التفكر في آيات الله الكونية بما يقرر وحدانيته، ويدعم يقين المؤمن بلقاء ربه.

٨. اليقين بقدرة الله المطلقة في تغيير أحوال الكون كما يشاء، وتغيير أحوال العباد كيف شاء، وليس ذلك لأحد سواه

٩. بيان حجج القرآن للناس بصورة دائمة مع اليقين بأن عدم إيمان

www.Quranonlinelibrary.com

الكافرين ليس لقصور في حججه البينة وإنما هو العناد والتكذيب.

١٠. السجود عند تلاوة آيات السجدة من القرآن مع الاستسلام والخضوع لرب العالمين.

ثمَّ الكلام عن سورة الانشقاق ولله الحمد

والمنة ببلد الله الحرام في غرة محرم ١٤٣٦ هـ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سورة البروج

موضوع السورة:

تقويةُ قلوبِ المؤمنين وحملِهم على الثباتِ

من خلال موضوعين:

- الحديثُ عن نموذجٍ من الثباتِ
- التعريضُ بالمشركين بذكرِ بعضِ صفاتِهِ وأفعاله جل وعلا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة

أولًا: ما جاء من أحاديث عن السورة:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ (١).

ثانيًا: موضوعاتِ السورة:

موضوعُ السورةِ تقويةُ قلوبِ المؤمنين وحملِهم علىٰ الثباتِ والصبرِ في مواجهةِ إيذاءِ الكافرين والظالمين والمستكبرين، وذلك من خلالِ الحديث عن موضوعين:

الموضوعُ الأول: بيانُ نموذجٍ من الثباتِ والصبرِ من خلالِ الحديثِ عن قصةِ أصحابِ الأخدود، وبيانُ مصيرِ الفريقين بما يحملُ المؤمنين علىٰ الصبرِ أمامَ أذية المشركين (١-١١).

الموضوع الثاني: التعريضُ بالمشركين بذكرِ بعضِ صفاتهِ وأفعاله من خلالِ التعريضِ بقصتي فرعون وثمود وبيانِ عظيمِ صفاتهِ وإحاطتهِ بأعدائه، وعظمة كتابه المنزل الذي يؤمنون به (١٢-٢٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ح رقم (٣٠٧)، وأبو دَاوُدَ ح رقم (٨٠٥)، والنسائي ح رقم (١٠٥٣)، والبيهقي ح رقم (٢٥٨٦)، وأحمد ح رقم (٢٠٩٨٢)، وقال الترمذي: وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ثالثًا: المناسبةُ بين سورة الانشقاق والبروج:

مناسبةُ السورةِ لما قبلها: لما ذكرَ تعالىٰ أنه أعلمُ بما يجمعون للرسول ﷺ وللمؤمنين في صدورِهم من المكرِ، والخداعِ، وأذيةِ من أسلمَ بأنواعٍ من الأذىٰ، كالضربِ، والقتلِ، والصلبِ، والحرقِ بالشمس، وإحماءِ الصخرِ ووضعِ أجسادِ من يريدون أن يفتنوه عليه؛ ذكرَ أن هذه الشنشنة كانت في من تقدمَ من الأممِ يعذبون بالنار، فبين هنا نموذجًا للمؤمنين لمن فتنوهم بتعريضِهم علىٰ النارِ؛ ولكنهم ثبتوا علىٰ إيمانِهم ولم يرجعوا عن دينهم أو يحرموا، وأن الذين عذبوهم بين لعنتَه عليهم وسوءَ عاقبتِهم، وفي ذلك تعريضٌ بكفار قريش، وتسليةٌ للمؤمنين ما يعينهم علىٰ الصبرِ والثباتِ في وجه المكذبين الذين مع تكذيبِهم يلحقون ألوانًا من العذابِ بالمؤمنين محاولين بذلك زعزعتهم عن إيمانهم(١).

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٣٣٧)، وروح المعاني لمحمود الألوسي (٣٠/ ٨٥).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الأول
الحديثُ عن نموذج من الثباتِ وهم أصحابُ الأخدود

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١ - ١١].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ: أي: النجومِ العظام، وسميت بروجًا؛ لأنها تتبرج أي: تظهرُ، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾[الفرقان: ٦١]، وتدلُ مادةُ برجٍ في اللغةِ علىٰ البروزِ والظهور، ومنه سُمِّي القصرُ والقلعةُ برجًا لظهورِهما وبروزِهما فوقَ الأرضِ يراهما الشاهدُ دون عناء، وقد وقعَ خلافٌ بين السلفِ في معنىٰ البروجِ علىٰ أقوالٍ منها: النجومُ العظام، ومنها: المنازلُ التي تسيرُ فيها الكواكب، قال تعالىٰ:

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وقيل: ذاتُ القصور، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء:٧٨].

٢. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾: أي: الموعودُ به، وهو يومُ القيامةِ باتفاق، إذ وعدَ اللهُ تعالىٰ عبادَه أن يجمعَهم فيه لفصلِ القضاء.

٣. ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾: الشاهدُ فاعلٌ من شَهِد، والمشهودُ مفعولٌ منه، ولم يأت حديثٌ صحيحٌ يعينه[1]؛ لذا الأولىٰ حملُه علىٰ العموم، فكلُّ ما وقعَ عليه اسمُ شاهدٍ ومشهودٍ فهو داخلٌ في هذا القسمِ فلا وجَه لتخصيصهِ ببعضِ الأنواعِ أو الأعيانِ إلا علىٰ سبيلِ التمثيل، فالله شاهدٌ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٧٩]، والرسولُ شاهدٌ كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٤١]، والمؤمنون شهودٌ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج:٧٨]، والملائكةُ الحفظةُ شهود، واليومُ والليلةُ وأعضاءُ الإنسانِ كلُّها يصحُ أن يطلقَ عليهم شهود، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد يكون المشهودُ عليه الإنسان، وقد يكون المشهودُ يومَ الجمعة، ويومَ عرفة، ويومَ النحر؛ لأن الملائكة تشهده، وقد يكون يومَ القيامة. كما في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]،

(١) وما وردَ أن الشاهدَ هو يومُ الجمعة، والمشهودُ يومُ عرفة لم يصح سندا.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فالشاهدُ والمشهود مرادٌ بهما النوع. فالشاهد: الرائي، أو المخبر بحق لإلزام منكرِه. والمشهودُ: المَرئِي أو المشهودُ عليه بحق. وحذفَ متعلقَ الوصفين لدلالة الكلام عليه(١).

٤. ﴿قُتِلَ﴾: لعن، فهو دعاءٌ علىٰ الكفارِ بالإبعادِ من رحمةِ اللهِ تعالىٰ، أو بمعنىٰ هلكَ، فيكون خبراً.

٥. ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: جمعُ خد، وهو الشقُ العظيمُ المستطيلُ في الأرضِ كالخندقِ وشبهه.

٦. ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: هم الذين حفروه من الكفارِ ورموا فيه المؤمنين، وهم قومٌ من الكفارِ عَمَدوا إلىٰ من عندهم من المؤمنين باللهِ فقهرُوهم وأرادُوهم أن يرجعوا عن دينِهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرضِ أخدودًا واججوا فيه نارًا بوقودٍ عظيمٍ ففتنوهم به، لكن ذلك لم يردهم عن دينِهم فقذفوهم فيه.

٧. ﴿ٱلۡوَقُودِ﴾: ما يوقدُ به النار، وقيل ذاتُ الوقود أي: ذاتُ التوقد، وهو الأصحُ لأن القصدَ وصفُ النارِ بالشدةِ والعظم.

٨. ﴿عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾: بمعنىٰ جلوسٌ علىٰ حافتِها وشفيرِها يلقون المؤمنين فيها، ويلحظون فعلَ النارِ بهم.

٩. ﴿شُهُودٞ﴾: مشاهدين لذلك حضورا.

١٠. ﴿نَقَمُواْ﴾: كرهوا، وقيل: ما عابوا.

١١. ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: أي الغالبُ بقدرته، المنيع بعزته.

١٢. ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: الحميدُ في أفعالهِ وأقوالهِ وصفاتهِ.

---

(١) انظر: التنوير والتحرير لابن عاشور (٣/ ٧٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

١٣. ﴿فَتَنُوا۟﴾: أحرقوا، قاله ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «وأصلُ الفتنةِ المعاملةُ بالشدةِ وإيقاعِ العناء»(١).

١٤. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾: أي: لم يقلعوا ويندموا على ما أسلفوا.

١٥. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾: أي: العظيم.

ثانيًا: المناسبةُ بين المقسمِ به والمقسم عليه:

فالقسمُ بالسماءِ وبروجِها دالٌّ على عظمة الله وقدرتهِ على البعث؛ ولما كان القسمُ بها دالًا على البعثِ أقسمَ بعده به، ولما كان موضوعُ الشاهدِ والمشهودِ أعظمَ أحوالِ ذلك اليوم، والسورةُ تعرضت كذلك لبعضِ صوره في الدنيا الذي أعظمُه في الشاهدِ ربُّ العزة، وفي المشهودِ الذي أعظمُه المؤمنون المعذبون أقسمَ بكلِّ شاهدٍ مشهودٍ للمناسبةِ الدقيقة بين ﴿وَشَاهِدٍ﴾ ﴿وَمَشْهُودٍ﴾.

والإقسامُ بهذه الأمورِ الثلاثةِ متناولٌ لكلِّ موجودٍ في الدنيا والآخرة، وكلٌّ منها آيةٌ مستقلةٌ دالةٌ على ربوبيتهِ وإلهيته، فأقسمَ بالعالمِ العلوي، وهي السماءُ وما فيها من البروجِ التي هي أعظمُ الأمكنةِ وأوسعُها، ثم أقسمَ بأعظمِ الأيامِ وأجلِها قدرا الذي هو مظهرُ ملكهِ وأمرهِ ونهيهِ وثوابهِ وعقابهِ ومجمعِ أوليائهِ وأعدائهِ والحكم بينهم بعلمهِ وعدله، ثم أقسمَ بما هو أعمُّ من ذلك كلِه وهو الشاهدُ والمشهود، وناسب هذا القسمُ ذكرُ أصحابِ الأخدود الذين عذبوا أولياءه وهم شهودٌ على ما يفعلون بهم والملائكةُ شهودٌ عليهم بذلك، والأنبياءُ وجوارحُهم تشهدُ به عليهم.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٦).

ثالثًا: الهدايات المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ عظمَ السماءِ وأبراجِها المقسمِ بها، سواءً كانت النجومُ العظامُ الهائلةُ أو المنازلُ التي تتنقلُ فيها تلك الأجرامُ علىٰ أكملِ ترتيبٍ ونظامٍ في أثناءِ دورانها في مجالاتٍ لا تتعداها أو غيرَها بما يدلُ علىٰ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ، وسعةِ علمه وحكمتهِ ورحمته، إذ خلقَها بتلك الضخامةِ، وسيرَها علىٰ تلك المقاديرِ المضبوطةِ لينتفعَ بها الناس.

٢. تفيدُ أن يومَ القيامةِ يومٌ كائنٌ لا محالة؛ لأنَّ اللهَ سماه باليومِ الموعود، ووعدَ بمجيئِه، وعدَ أن يجمعَ فيه الخلائقَ أولَهم وآخرهم، وقاصيَهم ودانيهم، ووعدَ بالحسابِ والجزاءِ فيه، فهو وعدٌ لا يمكن أن يتغيرَ، لأن اللهَ لا يخلفُ الميعاد، والقسمُ به يؤكدُ تحققَ وقوعهِ، إذ القسمُ لا يكون إلا بشيءٍ ثابتِ الوقوع.

٣. تفيدُ عظمَ يوم القيامة، فقد أبهم بعدَه في المقسمِ به في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ بما يدلُ علىٰ كثرتهِ، ومن هنا تعددت الأقوال، وأعظمُ شاهدٍ ومشهودٍ وأخطرُه ما يكون في ذلك اليوم في يومِ القيامة، فقد يكون أقسمَ بيومِ القيامةِ، وأقسمَ بما فيه من شاهدٍ ومشهود تعظيمًا لذلك اليوم وإرهابًا لمنكريه؛ لأن الجميعَ في ذلك اليوم بين شاهدٍ من رسلٍ وملائكةٍ وأعضاء، ومشهود.

٤. فيها أن افتتاحَ السورةِ بهذا القسمِ تشويقٌ إلىٰ ما يردُ بعده، وإشعارٌ بأهميةِ المقسمِ عليه، وهو مع ذلك يَلفتُ ألبابَ السّامعين إلىٰ الأمورِ المقسمِ بها، لما فيها من دلائلِ عظيمِ القدرةِ الإلهيةِ المقتضية تفردَ الله تعالىٰ بالإلهيةِ وإبطالَ الشريك، وقدرتَه علىٰ البعث والنشور.

www.Quranonlinelibrary.com

٥. فيها أن الحديثَ عن أصحابِ الأخدودِ وما يفعلونه بالمؤمنين وهم شهودٌ يكون صغيرًا أمامَ عظمةِ اليومِ الموعود، وما فيه من شاهدٍ ومشهود، وما ذكرَه العلماءُ من أقوالٍ يكون من بابِ التمثيلِ وليس التحديد.

٦. فيها بيانٌ لقدرةِ اللهِ وعظمتهِ حيث نوعَ الخليقةَ إلىٰ شاهدٍ ومشهود، كما نوَّعها إلىٰ مرئي لنا وغيرَ مرئي كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ – ٣٩]، كما نوَّعها إلىٰ أرضٍ وسماء، وليلٍ ونهار، وذكرٍ وأنثىٰ وهذا التنويعُ والاختلافُ من آياته سبحانه.

٧. فيها بيانُ قبحِ أذيةِ المؤمنين، حيث بدأَ الحديثُ عنهم بإعلانِ اللعنةِ عليهم بقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ بما يدلُ علىٰ غضبِ الحليمِ علىٰ الفعلةِ وفاعليها.

٨. فيها دليلٌ علىٰ لعنةِ اللهِ علىٰ من فعلَ ذلك وطردِه من رحمةِ الله، وتنبيهًا لكفارِ قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، علىٰ أنهم ملعونون بجامعِ ما اشتركوا فيه من تعذيب المؤمنين.

٩. فيها بيانُ فضلِ الشهادةِ في سبيلِ الله تعالىٰ، وتحملِ الأذىٰ في سبيلِ الثبات علىٰ الدينِ وعدم التزعزعِ عن الحق.

١٠. فيها بيانٌ لما يبتلىٰ به المؤمنون في هذه الحياة ويصبرون فيكون جزاؤُهم الجنةَ، وليس ذلك لهوانِهم عند اللهِ، بل لرفعةِ درجاتهم وليتخذَ منهم شهداء.

١١. فيها تصويرٌ لقسوةِ قلوبِ الكافرين ومدىٰ حقدِهم علىٰ المؤمنين في قوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾، وهذا من أعظمِ ما يكون من التجبرِ وقساوةِ القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفرِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

بآياتِ الله ومعاندتها، ومحاربةِ أهلها، وتعذيبِهم بهذا العذاب وهم يحفرون الأخدود، ويوقدون النار، ويلقون فيها المؤمنين والمؤمنات، وهم قعودٌ يشاهدون أطوارَ التعذيبِ وفعلَ النارِ في أجساد المؤمنين بصورةٍ تنفطرُ منها القلوب، فوصفهم بهذه الحالة القبيحة بأنهم قعودٌ علىٰ جانبِ الأخدودِ شاهدين ما يجري علىٰ عبادِ الله تعالىٰ وأوليائهِ عيانا ولا تأخذَهم بهم رأفةٌ ولا رحمةٌ يدلُ علىٰ شدةِ إجرامهم.

١٢. تفيدُ أن أهلَ الكفرِ يعيبون ويبغضون أهلَ الإيمانِ بما ينبغي مدحُهم ومحبتُهم عليه، المتمثلُ في إيمانِهم باللهِ العزيزِ الحميد الذي له ملكُ السماواتِ والأرضِ وهذا الوصفُ يقتضي إكرامَهم وتعظيمَهم ومحبتَهم، فعاملُوهم بضدِ ما يقتضي أن يعاملوا به، وهذا شأنُ أعداءِ الله دائما ينقمون علىٰ أوليائهِ ما ينبغي أن يحبَوا ويكرموا لأجلهِ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، وكذلك قوم لوط نقموا من عبادِ اللهِ تنزيهِهم عن مثلِ فعلهم القبيح فقالوا: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وكذلك أهلُ الإشراكِ ينقمون من الموحدين تجريدَهم التوحيدَ وإخلاصَ الدعوةِ والعبوديةِ لله وحده، وكذلك أهلُ البدع ينقمون من أهلِ السنة تجريدَ متابعتِها وترك ما خالفها، وكذلك الرافضةُ ينقمون علىٰ أهلِ السنة محبتَهم للصحابةِ جميعَهم وترضيَهم عنهم وولايتَهم إياهم وتقديمَ من قدمَه رسولُ الله منهم وتنزيلَهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها، وكذلك أهلُ الرأي المُحدث ينقمون علىٰ أهلِ الحديث وحزبِ الرسول أخذَهم

بحديثِهِ وتركهم ما خالفه، وكلٌّ هؤلاء لهم نصيبٌ وفيهم شبَه من أصحابِ الأخدود وبينهم وبينهم نسبٌ قريبٌ أو بعيد.

١٣. تفيدُ أن العزةَ المطلقةَ لله، فهو القادرُ علىٰ كلِّ شيء، القاهرُ لكلِّ شيء، الذي لا يضامُ من لاذَ بجنابهِ المنيع، وإن تأخرَ بطشُه بالظالمين لحكم قد لا تعلم في حينها.

١٤. فيها أن ذكرَ اسمهِ العزيزِ يشيرُ إلىٰ أنه ما تركَ أهلَ ولايته لعجزٍ، بل تركهم من بابِ الابتلاءِ والاختبارِ ليعظمَ أجورَهم، ويعظُمَ عقابُ أعدائِهم والانتقامُ منهم. ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾.

١٥. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ حميدٌ في أقوالهِ وأوصافه وأفعالهِ وشرعهِ وقدره.

١٦. تفيدُ أن اللهَ تباركَ وتعالىٰ مستحقٌ للحمدِ والثناء، فهو الحميدُ الذي لا يكون منه إلا ما هو محمود.

١٧. فيها إثباتُ كمالِ ملكه لما في السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهو مالكُهما والقيمُ عليهما المتصرفُ فيهما كيف يشاء، وقررَ ذلك بقولهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ أي خاصةً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي علىٰ جهةِ العمومِ مطلقًا فكلُّ ما فيهما جديرٌ بأن يعبدَه وحدَه ولا يشركَ به شيئًا.

١٨. فيها أن إجراءَ الصفاتِ الثلاثِ علىٰ اسمِ الجلالة، وهي: (العزيزُ - الحميدُ - الذي له ملك السماوات والأرض) لبيانِ أنهم آمنوا بربٍّ حقيقٍ بأن يُؤمنَ به لأجلِ صفاتهِ التي تقتضي عبادتَه ونبذَ ما عداه، فذكرَ الأوصافَ التي يستحقُ بها أن يؤمنَ به تعالىٰ، وهو كونُه تعالىٰ عزيزًا غالبًا قادرًا يخشىٰ عقابُه وانتقامُه لأوليائه، حميدًا منعمًا يجبُ له الحمدُ علىٰ نعمهِ وآلائه، له ملكُ

السمواتِ والأرضِ ليس لغيرِه ملكٌ في شيءٍ معه، فكيف ينكر علىٰ المؤمنِ إيمانَه بربهِ ذي الصفات العلا من الجلالِ والجمالِ والكمال، فحسبُ العبدِ من اللهِ هذه الصفات؛ فإنها توجبُ الإيمانَ باللهِ وطاعتهِ ومحبتهِ وخشيته.

١٩. فيها بيانُ جهلِ الكافرِ بربه؛ لأنهم لو علموا أنهم جميعًا مماليكُ لله، ليس لأحدٍ علىٰ أحدٍ سلطةٍ من دونِ إذنِ المالك ما وقع منهم ما وقع.

٢٠. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ عليمٌ وسميعٌ وبصيرٌ بكلِّ شيءٍ في الوجودِ في السماوات والأرض، لا تخفىٰ عليه خافية ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

٢١. تفيدُ أن من علمَ أن اللهَ محيطٌ بأعمالهِ، مجازٍ عبيدَه علىٰ فعالِهم، لا يحدثُ منهم ما حدثَ من الظلمِ والغرور.

٢٢. فيها وعيدٌ لأعداءِ أوليائه، أي إنه علمَ ما فعلوا فهو يجازيهم، ووعد لأوليائه فهو سبحانه شهيد علىٰ ما حصل لهم من أذىٰ، وأنه تعالىٰ هو المنتقم لهم المجازيهم علىٰ ما أصابهم في ذات الله تعالىٰ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

٢٣. تفيدُ جزاءَ الذين يفتنون المؤمنين في دينِهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾، والظاهرُ في أن ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ عامٌ في كلِّ من ابتلىٰ المؤمنين والمؤمنات بتعذيبٍ أو أذىٰ، وأن لَهم عذابين: عذابًا لكفرِهم، وعذابًا لفتنتهم.

٢٤. تفيدُ أن الجزاءَ من جنسِ العمل، ونصَ علىٰ ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾ وهو مفهومٌ من عذابِ جهنم ليكون مقابلًا للحريقِ في الأخدود بنفسِ اللفظِ الذي يدلُ علىٰ الحدث؛ ولكن حريقٌ مختلف في شدته ومادته ومدته، فحريق الدنيا لهؤلاء بنار أوقدها الخلق، وحريق الآخرة للكافرين بنار أوقدها الخالق، ونار الدنيا وقودها الحطب، ونار الآخرة وقودها الحجارة والبشر، حريق الدنيا

لحظة وانتهىٰ، وحريق الآخرة خالد لا يفنىٰ، حريق الدنيا للمؤمنين معه رضىٰ الرب، وحريق الآخرة للكافرين معه غضب الرب.

٢٥. فيها بيانُ رحمةِ اللهِ بعبادِه حيث دعَاهم مع إجرامِهم إلىٰ التوبة، فأخبرَ سبحانه أنه أعدَّ لهم عذابَ جهنم وعذابَ الحريقِ إن لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنَوا أولياءه وعذبُوهم بالنارِ لغفر لهم، ولم يعذبهم، وهذا غايةُ الكرمِ والجود، قال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «انظروا إلىٰ هذا الكرمِ والجودِ يقتلون أولياءَه ويفتنونَهم وهو يدعُوهم إلىٰ التوبةِ والمغفرة»[١].

٢٦. فيها الترغيبُ في التوبةِ والإنابةِ وعدمِ اليأسِ من مغفرتهِ وعفوه ولو كان من العبدِ ما كان فلا عداوةَ أعظمُ من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرقَ بالنارِ من آمن باللهِ وحده وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

٢٧. تفيدُ أن الكافرَ إذا أسلم يغفرُ له ما فعلَ في حالِ كفرِه لقوله ﷺ: (أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)[٢].

٢٨. تفيدُ أن التعرضَ لأولياءِ اللهِ سببٌ للعذابِ الأليم في الآخرةِ والخزي في الدنيا.

٢٩. تفيدُ أن الإنسانَ ينبغي أن يضحي بحياتهِ ولا يهتزُ في عقيدتهِ، بل عليه أن يستعين باللهِ ويصبرَ حتىٰ ينصرَه، أو يكتبَ الله له شهادة ينال بها نعيمًا لا ينفد في الآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٤٦).

(٢) صحيح مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كَوْنِ الإِسْلَامِ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ وَكَذَا الْهِجْرَةُ وَالْحَجُّ ح رقم (٣٣٦).

٣٠. تفيدُ الترغيبَ في الإيمانِ والعملِ الصالح الذي به سعادة الدارين؛ لأنه لما ذكرَ عقوبةَ الظالمين، ذكرَ ثوابَ المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

٣١. تفيدُ الترغيبَ في الجنةِ بذكرِ بعضِ أوصافها.

٣٢. تفيدُ أن أعظمَ فوزِ الفوزُ بالجنةِ لقوله تعالىٰ بجوارحهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فهو بلا شكٍ فوزٌ كبير؛ لأنه نجاةٌ من النار أولًا، ودخولُ الجنةِ ثانيًا، مع نيلِ رضوانُ اللهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٣٣. تفيدُ أن القرآنَ مثانٍ؛ لما ذكرَ وعيدَ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ذكرَ وعدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانيًا.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما كانت السورةُ في بيانِ قدرةِ الله علىٰ البعث، وأخذِه للظالمين بما يحملُ المؤمنين علىٰ الصبرِ والثبات، أقسم بما يدلُ علىٰ ذلك فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ أي العاليةُ غايةُ العلو، المحكمةُ غايةُ الإحكام، ولما كانت هذه الجملةُ من القسمِ دالةً علىٰ البعثِ قال تصريحًا به: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، ولما كان الجمعُ لأجلِ العرض، وكان العرضُ لا بد فيه من شاهدٍ ومشهود عليهم قال هنا: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾.

ولما كان جوابُ القسمِ معلومًا طواه السياقِ هنا، ولما كان مقصودُ السورةِ تثبيتَ المؤمنين بدأَ الحديثَ بنموذجٍ فيه تسليةٌ للمؤمنين بما وقعَ

www.Quranonlinelibrary.com

لأمثالِهم، وتحذيرٌ للمشركين مما كان على شاكلتِهم، فقال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، ولما ذمَّهم سبحانه وتعالىٰ وسجلَ لعنتَه عليهم بين سببَ ذلك ببدلِ اشتمالٍ من أخدودِهم فقال: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾، ولما كان هذا الفعلُ العظيمُ لا يكون من عاقلٍ إلا لسببٍ يليقُ به، بين قبحَ السببِ الذي دفعهم، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، ولما بين قبيحَ فعلهم وسببَ عذابِهم بين عاقبتهم إن لم يتوبوا فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾، ولما ذكرَ عقابَ الكافرين بادئًا به لأن المقامَ له، أتبعَه بالحديث عن ثوابِ المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾، وذلك أن من كِبرِه أن هذا الوجودَ كلَّه يصغرُ عن أصغرِ شيءٍ منه.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الموضوعُ الثاني
تهديدُ المشركين بذكرِ بعضِ صفاتهِ وأفعاله تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ
﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾
بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ
مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ١٢ - ٢٢].

أولًا: المناسبةُ بين الآيات:

لما ذكرَ تعالىٰ ما توعدَ به الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات من أجلِ إيمانِهم أخبرَ رسولَه بعظيمِ بطشِه، وجليلِ صفاته، معرضًا بذلك بمشركي قومِه وطغاتِهم الذين آذوا المؤمنين في مكةَ من أجلِ إيمانهم.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. بَطْشَ: البطشُ هو الأخذُ بعنفٍ وشدة، والمرادُ بطشُه بأعدائهِ الذين كذبوا رسلَه وخالفَوا أمرَه، فهو قويٌّ عظيم.

٢. يُبْدِئُ ويعيد: أي: يبدئُ الخلقَ في الدنيا، ثم يعيدُهم في الآخرةِ بلا ممانعٍ ولا مدافع.

٣. ٱلْغَفُورُ: هو الكثيرُ المغفرةِ لذنوبِ عباده، الغفارُ لذنوبِ من أنابَ إليه وخضعَ لديه.

www.Quranonlinelibrary.com

٤ . ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾: المتوددُ لأوليائهِ بجميلِ أفعالهِ وكثيرِ إحسانه، وذكرَ الأزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه يجوزُ أن يكونَ الودودُ بمعنىٰ: المودودُ، كالحلوبِ والركوبِ بمعنىٰ المحلوبِ والمركوب»[١]، فعلىٰ هذا في قولهِ الودودُ معنيان: أحدُهما أنه المحبُ لعبادِه المؤمنين، والآخرُ الذي يحبُه المؤمنون.

٥. ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ : العرشُ هو السريرُ في اللغةِ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [النمل:٤٢]، وفي غالب القرآنِ هو العرشُ المعروفُ فوقَ السموات، وفي التفسيرِ أنه لا يُقدرُ قدرَه إلا الله، وذو العرش: صاحبُ العرشِ، إذ هو خالقُه ومالكُه.

٦ . ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾: من المجدِ وهو الشرفُ ورفعةُ القدرِ، وهو بمعنىٰ العلو والعظمة، والمجدُ سعةُ الأوصافِ وعظمتِها. قرأ أكثرُ القراءِ بالرفعِ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ فهو صفةٌ لذو العرش، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ - رحمهما الله - بالخفضِ ﴿المجيدِ﴾ علىٰ أنه صفةٌ للعرش[٢]

٧. ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾: أي: يفعلُ ما يشاءُ متىٰ شاءَ وكيف شاء، لا يردُه أحدٌ عن شيءٍ ولا يَحدُّه، فهو لا يُسألُ عما يفعل، لعظمتهِ وقهرِه وحكمتهِ وعدلهِ وكمالِ علمهِ.

٨. ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾: جمعُ جندٍ بالضمِ وهو العسكرُ المعدُ للقتالِ.

٩ . ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾: أي: هل بلغك ما حلَّ بهم من البأس.

١٠ . ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾: أي في شكٍ وريبٍ وكفرٍ وعناد.

١١ . ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾: أي قادرٌ عليهم، قاهرٌ لا يفوتونه ولا يعجزونه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٢٣).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨١).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

١٢. ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾: أي من الزيادةِ والنقصانِ والتحريفِ والتبديل.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادة من الآيات:

١. تفيدُ التهديدَ الشديدَ لأهلِ الجرائمِ والذنوبِ العظامِ من الجبابرةِ والظلمةِ، فالله تعالىٰ لهم بالمرصادِ، وأخذُه لهم شديدٌ، ومصارعُهم تحكي ذلك وتوضحُه، ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ كما قال اللهُ تعالىٰ في آخر سورة هود بعد إهلاك القرىٰ الظالمة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

٢. تفيدُ أن إظهارَ حقيقةِ البطشِ وشدتهِ في هذا الموضعِ هو الذي يناسبُ مع ما مر من بطشٍ يرونه كبيرًا وهو صغيرٌ، وفي ذلك تطمينٌ للمؤمنين بأن لهم ربًّا ينتصرُ لهم.

٣. تفيدُ أن اللهَ قادرٌ علىٰ أخذِ الطغاةِ وقتَ إجرامِهم وأن يبطشَ بهم؛ ولكنه يؤخرُه لحكمٍ كثيرةٍ منها: حتىٰ يملي للظالمِ، وليتخذَ من عباده شهداء، وليفتحَ بابَ الإنابةِ والتوبة ليغفرَ لهم، وغيرِ ذلك من الحكم.

٤. تفيدُ شرفَ النبيِّ ﷺ الذي أضافَه إلىٰ ربوبيتهِ، وهو أعظمُ من ركنَ إلىٰ معونتهِ في مواجهةِ أعدائه ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

٥. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ هو المنفردُ بإبداءِ الخلقِ وإعادتهِ، فلا مشاركَ له في ذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾، أي إنه يخلقُ خلقَه ثم يفنيَهم ثم يعيدُهم أحياءً ليجازيَهم يوم القيامة.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٦. تفيدُ أن الذي يبدئُ ويعيدُ لا يكون بطشُه إلا قويًا شديدًا؛ لأنه لا يعجزُه شيء، ومن كان كذلك فلا أشدَ من بطشِهِ، فهذه الجملةُ تعليلية.

٧. تفيدُ أن اللهَ تباركَ وتعالىٰ هو الغفورُ البالغُ المغفرةَ لمن أنابَ إليه مهما عظمت ذنوبُه، الذي لا يغلقُ بابَه علىٰ عائدٍ وتائب، بل يغفرُ ذنبَ من لم يشرك به وإن لم يتب من ذنبِهِ إن شاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾.

٨. تفيدُ أن اللهَ هو الودودُ، الوادُ لأحبابه، الذي يودُ من تابَ إليه وأقبلَ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، والمودةُ هي المحبةُ الصافية.

٩. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ لكرمِهِ يتوددُ لأوليائِهِ وعبادِهِ بنعمِهِ ومغفرتِهِ وجزائِهِ.

١٠. تفيدُ أنه جل وعلا المحبوبُ، قال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحِهِ: «الودودُ الحبيب»[(١)]، واللفظُ يدلُ علىٰ الأمرين علىٰ كونِهِ وادًا لأوليائِهِ ومودودًا لهم، فأحدُهما بالوضعِ والآخرُ باللزوم، فهو الحبيبُ المحبُ لأوليائِهِ يحبُهم ويحبونه، فاللهُ تعالىٰ يُحبُه أحبابُه محبةً لا يشبهها شيء، وذلك لما عرفوا من كمالِهِ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وعظيمِ نعمِهِ وآلائه، فمحبتُه في قلوبِ خواصِّ خلقِهِ لا يشبهها شيءٌ من أنواعِ المحاب، ولهذا كانت محبتُه أصلَ العبودية، وهي المحبةُ التي تتقدمُ جميعَ المحابِ وتغلبُها، وإن لم يكن غيرُها تبعًا لها كانت عذابًا علىٰ أهلِها، وكلتا الصفتين مدح؛ لأنه جلَّ ذكرُه إذا أحبَّ عبادَه المطيعين فهو فضلٌ منه، وإن أحبَه عبادُه العارفون فلما تقررَ عندهم من كريمِ إحسانه.

(١) بين ابن حجر أنه قول ابن عباس، انظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٩).

١١. تفيدُ أن من مظاهرِ الكمالِ الإلهي جمعُه بين صفتي البطش، والمغفرةِ والود، فهنيئًا لأوليائهِ بحبهِ لهم، وويلٌ لأعدائه من بطشه بهم.

١٢. تفيدُ أن قرنَ ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ بالغفورِ يدلُ كذلك علىٰ أن أهلَ الذنوبِ إذا تابوا إلىٰ اللهِ وأنابوا، غفرَ لهم ذنوبَهم وأحبَّهم، واللهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِه حين يتوبُ من رجل له راحلةٌ عليها طعامُه وشرابُه وما يصلحه، فأضلَّها في أرضٍ فلاةٍ مهلكة، فأيسَ منها، فاضطجعَ في ظلِّ شجرةٍ ينتظرُ الموت، فبينما هو علىٰ تلك الحال، إذا راحلتُه علىٰ رأسه، فأخذَ بخطامِها، فاللهُ أعظمُ فرحًا بتوبةِ العبد من هذا براحلتهِ[1]، وهذا أعظمُ فرحٍ يقدر، فهو الغفورُ الودود، يغفرُ لمن تاب إليه ويودُه ويحبُه، فما ألطفَ اقترانَ اسمِ الودودِ بالغفورِ، وبالرحيمِ كذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود:٩٠]، فإن الرجلَ قد يغفرُ لمن أساءَ إليه ولا يحبُه، وكذلك قد يرحمُ من لا يحبُّ، والربُّ تعالىٰ يغفرُ لعبدِه إذا تابَ إليه ويرحمُه ويحبُه مع ذلك فإنه يحبُّ التوابين، فإذا تابَ إليه عبدُه أحبَّه ولو كان منه ما كان.

١٣. تفيدُ أنه تعالىٰ ذكرَ عبادَه بما يدعوهم للإنابةِ إليه، فهو شديدُ البطشِ لمن تمردَ عن عبودتهِ، غفورٌ ساترٌ لذنوبِ من أنابَ إليه، ودودٌ لطيفٌ بهم محسنٌ إليهم.

١٤. تفيدُ إثباتَ العرشِ لله تعالىٰ مع بيانِ عظمتهِ، علىٰ قراءةِ الخفضِ

---

(١) ونصه في صحيح مسلم: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّىٰ أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ)، كتاب: التوبة، باب: فِي الْحَضِّ عَلَىٰ التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا ح رقم (٢٧٤٤).

www.Quranonlinelibrary.com

في المجيد، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائي، فيكون ذلك صفةٌ للعرش، ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ وقد وصفَ اللهُ عرشَه في كتابِهِ بالعظمةِ، فقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] الذي من عظمتِهِ أنه وسعَ السماواتِ والأرضَ والكرسي، فالسماواتُ السبعُ والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديهِ كحلقةٍ ملقاةٍ في أرضِ فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقةِ في الفلاة، قال ابنُ عباس: السماواتُ السبعُ في العرشِ كسبعةِ دراهم جعلن في ترس. كما وصفَه بالكريم، قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ووصفَه هنا بالمجيد، ومجادةُ العرش: في علوه في الجهة، وعظمتِهِ في المقدار، وحسنِهِ في صورته وتركيبه، فإنه قيل: العرشُ أحسنُ الأجسام صورةً وتركيبًا[1].

١٥. تفيدُ أن تخصيصَ العرشِ بالإضافةِ إليه ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ تشريفًا للعرش، وتنبيهًا علىٰ أنه أعظمُ المخلوقات، وأخصُها بالقربِ منه تعالىٰ، فهو كما يضيفُ إلىٰ نفسِهِ بــ« ذو» صفاتُه القائمةُ به كقوله ذو القوة، ذو الجلال والإكرام، ويقال ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة ونظائر ذلك، فلو كان حظُّ العرشِ منه حظَّ الأرضِ السابعة لكان لا فرقَ أن يقالَ ذو العرش وذو الأرض. بل هو أحقُّ المخلوقاتِ أن يوصفَ بذلك لسعتِهِ وحسنِهِ وبهاءِ منظره، ولا يقدرُ قدرَ عظمتِهِ وحسنِهِ وبهاءِ منظره إلا الله.

١٦. تفيدُ أن وصفَ عرشِهِ بالمجيدِ يفيدُ تمجيدَ خالقِه ومبدعِه، واللهُ في كتابِهِ وصفَ نفسَه وعرشَه وكتابَه بالمجيد.

١٧. فيها بيانُ عظمةِ الرحمنِ صاحبِ العرشِ العظيمِ العالي علىٰ جميعِ

(١) البحر المحيط أبو حيان الأندلسي (٨/ ٣٣٩).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

خلقه ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ هذا علىٰ قراءةِ الرفع، فإن المجيدَ يكون نعتًا لله، وهو حقٌّ ذو المجد لما له من صفاتِ التعالي والجلالِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ والعلم، فالمجيدُ متضمنٌ لكثرةِ صفاتِ كمالهِ وسعتِها وعدمِ إحصاءِ الخلق لها، وسعةِ أفعالهِ وكثرةِ خيرِه ودوامه، فالمجدُ في لغةِ العربِ كثرةُ أوصافِ الكمالِ، وكثرةُ أفعالِ الخير، فهو المجيدُ العظيمُ الواسعُ القادرُ الغني ذو الجلالِ والإكرام.

١٨. تفيدُ أن الفعّالَ لما يريدُ هو اللهُ وحدَه لا شريكَ له، فإذا أرادَ شيئًا قال له كن فيكون، وليس أحدٌ فعالٌ لما يريدُ إلا الله ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أرادَ شيئًا فعلَه لا معقبَ لحكمهِ، ولا يعجزُه شيءٌ يريدُه، ولا يمتنعُ منه شيءٌ يطلُبه. قال القفالُ: " فعالٌ لما يريدُ علىٰ ما يرَاه، لا يعترضُ عليه معترض، ولا يغلبُه غالب، فهو يدخلُ أولياءَه الجنةَ لا يمنعُه منه مانع، ويدخلُ أعداءَه النارَ لا ينصرُهم منه ناصر، ويمهلُ العصاةَ علىٰ ما يشاءُ إلىٰ أن يجازيَهم ويعاجلَ بعضَهم بالعقوبةِ إذا شاء، ويعذبَ من شاءَ منهم في الدنيا وفي الآخرةِ يفعلُ من هذه الأشياء ومن غيرِهما ما يريد»[١].

١٩. فيها ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليلٌ علىٰ أنه سبحانه يفعلُ بإرادتهِ ومشيئته، فإن (ما) موصولةٌ عامةٌ، أي: يفعلُ كلَّ ما يريدُ أن يفعلَه، وهذا في إرادتهِ المتعلقةِ بفعلهِ، وأنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساقَ ذلك في معرضِ المدحِ والثناءِ علىٰ نفسهِ، وأن ذلك من كمالهِ سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمالِ في وقتٍ من الأوقات.

٢٠. تفيدُ أن فعلَه سبحانه وإرادتَه متلازمان، فما أرادَ أن يفعلَه فعلَه، وما

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ١٩٩).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فعلَه فقد أرادَه، بخلافِ المخلوقِ فإنه يريدُ مالا يفعل، وقد يفعلُ مالا يريدُ، فما ثم فعالٌ لما يريدُ إلا الله وحده.

٢١. فيها إثباتُ إرادةٍ متعددةٍ بحسبِ الأفعال، وأن كلَّ فعلٍ له إرادةٌ تخصُه، وهذا هو المعقولُ في الفطرِ، وهو الذي يعقلُه الناسُ من الإرادة، فشأنه تعالىٰ أنه يريدُ ويفعلُ ما يريد.

٢٢. تفيدُ أن كلَّ ما صلحَ أن تتعلقَ به إرادتُه جازَ فعلُه، فإذا أرادَ أن ينزلَ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا، وأن يجيء يومَ القيامةِ لفصلِ القضاء، وأن يُري نفسَه لعباده، وأن يتجلىٰ لهم كيفَ شاء، وأن يخاطبَهم ويضحَك إليهم، وغيرَ ذلك مما يريدُ سبحانه لم يمتنع عليه فعلُه، فإنه فعالٌ لما يريد، وإنما تتوقفُ صحةُ ذلك علىٰ إخبارِ الصادقِ به، فإذا أخبرَ به وجبَ التصديقُ به، وكان ردُّه ردًا لكمالِهِ الذي أخبرَ به عن نفسه، وهذا عينُ الباطلِ، وكذلك إذا أمكن إرادتُه سبحانه محو ما شاء، واثباتُ ما شاء أمكن فعلُه، وكانت الإرادةُ والفعلُ من مقتضياتِ كمالِهِ المقدس(١).

٢٣. فيها بيانُ الفرقِ العظيمِ بين صفاتِ الخالق والمخلوق، فإن المخلوقات ولو أرادت شيئًا، فإنه لابد لإرادتها من معاونٍ وممانع، واللهُ لا معاونَ لإرادته، ولا ممانعَ له مما أراد.

٢٤. فيها وجوبُ التسليمِ والرضا لما أرادَه اللهُ وقدره، فقد يريدُ مرةً أن ينتصرَ المؤمنون لحكمةٍ، ويأخذَ الجبارين لحكمة، وقد يمهلُهم لليومِ الموعودِ لحكمة، ويريدُ مرةً أن ينتصرَ الإيمانُ علىٰ الفتنةِ، وتذهبَ الأجسادُ الفانيةُ لحكمة، سبحانه من له الإرادةُ المطلقة والحكمةُ البالغة.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية (٢/ ٩٨).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٢٥. فيها بيانٌ لسنةِ اللهِ في أخذِ الظالمين مهما كانت لهم من قوةٍ وغلبةٍ، فذكر تعالىٰ من المتأخرين فرعون، ومن المتقدمين ثمود، وأشارَ إلىٰ قوتهم بالجنود. وكان فرعونُ من المتأخرين في الهلاك، فدلَّ بقصتهِ وقصةِ ثمود علىٰ أمثالِهما من قصص الأمم المكذبين وهلاكهم ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾.

٢٦. فيها التشويقُ للخبرِ بالسؤالِ عنه، أي: هل بلغك ما حلَّ بهم، وكيف انتقمَ اللهُ منهم لما كذبوا بآياتِ اللهِ ورسله.

٢٧. فيها أهميةُ الاتعاظِ بمصارعِ الهالكين ودراسةِ ومعرفةِ أخبارِهم وما حلَّ بهم حيث قال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾، فإن فائدة القصصِ هي الموعظةُ التي تحصلُ للعبدِ؛ فلا يتركُ واجبًا ولا يغشىٰ محرما، فهو ختمَ بذكرِ فعلهِ وعقوبتهِ بمن أشركَ به وكذبَ رسلَه من فرعون وثمود، تحذيرا لعبادِه من سلوكِ سبيلهم، وأن من فعلَ فعلَهم فُعلَ به كما فعلَ بهم.

٢٨. فيها بيانُ قبحِ ما عليه الكفارِ من قومِ النبيِّ ﷺ في سيرِهم علىٰ سنةِ من سبقهم من الهالكين، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي من قومك، ﴿فِي تَكۡذِيبٍ﴾: حسدًا لك، لم يعتبروا بما جرىٰ لمن قبلَهم حين كذبوا أنبياءهم.

٢٩. فيها بيانٌ لحالِ الكفار مع المؤمنين في جميعِ الأزمنةِ، وأن ديدنَهم التكذيبُ والعنادُ الذي لا تنفعُ معه الآيات، ولا تجدي لديهم العظاتُ علىٰ سطوعِ البيان ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾، وأن التكذيبَ عمَّهم حتىٰ صارَ كالوعاء لهم.

٣٠. فيها بيانُ إحاطةِ اللهِ تبارك وتعالىٰ بخلقهِ علمًا وقدرةً، فهم في قبضتِهِ، وتحت سلطانه، ولا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمرهم، ولا يعجزُه شيء

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

عما أراده، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فهم في قبضتهِ وحوزته، كالمحاطِ إذا أحيطَ به من ورائهِ فسد عليه مسلكه، فلا يجد مهربًا، فهو سبحانه قادرٌ علىٰ أن يحلَّ بهم ما أحلَّ بأولئك، ولعلَه خصَّ الوراءَ؛ لأن الإنسانَ يحمي ما وراءه؛ ولأنه جهةُ الفرارِ من المصائب.

٣١. فيها ما يشيرُ إلىٰ قربِ هلاكِ المكذبين؛ لأن لازم الإحاطةَ بالمكذبين يشيرُ إلىٰ قربِ هلاكِهم كقولهِ تعالىٰ: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح:٢١]، وقولهِ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ (الإسراء:٦٠)، وقولهِ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس:٢٢] فهذا كلُّه عبارةٌ عن مشارفةِ الهلاك، يقول: فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك، ومن كان محاطًا به، فهو محصورٌ في غايةٍ لا يستطيعُ دفعًا.

٣٢. فيها تهديدٌ بشدةِ العقوبةِ للكافرين للذين هم في قبضتهِ وتحت علمهِ وتدبيره؛ لأنه قد يكون المرادُ واللهُ محيطٌ بأعمالهم، أي عالمٌ بها، سيجازيهم عليها.

٣٣. فيها بيانُ قبحِ التكذيبِ بتوحيدِه ورسالاتهِ وهم في قبضتهِ وهو محيطٌ بهم، ولا أسوأ حالًا ممن عادىٰ من هو في قبضتهِ، ومن هو قادرٌ عليه من كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ ولهذا فإن من أعجب العجب الكفرُ بمن هو محيطٌ به وآخذٌ بناصيتهِ قادرٌ عليه.

٣٤. فيها بيانُ شرفِ القرآن الكريم وعظمتهِ الذي كذبوا به، حيث وصفَه بقوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾، وحقًا فهو مجيد؛ لأنه محكمُ البيان، واسعُ المعاني، كثيرُ الخيرِ والعلم، شرَّفه الله تعالىٰ علىٰ سائرِ الكتب، وجعلَه آيةَ

www.Quranonlinelibrary.com

الرسالة، وهذا يدلُّ علىٰ جلالةِ القرآنِ وجزالته، ورفعةِ قدرِه عند اللهِ تعالىٰ.

٣٥. تفيدُ أن وصفَه تعالىٰ لكلامهِ بأنه مجيد، يفيدُ أنه أحقُ بالمجدِ من كلِّ كلامٍ كما أن المتكلمَ به له المجدُ كلُّه، فهو المجيد، وكلامُه مجيد، وعرشُه مجيد، قال ابن عباس ﵄: «قرآنٌ مجيدٌ كريم شريف كثير الخير»(١)؛ لأن كلامَ الربِّ ليس كما يقول الكافرون شعرًا وكهانةً وسحرًا. فهو جامعٌ لكلِّ منقبةٍ جليلة، بالغُ الذروةِ العليا في كلِّ شرف، كريمٌ ليس فيه شيءٌ من شوائبِ الذم، عزيزٌ عظيمٌ وحيدٌ في نظمهِ معانيه، حاوٍ لمجامعِ الحمد، ليس بقولِ مخلوقٍ ولا هو مخلوق، بل هو صفةُ الخالق، فهو يأبىٰ له مجدُه أن يلمَ بساحتهِ طعنٌ بوجهٍ من الوجوه(٢).

٣٦. فيها ردٌ علىٰ الطاعنين في القرآنِ بوصفهِ أنه أساطيرُ الأولين، وإفكٌ مفترىٰ وما إلىٰ ذلك مما قالوه؛ بل هو قرآنٌ مجيدٌ بالغُ الغايةِ في المجدِ والشرفِ والسموِ والعلو في ألفاظهِ ومعانيه، وما يحملُ من هدىٰ وتشريع.

٣٧. فيها بيانٌ لحفظِ اللهِ وعنايتهِ بكتابهِ، ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، وقالَ في آيةٍ أخرىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، ثم كونُه محفوظًا يحتملُ أن يكونَ المرادُ كونُه محفوظًا عن أن يمسَّه إلا المطهرون، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كونَه محفوظًا من اطلاعِ الخلقِ عليه سوىٰ الملائكة المقربين، ويحتملُ أن يكونَ محفوظًا من الشياطين لا يمكنُهم التنزلَ به؛ لأن محلَّه محفوظٌ من أن يصلوا إليه، أو محفوظٌ من الزيادة فيه والنقصان عمومًا، فقد قرأ نافعٌ بالرفعِ

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٣٨٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨٣).

صفةٌ للقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فحفظه من التغييرِ والتبديلِ والتحريف وكلِّ شبهةٍ وريبٍ في نظمهِ أو معناه، فهو في مناعتهِ لا تصلُ إليه أيدي الخلقِ بالتحريفِ والتبديلِ إذ هو في لوحٍ محفوظ فيها ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

٣٨. فيها بيانُ شرفِ القرآنِ الكريم حيث أثبتَه في اللوحِ المحفوظ، والكتابِ المكنون، وجعلَه في أعلاه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

٣٩. فيها بيانٌ لعظمِة اللوح، الذي جمعَ ما جرىٰ في العالمِ وما سيجري مكتوبٌ فيه.

رابعًا: التناسقُ الموضوعي بين الآيات:

لما تحدثَ عن عذابِهِ للكافرين، وثوابِهِ للمؤمنين، وكان لا يثيبُ ويعذبُ علىٰ هذا الوجهِ إلا من كان في غايةِ العظمة، قال معللًا لفعلهِ ذلك، دالًا بذلك التعللِ علىٰ ما له من العظمةِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ولما كان هذا البطشُ لا يتأتىٰ إلا لكاملِ القدرة، دلَّ علىٰ كمال قدرتهِ واختصاصهِ بذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، ولما ذكرَ سبحانه بطشَه، وكان القادرُ علىٰ الشدةِ قد لا يقدرُ علىٰ اللطف، وإن قدرَ فربما لم يقدر علىٰ الإبلاغِ في ذلك، قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وزادَ الأمرَ تأكيدًا بذكرِ ما لا ينازع أصلًا في اختصاصهِ به تشريفًا له وتنبيهًا علىٰ أنه أعظمُ المخلوقات: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، ولما كان الاختصاصُ يدلُّ قطعًا علىٰ كمالِ القدرة، أنتج ذكرُ هذه الاختصاصات قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ولما تمت الدلالةُ علىٰ أن بطشَه شديد، قررَه بما وجدَ

www.Quranonlinelibrary.com

من ذلك، وذكرَهم به تخويفًا وتسليةً؛ لأن النظرَ في المحسوساتِ أمكن في النفوس فقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾، ولما ذكرَ بأمتينِ بالغتا في التكذيبِ، فرعون الذي كذبَ بأعظمِ الآيات التي جاء بها موسىٰ، وثمودَ الذين كذبوا رسولَه، وعقروا الناقةَ التي جعلَها لهم آية حيث أخرجها لهم من صخرة صماء، وكلاهما من أبين الآيات، وهما نموذجٌ للتكذيبِ والسفه مع رؤيةِ تلك الآيات العظيمة، ولما كان التقديرُ: نعم قد أتاني ذلك، وعلمتُ من خبرِهما وغيرِهما أنك قادرٌ علىٰ ما تريد، ولكن الكفار لا يصدقونني، عطف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾، ولما ذكرَ تكذيبَهم ذكرَ بإحاطتِهِ بهم تحذيرًا لهم وتسليةً لمن كذبوه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، ولما ذكرَ أنهم في تكذيب، وكان أعظمُ ما كذبوا به ما جاء به وهو القرآن، أخبر تعالىٰ عنه بما يردُّ مزاعمهم الباطلة، بقوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾، ولما وصفَه في نفسِهِ مما يأبي له لحاقُ شيءٍ من شبهة، وصفَ محلَه في الملأ الأعلىٰ بما يدل علىٰ كمالِ شرفِهِ وحفظِهِ، فقال: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ أي له الحفظ دائمًا علىٰ أتم الوجوه من كل خلل ومن أن يصل إليه إلا الملائكة الكرام.

خامسًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. القسمُ بالسماءِ وبروجِها، وباليومِ الموعود، وبالشاهدِ والمشهود ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾.

٢. الحديثُ عن قصةِ أصحابِ الأخدود كاملة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

٣. الدعوة للتوبة والانابة مهما كان الذنب، وبيان ما أعده لأهل الإيمان والعمل الصالح من عظيم الأجر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

٤. الحديثُ عن أعظمِ صفاته جل وعلا، فوصفُه سبحانه بالعزةِ المتضمنةِ للقدرةِ والقوةِ والغلبة، والحميدِ المتضمنِ لصفاتِ الكمالِ والتنزيه عن أضدادها، وملكهِ السماواتِ والأرضِ المتضمنِ لكمالِ غناه، وسعةِ ملكه، وشهادتهِ علىٰ كلِّ شيءٍ المتضمنَ لعمومِ اطلاعهِ علىٰ ظواهرِ الأمورِ وبواطنها، وإحاطةِ بصره بمرئياتها، وسمعهِ بمسموعاتها، وعلمهِ بمعلوماتها، ووصفهِ بشدةِ البطشِ المتضمنُ لكمالِ القوةِ والعزةِ والقدرة، وتفردِه بالإبداءِ والإعادةِ المتضمنِ لتوحيدِ ربوبيته وتصرفهِ في المخلوقاتِ بالإبداءِ والإعادةِ وانقيادِها لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيء، ووصفهِ بالمغفرة المتضمنِ لكمالِ جودِه وإحسانهِ وغناه ورحمته، ووصفه بالودودِ المتضمنِ لكونهِ حبيبا إلىٰ عبادِه محبا لهم، ووصفه بأنه ذو العرشِ الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشَه المختص به لا يليقُ بغيرِه أن يستوي عليه، ووصفه بالمجدِ المتضمنِ لسعةِ العلمِ والقدرةِ والملكِ والغنىٰ والجودِ والإحسانِ والكرم، وكونُه فعالًا لما يريدُ المتضمنُ لحياتهِ وعلمهِ وقدرتهِ ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله. فهذه السورةُ كتابٌ مستقلٌ في أصولِ الدين تكفي من فهمها ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

www.Quranonlinelibrary.com

٥. التعريض بالمكذبين من خلال التذكير بقصة مصارع بعض الظالمين ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾

٦. الحديثُ عن عظمة القرآنِ وكمال حفظه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

سادسًا: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

فاتحة السورة كانت بعد قسمه العظيم في تسجيل لعنته علىٰ أصحاب الأخدود وبيان جرمهم القبيح، وخاتمة السورة جاءت في التلويح ببطشه للظالمين من خلال بيان عظيم صفاته وكيفية أخذه لبعض المكذبين من خلقه وعباده.

سابعًا: التكاليف الإيمانيةُ والعملية من هدايات السورة:

١. الثبات علىٰ الحق والهدىٰ وتحمل الأذىٰ في سبيل الله مهما كان الأذىٰ والمضايقات، مع الثقة بكفاية الله لأوليائه.

٢. إدراك عظمة الله تعالىٰ من خلال التفكر في عظيم خلقه، وقوة بطشه، وجليل صفاته، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويحب فوق كل محبوب، ويعظم فوق كل عظيم، العزيز الحميد، المالك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، الشهيد كل علىٰ شيء، الذي يبدأ الخلق ويعيده، الغفور والودود، الفعال لما يريد.

٣. البعد عن أذية المؤمنين، من إصابتهم بأي أذىٰ قولي أو فعلي فإنها تجلب غضب الحكيم، وتوقع في العذاب الأليم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٤. اليقين بقدرة الله تعالىٰ علىٰ البعث، وعلىٰ الانتقام من أعدائه، ونصرة أوليائه، فكل شيء عليه يسير ومنه قريب، فهو الفعال لما يريد.

٥. المسارعة للتوبة والإنابة من كل ذنب مهما كبر قبل فوات الأوان والندم علىٰ ما كان مع إدراك سعة رحمة الله تعالىٰ بمن أناب إليه.

٦. اعتقاد إثبات العرش لله تعالىٰ مع اعتقاد عظمته وأنه وسع السماوات والأرض والكرسي.

٧. أخذ العبر من مصارع الظالمين المكذبين المعرضين من أهل الأمم السابقة، حتىٰ لا يصيبنا ما أصابهم.

٨. إدراك عظمة القرآن الكريم، المشرف علىٰ سائر الكتب، الهادي لأقوم السبل، الشافي لكل داء يصيب الأمم، والموصول لجنات عدن.

تمَّ الكلام عن سورة البروج ولله الحمد

والمنة ببلد الحرام في ٢٧ محرم ١٤٣٦ هـ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

ســورة الطــارق

موضوع السورة:

إثباتُ البعثِ

من خلال موضوعين:

- إثباتُ إمكانيةِ البعثِ من خلال خلق الإنسان
- بيانُ صدقِ القرآنِ الذي أخبرَ بالبعث

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة:

أولًا: ما ورد من أحاديث عن السورة:

عَنْ جَابِرِ بن سمرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وَنَحْوِهَا مِنَ السُّوَرِ)[1].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلىٰ معاذ المغرب فقرأ البقرةَ والنساء، فقال النبي ﷺ: (أفتان أنت يا معاذ، ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها)[2].

ثانيًا: موضوعاتِ السورة:

موضوعُ السورةِ إثباتُ البعثِ، وذلك من خلالِ الحديثِ عن موضوعين:

الموضوعُ الأول: إثباتُ إمكانيةِ البعثِ بالحديثِ عن خلقِ الإنسان، فإن الذي خلقَه من تلك النطفة قادرٌ علىٰ إعادتِهِ بعد موته (الآيات من: ١-١٠).

الموضوعُ الثاني: إثباتُ إمكانيةِ البعثِ من خلال إحياء الأرضِ، وبيانِ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ح رقم (٣٠٧)، وأبو دَاوُدَ ح رقم (٨٠٥)، والنسائي ح رقم (١٠٥٣)، والبيهقي ح رقم (٢٥٨٦)، وأحمد ح رقم (٢٠٩٨٢)، وقال الترمذي: وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ ح رقم (١١٦٠٠)، وأحمد في المسند ح رقم ١٤١٩٠، قال: شعيب الأرنؤوط في تعليقه علىٰ أحاديث المسند: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

صدقِ القرآنِ الذي أخبرَ به، فهو حقٌّ لا هزلَ فيه مع إنذارِ المكذبين به ووعدِ رسولِهِ والمؤمنين بنصرِهم عليهم (الآيات من: ١١ - ١٧).

ثالثًا: المناسبةُ بين سورة البروج والطارق:

لما ذكرَ في آخرِ سورةِ البروج أن القرآنَ في لوحٍ محفوظ، أقسمَ هنا بالسماءِ ذاتِ النجمِ الثاقبِ الموضوعِ لحفظِها من المردة؛ لأجلِ حفظِ القرآن المجيدِ عند نزوله، الحافظُ لطريقِ الحق كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠]، ولما بينَ حفظَه للسماءِ بينَ حفظَه لعباده الذين حُفِظَ القرآنُ من أجلِهم، وحُفظَت أعمالُ المكلفين به ليجازيَهم عليها، ثم استطردَ منه إلىٰ أن هذا القرآنَ قولٌ فصلٌ جد، لا هزلَ فيه ولا باطلَ يأتيه. وبين هنا اتصالَ كيدِ الكافرين في تكذيبِهِ وحربِهِ كما سبق في سورة البروج، وهنالك بين أنه محيطٌ بهم، وهنا بين ما ترتجف له القلوبُ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

وقال الإمامُ أبو جعفر ابن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «لما قالَ اللهُ سبحانه وتعالىٰ في سورةِ البروج ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ وكان في ذلك تعريفُ العبادِ بأنه سبحانه وتعالىٰ لا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا يفوتُه شيءٌ، ولا ينجو منه هارب، أردفَ ذلك بتفصيلٍ يزيدُ إيضاح ذلك التعريفِ المجملِ من شهادتِهِ سبحانه وتعالىٰ علىٰ كلِّ شيءٍ وإحاطتِهِ به فقال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] فأعلمَ الله سبحانه وتعالىٰ بخصوصِ كلِّ

www.Quranonlinelibrary.com

نفسٍ ممن يحفظُ أنفسها ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ليعلمَ العبدُ أنه ليس بمهملٍ ولا مضيع، وهو سبحانه وتعالىٰ الغنيُّ عن كتبِ الحفظةِ وإحصائهم، وشهادةِ الشهود من الأعضاءِ وغيرهم، وإنما كان ذلك لإظهارِ عدلهِ سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] ولا أقلَ من المثقالِ، ولكن هي سنتُه حتىٰ لا يبقىٰ لأحدٍ حجةٌ ولا تعلق، وأقسمَ سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك تحقيقًا وتأكيدًا يناسبُ القصد المذكور»(١).

(١) انظر: نظم الدرر (٨/ ٣٨٧).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوعُ الأول

إثباتُ إمكانيةِ البعثِ بالحديث عن خلق الإنسان

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق:١-١٠].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: أصلُ الطرقِ في اللغة: الدق، ومنه المطرقة، والطارقُ في لغةِ العرب هو كلُّ ما يطرقُ ويأتي ليلا، وسمي طارقٌ؛ لأنه يحتاجُ إلىٰ طرقِ الباب، وقد فسره اللهُ تعالىٰ هنا بالنجمِ الثاقب، وسمي طارقًا لأنه يَطرُقُ ويظهرُ بالليل ويختفي بالنهار، قال الفراء: ما أتاك ليلا فهو طارق[1]، وقال الزجاجُ والمبرد: لا يكون الطارقُ نهارًا. وقد جاء في الصحيحين والروايةُ لمسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ لَيْلًا فَلاَ يَأْتِيَنَّ أَهْلَهُ طُرُوقًا حَتَّىٰ تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ)[2].

---

(١) تهذيب اللغة (٩/ ٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، بَابُ: طَلَبِ الوَلَدِ ح رقم (٥٢٤٦)، ومسلم في كتاب: الإمارة، بَابُ: كَرَاهَةِ الطُّرُوقِ، وَهُوَ الدُّخُولُ لَيْلًا، لِمَنْ وَرَدَ مِنْ سَفَرٍ ح رقم (٧١٥).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾: الاستفهامُ يدلُ علىٰ التشويقِ والتفخيمِ والتهويل.

٣. ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: الثاقبُ: ما يخرقُ الشيءَ الملتئم، وسمي ثاقبٌ لأنه يثقب ويخترقُ بشدةِ ضوئه ظلمةَ الليل، ويثقبُ الشياطين إذا أرسلَ عليها. قال ابنُ عباس: المضيء، وعن مجاهد هو: المتوهج [1].

٤. ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾: أي: ما من نفسٍ إلا عليها حافظٌ من الملائكة، يحفظُ عملَها ويحرسُها من الآفات. والحافظُ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالىٰ يحفظُ عليهم أعمالَهم، وحفظُ الملائكةِ من حفظهِ لأنه بأمره. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر «إن كل نفس لما عليها «بتشديد الميم والباقون «لما» بالتخفيف، فمن قرأ بالتشديدِ فمعناه ما من نفسٍ إلا وعليها حافظٌ من الملائكة يحفظُ قولَها وفعلَها، ومن قرأ بالتخفيفِ جعل «لما «مؤكدة ومعناه كل نفس لعليها حافظ [2].

٥. ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾: أي: فيتفكرُ الإنسانُ في مبدأ خلقهِ من أي شيءٍ خلق، والنظرُ: المرادُ به نظرُ العقل، وهو التفكرُ المؤدي إلىٰ علمِ شيءٍ بالاستدلال.

٦. ﴿دَافِقٖ﴾: أي مدفوقٌ، مثلُ قولهِ تعالىٰ: ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ أي: مرضية، الدفق بمعنىٰ الدفع، لأن بعضَه يدفعُ بعضا، وقيل: ماء دافق أي منصب، والدفق الصب.

٧. ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾: أي: من صلبِ الرجل، الصلبُ: العمودُ العظمي الكائنُ في وسطِ الظهر، وهو ذو الفقرات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٢٥).

(٢) بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ٥٤٦).

٨. ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: أي: ترائبُ المرأة، والترائبُ عظامُ الصدرِ التي بين الترقُوَتَيْن والثَّديين، ووسموه بأنه موضعُ القلادةِ من المرأة، واحدُها تريبة، ولهذا قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هي موضعُ القلادةِ ما بين ثديي المرأة[1].

٩. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾: أنه علىٰ إحيائهِ بعد الإماتةِ لقادر، وقيل: إنه علىٰ رجعِ هذا الماءِ الدافقِ إلىٰ مقرِه الذي خرجَ منه لقادر.

١٠. ﴿تُبْلَى﴾: أي تختبرُ وتمتحن، وقيل: تظهرُ وتبدو، وهو الأولىٰ، حيث يبقىٰ السرُ علانية، والمكنونُ مشهورًا.

١١. ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمعُ سريرة، وهي ما أسرَ العبدُ في قلبهِ من العقائدِ والنياتِ وما أخفاه من عمل، أي: يظهرُ سرُ كلِّ إنسان، ويبدو أثرُه علىٰ وجههِ، فتبيضُ بعضُ الوجوهِ وتسودُ بعض الوجوه.

١٢. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾: أي قوةٍ في نفسهِ يتقوىٰ بها ليدفعَ بها العذاب.

١٣. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾: ولا ناصرَ من خارجهِ ينصرُه فيدفعُ ما حلَّ به.

ثانيًا: المناسبةُ بين المقسمِ به والمقسم عليه:

لما تكلمَ تعالىٰ عن النجمِ الثاقبِ الحافظِ للسماءِ في المقسمِ به أتبعَه بذكرِ الملائكةِ الحافظةِ للإنسانِ وعمله في المقسم عليه ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

وهو أقسمَ بجنسِ الكواكبِ التي تبدو ليلًا وتختفي نهارًا، ويطرقُ مسترقي السمعِ فيبددُ شملَهم، ويهلكُ من أرادَ اللهُ منهم لأجلِ هدايةِ الناسِ بالقرآنِ في الطرقِ المعنوية، وظهورُه وإشراقُه في السماءِ لهدايتِهم في الطرقِ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ٥).

الحسيةِ، وهو في الأصلِ لسالكِ الطريق، واختصَ عرفًا بالآتي ليلًا لأنه يجدُ الأبوابَ مغلقةً فيحتاجُ إلىٰ طرقِها، ثم استُعملَ للبادي فيه كالنجم.

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. فيها القسمُ بمخلوقَين عظيمين، وآيتين كبيرتين، وهما السماءُ وطارقُها، والقسمُ بهما يفيدُ عظيمَ قدرةِ خالقِهما وعظمته، كما أنه يفيدُ تحقيقَ المقسمِ عليه ويشوقُ إليه.

٢. فيها بيانُ عظمِ آية ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ الذي يثقبُ الظلامَ بضوئهِ، ويُهْتدَىٰ بنورهِ في ظلماتِ البرِ والبحر، ويثقبُ الشياطين بشهبه.

٣. تفيدُ أن الإبهامَ ثم التفصيلَ بعدَه بما يبينه ويخصُه نوعٌ من التفخيمِ في الخطاب، وتنبيهٌ علىٰ رفعةِ قدرِ المبهمِ بحيث لا ينالُها إدراكُ الخلق، فلابد من تلقِّيها من الخلَّاقِ العليم، فهي بمعنىٰ: وأيُّ شيءٍ أعلمكَ ما الطارق. فلما كان لفظُ الطرقِ يشملُ كلَّ طارقٍ آتٍ بليل، وهو أرادَ طارقًا معينًا فخمَ من شأنهِ بالاستفهامِ الدالِّ علىٰ تهويلهِ، فأبهمَ الموصوفَ بالطارق ابتداء، ثم زيدَ إبهامًا مشوبًا بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ ثم بُين بأنه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ ليحصلَ نوعٌ من التفخيمِ في الخطابِ والتنويهِ بالمقسم به.

٤. يفيدُ القسم في القرآنِ الكريم تأكيدَ الكلامِ، والتنبيهِ علىٰ عظيمِ بعض آياتهِ بصورةٍ غيرِ معهودةٍ في كلامِ البشر، وهي فوقَ ما يطيقونَه ويتصورونَه.

قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

٥. تفيدُ أن كلَّ نفسٍ من بني آدم عليها حافظٌ من الملائكةِ، موكلٌ بحفظِها من المعاطبِ والمهالكِ والآفاتِ والسوءِ والمكروه، فلا يصيبُها إلا

ما قدرَ اللهُ عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

٦. فيها بيانٌ لحفظِ اللهِ الشاملِ لكلِّ نفسٍ حية ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ﴾ أي من الأنفسِ فهي مطلقةٌ غيرُ مقيدةٍ بنفوسِ بني آدم، فلما تحدثَ عن حفظهِ للسماءِ تحدثَ عن حفظهِ الشاملِ للخلق.

٧. تفيدُ أن كلَّ نفسٍ من بني آدم عليها حافظٌ من الملائكةِ الحفظة، يحفظُ عليها أعمالَها الصالحةَ والسيئة، وأن الحسابَ يجري بحسبِها كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧ - ١٨].

٨. فيها إشارةٌ إلىٰ البعثِ فهو كالدليلِ علىٰ إثباتهِ، لأن إقامةَ الحافظِ يستلزمُ شيئًا يحفظُه ليترتبَ عليه غرضًا مقصودًا، والمرادُ حفظُ الأعمالِ خيرِها وشرِّها ليتمَّ عليها الحسابُ والجزاءُ بما تقتضيه، جزاءً مُؤخرًا بعدَ الحياةِ الدنيا لئلا تذهبُ أعمالُ العاملين سدىٰ؛ وذلك يستلزمُ أن الجزاءَ مؤخرٌ إلىٰ ما بعدِ هذه الحياة إذ المُشاهَدُ تخلُّفُ الجزاءِ في هذه الحياةِ بكثرة، وهذا الجزاءُ المؤخرُ يستلزمُ إعادةَ الحياة للذواتِ الصادرة منها الأعمالُ[1].

٩. تفيدُ أنه تعالىٰ لما أقسمَ علىٰ أن لكلِّ نفسٍ حافظًا يراقبُها ويعدُّ عليها أعمالَها، فحينئذ يحقُ لكلِّ أحدٍ أن يجتهدَ ويسعىٰ في تحصيلِ أهمِّ المهمات بعد توحيد الله تعالىٰ، وهو معرفةُ المبدأ والمعاد، واتفقوا علىٰ أن معرفة

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٠).

المبدأ مقدمةٌ علىٰ معرفةِ المعاد، فلهذا السببُ بدأ اللهُ تعالىٰ بعد ذلك بما يدلُ علىٰ المبدأ.

١٠. تفيدُ أن اللهَ سيجازي كلَّ عاملٍ علىٰ عملهِ المحفوظ؛ وفي ذلك حثٌ علىٰ العملِ الصالح، فلا يعملُ فيما يحفظُ عليه إلا ما يسرُه في آخرته.

١١. فيها إنذارٌ للمشركين بأن اللهَ يعلمُ اعتقادَهم وأفعالَهم وأنه سيجازيَهم علىٰ ذلك.

١٢. فيها بيانٌ لاعتنائهِ بالنفسِ الإنسانيةِ حيث أقامَ الحفظةَ عليها، وخصَّها بين سائرِ خلقهِ بحفظِ أعمالها.

١٣. فيها تنبيهٌ إيماني عميقٌ لكلِّ نفسٍ مؤمنةٍ أنها ليست في خلوةٍ، وهي حينَ تنفردُ من كلِّ رقيبٍ وتأمنُ من كلِّ طارقٍ، هنالك الحافظُ الذي يثقبُ كلَّ غطاءٍ وينفذُ إلىٰ كلِّ مستور، كما يطرقُ النجمُ الثاقبُ حجابَ الليلِ الساتر.

١٤. فيها ما يشيرُ إلىٰ قدرتهِ تعالىٰ علىٰ البعثِ من خلال خلقهِ لهذا العالمِ العلوي وحفظه له، ولكلِّ نفسٍ ولو كانت في أعماقِ البحار، وقمم الجبالِ، وفي وسطِ الغابات، فهو القديرُ المدبرُ الحافظُ لخلقه.

١٥. فيها الدعوةُ للنظرِ والتفكرِ واعتبارِ الإنسانِ من مادةِ خلقه، من أيِّ شيءٍ خلقَه وإلىٰ أيِّ شيءٍ صار، حيث خلقَه من ماءٍ دافقٍ رقيقٍ مهين، وأخرجَه من مكانٍ غائرٍ بعيد، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٤].

١٦. تفيدُ أن من تفكرَ في مبدئهِ علمَ صحةَ اعادته؛ لأن الذي أوجدَ ابتداء أولِ خلقِه من ماء دافق، يخرجُ من هذا الموضعِ الصعب قادرٌ علىٰ رجعهِ في

الآخرة وإعادتهِ للبعثِ والنشورِ والجزاء؛ وذلك لأن حدوثَ الإنسانِ إنما كان بسببِ اجتماعِ أجزاء كانت متفرقةً في بدن الوالدين، بل في جميعِ العالم، فلما قدِرَ الصانعُ علىٰ جمعِ تلك الأجزاءِ المتفرقة حتىٰ خلقَ منها إنسانًا سويًا، فهو بعدَ موتهِ وتفرقِ أجزائه قادرٌ علىٰ جمعِ تلك الأجزاء وجعلِها خلقًا سويًا، ولهذا السر لما بين تعالىٰ دلالته علىٰ المبدأ فرعَ عليه أيضًا دلالتُه علىٰ صحةِ المعاد.

١٧ . تفيدُ أن خلقَ الإنسانِ من ماءٍ دافقٍ يدلُ علىٰ قدرةِ الخالق سبحانه المطلقةِ وحكمتهِ البالغة، فهنالك مسافةٌ هائلةٌ بين الماءِ الدافقِ والإنسانِ الناطق، وقدرةُ الله تدفعهُ في كلِّ طور من أطوارِ حياته.

١٨ . تفيدُ أن الإطنابَ في وصفِ هذا الماء الدافقِ لإدماجِ التعليمِ والعبرةِ بدقائقِ التكوين ليستيقظَ الجاهلُ الكافرُ ويزدادُ المؤمن علمًا ويقينًا.

١٩ . فيها عظةٌ للإنسانِ وتنبيهٌ له علىٰ معرفةِ خلقه، وضعفِ تركيبه، فنبه سبحانه بكونِه دافقا علىٰ أنه ضعيفٌ غيرُ متماسكٍ بما يزيلُ به دواعي الكبرِ والخيلاءِ والغطرسةِ عن نفسه، فلا ينازعُ فيها خالقَه؛ الذي لا يشاركُه أحدٌ من خلقهِ في الكبرياءِ والعظمة، وحتىٰ لا يستطيلُ به علىٰ المخلوقين؛ إذ من يكون هذا بدءُ خلقهِ، ثم يصيرُ آخرُه إلىٰ البلىٰ والرفات، إلىٰ أن يجددَ اللهُ خلقَه بالنشورِ يوم يحيىٰ العظامَ النخرة، والأجسامَ البالية جديرٌ بأن لا يفارقَه الذلَّ والاستكانةَ في جميعِ الأحوال، ولا يتعرضَ لسخطٍ من قادرٍ علىٰ ردِّه في صلب أبيه قبل الآخرة، ثم الجنةُ والنارُ وأنواعُ الأهوالِ من ورائه.

٢٠ . فيها بيانُ موضعِ خروجِ الماءِ الذي يخلقُ منه الإنسان، وأنه بينَ صُلبِ الرجل، وترائبِ المرأة، وهي ثدياها؛ لأن الأشهرَ أنها لا تطلقُ إلا علىٰ

www.Quranonlinelibrary.com

ما بين ثديي المرأة. قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صلبُ الرجل وترائب المرأة»[(١)]، وهو موضعُ القلادةِ من صدرها والولدُ يخلقُ من الماءين جميعا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]؛ ولكن جعلهما ماءً واحدًا لامتزاجِهما، ويحتمل: أن المرادَ المنيُّ الدافق، وهو منيُّ الرجل، وأن محلَّه الذي يخرجُ منه ما بين صلبهِ وترائبه، لأنه إنما وصفَ اللهُ به الماءَ الدافق، والذي يحسُ به ويشاهدُ دفقه هو مني الرجل، ولأن لفظَ الترائبِ يستعملُ في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثىٰ.

٢١. فيها نوعٌ من الإعجاز العلمي؛ لأن ذلك لم يكنْ معلومًا للذين نزل عليهم القرآن، وهي من المسائلِ التي يصعبُ الوصولُ إليها دون وحي، وقد جاءَ العلمُ الحديثُ فقال بما جاء به القرآن قبل ألف وأربعمائة عام، كما قال تعالىٰ في إخراجِ اللبنِ الخالص من بين الفرث والدم.

٢٢. تفيدُ أن الذي قدرَ علىٰ الخلقِ من العدمِ، ومن الماءِ الدافق قادرٌ علىٰ الاعادةِ، لأنه يلزمُ من إمكانِ أحدِهما إمكانُ الآخر، ومن وقوعهِ صحةُ وقوع الآخر، فحَسُنَ الاستدلالُ بأحدِهما علىٰ الآخر. قال الملوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالذي أخرجَه من ظروفِ عظام الصلبِ والترائب إلىٰ أن صيرَه في محلهِ من الأنثيين إلىٰ أن دفق واعتنىٰ بعد ذلك بنقلهِ من خلقٍ إلىٰ خلقٍ بعد كلِّ أربعين يومًا، إلىٰ أن صيره إنسانًا يعقلُ ويتكلم ويبني القصور، ويهدم الصخور، قادر علىٰ بعثه»[(٢)].

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦/ ١٩٣)، والدار المنثور للسيوطي(١٤/ ٢٧٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨٩).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٢٣. تفيدُ أن إعادةَ الخلقِ تكون يومَ تبلىٰ السرائر وهو يوم القيامة.

٢٤. تفيدُ أنه يومُ القيامةِ تختبرُ فيه سرائرُ الصدور، ويظهرُ ما كان في القلوبِ من خيرٍ وشرٍ علىٰ صفحاتِ الوجوه، قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ ففي الدنيا تكتمُ كثيرٌ من الأمور، ولا تظهرُ عيانًا للناس، وأما في القيامةِ فيظهرُ برُّ الأبرارِ، وفجورُ الفجار، وتصيرُ الأمور علانية. ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

٢٥. تفيدُ أن ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخفيه من نواياه وعقائدِه، وما يظهره من أعمال وأقوالٍ مؤاخذ عليها، بلوُ الأعمالِ الظاهرِة، والأقوالِ مستفادٌ بدلالةِ الفحوىٰ من بلوِ السرائر.

٢٦. فيها انكشافُ كلِّ مستورٍ من مسائلِ الإيمانِ وشرائعه فيظهرُ الخيرُ والشرُ، ويظهر المحافظ لحدود الله والمضيّع لها، فيقع الجزاء علىٰ أمر مكشوف.

٢٧. فيها أن اختبارَ السرائرِ لتمييزِ الصالح منها عن الفاسدِ يفيدُ الحسابَ عليها والجزاء.

٢٨. فيها أن التعبيرَ عن الأعمالِ بالسرِ لطيفةٌ، وهو أن الأعمالَ نتائجُ السرائرِ الباطنة، فمن كانت سريرتُه صالحةً كان عملُه صالحًا، فتبدو سريرتُه علىٰ وجههِ نورًا وإشراقًا وحياءً، ومن كانت سريرتُه فاسدةً كان عملُه تابعًا لسريرته لا اعتبار بصورتهِ فتبدو سريرتُه علىٰ وجههِ سوادا وظلمة وشينا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عملُه لا سريرته، فيومُ القيامةِ تبدو عليه سريرتُه ويكون الحكمُ والظهور لها.

٢٩. تشيرُ إلىٰ التحذيرِ من إسرارِ الشر وإخفاءِ الباطل، وإظهارِ خلافِ ما

www.Quranonlinelibrary.com

في الضمائر، فإن الله تعالىٰ عليمٌ بذلك، وسيختبرُ عبادَه في كلِّ ما يسرون ويخفون.

٣٠. فيها بيانٌ لحالِ الإنسانِ يومَ القيامة حيث يعدمُ من كلِّ قوةٍ في نفسهِ يدفعُ بها ما حل به، كما أنه يعدمُ من نصرةٍ خارجيةٍ ينتصرُ بها من غيرِه. فإن العبدَ إذا وقعَ في شدةٍ فإما أن يدفعَها بقوتهِ، أو بقوةِ من ينصرُه وكلاهما معدوم في حقه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، فنفىٰ الأول بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾ ونفىٰ الثاني بقوله: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾.

٣١. تفيدُ أن دخولَ من في قوله: ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ علىٰ وجهِ النفي لقليلِ ذلك وكثيره، كأنه قيل: ماله من شيءٍ من القوةِ ولا أحد من الأنصار.

٣٢. فيها تهديدٌ للمشركين، لأن أصلَ الخطابِ موجهٌ إليهم، أي فما للإنسانِ المشرك من قوةٍ يدفعُ بها عن نفسهِ، وما له من ناصرٍ يدافعُ عنه.

٣٣. فيها أن نفيَّ الدفعِ بالقوةِ القائمةِ به، والخارجةِ عنه يدلُ علىٰ نفوذِ حكمه فيهم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الموضوع الثاني
إثبات البعث من خلال بيان صدقِ القرآنِ الكريم

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: ١١ - ١٧].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: أي المطر، وسمىٰ المطرُ رجعا؛ لأنه يرجعُ مرةً بعد أخرىٰ، أو يرجعُ إلىٰ الأرض، والقولُ الثاني: أنه رجوعُ الشمسِ والقمرِ والنجومِ من منزلةٍ إلىٰ منزلة، وسميت رجعًا لأنها تطلعُ وتغيبُ وترجعُ من المغرب إلىٰ المشرق.

٢. ﴿ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾: أي التصدعُ والتشققُ بالنباتِ والعيون غيرها، وهو قولُ الجميع، وسمىٰ صدعًا لأن الأرضَ تنصدعُ به.

٣. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾: أي ذو فصلٍ، وهو الفصلُ بين الحق والباطل، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حق، وقال آخرُ: حكمٌ عدل(١).

٤. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾: أي باللعبِ والعبثِ والمعنىٰ أنه قول جد.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٨٣).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٥. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: أي يعملون المكائدَ ويمكرون مكرًا كبارًا في إبطالِ ما جاء به الرسولُ من الدينِ الحق، والكيدُ في اللغةِ: هو صنعٌ يُوصلُ به إلىٰ الشيءِ علىٰ الخفيةِ والاستتار، أو هو: إخفاءُ قَصدِ الضرِ وإظهارُ خلافه، فكيدُهم مستعملٌ في حقيقته.

٦. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾: أي: استدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيُهم جزاءَ كيدهم، وقيل: هي الأخذُ من حيث يخفىٰ عليهم.

٧. ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾: أي أمهلِ الكافرين، وأجِّلهم وأنظِرهم، ولا تستعجل عليهم. والتمهيلُ: مصدرُ مَهَّلَ بمعنىٰ أمهل، وهو الإنظارُ إلىٰ وقتٍ معيّن أو غيرِ معين، فالجمع بين (مَهِّل) وأمهلهم.

٨. ﴿رُوَيْدًا﴾: أي: قليلًا، يقال: رويدك يا فلان أي كن علىٰ أودةٍ ورفق.

ثانيًا: المناسبةُ بين المقسمِ به والمقسمِ عليه:

أقسمَ تعالىٰ بالسماءِ في حالِ نزولِ المطرِ منها، والأرضِ في حالِ إحيائها بالنبات الذي هو من شواهدِ البعث، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فإن إحياءَ الأرضِ الميتةِ بالماءِ النازلِ من السماءِ يعادلُ رجعَ الإنسانِ بعد فنائهِ في الأرض، وتشققُ الأرض عن النباتِ يناسبُ تشققَها يومَ البعثِ عن الخلائق، ليؤكدَ من خلالِ القسمِ بهما علىٰ أن القرآنَ الناطقَ بالبعث حق، وما جاءَ فيه فصلٌ لا مجال فيه للهزل، وهو السرُ في التعبيرِ بالرجعِ والصدع عنه، فالرجعُ مناسبٌ لمعنىٰ البعثِ في قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، وبذكرِ الأرضِ وتصدعِها إتمامُ المناسبة بين المقسمِ والمقسم عليه،

www.Quranonlinelibrary.com

أي التي تتصدعُ وتنشقُ فيخرج منها النباتُ والعيونُ بدءًا وإعادةً، وفيه دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ البعث، فالسماءُ تسقي الأرضَ فتتصدعُ عن النبات، وكما أنها تتصدعُ عن النباتِ بعد فنائهِ وصيرورته رفاتًا فيعود كما كان، فكذلك تتصدعُ عن الناسِ بعد فنائِهم فيعودون كما كانوا بإذن ربها من غيرِ فرقٍ أصلًا، فكما جعل سبحانه كيفيةَ خلقةِ الحيوان دليلًا علىٰ معرفةِ المبدأ والمعاد، ذكر في هذا القسمِ كيفيةَ خلقةِ النبات ليلمحَ من خلالهِ علىٰ البعثِ، وكلاهما من النعمِ العظامِ؛ لأن نعمَ الدنيا موقوفةٌ علىٰ ما ينزلُ من السماءِ من المطرِ متكررًا، وعلىٰ ما ينبتُ من الأرض كذلك.

وفي ذكرِه لهذا القسمِ من أحوالِ السماء مناسبةٌ أخرىٰ بالمقسمِ عليه، وهو الغيثُ الذي به صلاحُ الناس، فإن إصلاحَ القرآنِ للناسِ كإصلاح المطر.

وفي حديثِ البخاري ومسلم: عَنْ أَبِىٰ بُرْدَةَ عَنْ أَبِىٰ مُوسَىٰ ﵁ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ﷿ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِىٰ أُرْسِلْتُ بِهِ)(١).

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم بَابُ، فَضْل مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ ح رقم (٧٩)، ومسلم في كتاب: الفضائل، بَابُ: بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ ح رقم (٢٢٨٢).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

٣٤. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ أقسمَ بالآياتِ الدالة علىٰ ربوبيتِهِ لبيانِ صدقِ البعثِ من خلالِ بيانِ صدقِ كتابه، فأقسمَ سبحانه بالسماءِ ذات المطرِ والأرضِ ذات النبات، وكلُّ ذلك من آياته الدالةِ علىٰ قدرتهِ علىٰ البعثِ، وهو مذكرٌ بنعمهِ كذلك من جهتهما إذ بهما يكون إعطاءُ الخيرِ الكثير.

٣٥. فيها أن افتتاحَ الكلامِ هنا بالقَسمِ يفيدُ تحقيقَ صدقِ القرآنِ في كلِّ ما أخبرَ به ومن ذلك أمورَ البعث، فكلُّ ما أخبرَ اللهُ به من قدرتهِ علىٰ إحياءِ الموتىٰ في اليومِ الذي تبلىٰ فيه السرائرُ قولٌ فصلٌ وحق.

٣٦. تفيدُ أن القرآنَ جعلَه اللهُ قولًا فصلًا، يفصلُ بين الحقِ والباطلِ فيميزُ هذا من هذا، ويفصلُ بين الناسِ فيما اختلفوا فيه في العقائدِ والأعمال، وهو فصلٌ حيث ينفصلُ عنده المراد، ويتميزُ من غيرِه، وفصلٌ لما فيه من إحكامٍ وتفصيل، فكون القرآنِ فصلًا يتضمنُ كلَّ هذه المعاني.

٣٧. فيها أن وصفَ القرآنِ بأنه فصلٌ يفيدُ أنه حقٌّ وصدقٌ وعدلٌ ليس فيه من الباطلِ الكذبِ والظلمِ شيء، الذي صدقت عبر الزمان أنباؤُه ونجحت في تحقيقِ الأمنِ والاستقرارِ أحكامُه.

٣٨. تفيدُ أن القرآنَ جدٌّ كلَّه لا هزلَ فيه ولا لعب؛ وذلك لأن الهزلَ محلٌ للكذبِ وللباطلِ يُفعل، وللعبِ يمثل، ولما كان الهزلُ هو الذي لا حقيقةَ له وهو الباطلُ واللعبُ قابلَ بين الفصلِ والهزل.

٣٩. تفيدُ أن عطفَ ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ بعد الثناءِ علىٰ القرآنِ بأنه ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ فيه ردٌّ علىٰ المشركين إذ كانوا يزعمون أن النبيَّ ﷺ جاء يهزلُ إذ يخبرُ بأن الموتىٰ سيحْيَوْن، يريدون تضليلَ عامتِهم حين يسمعون قوارعَ القرآنِ وإرشادِه وجزالةِ معانيه، يختلقون لهم تلك المعاذيرَ ليصرفُوهم عن أن يتدبروا القرآن وهو ما أخبر به اللهُ عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ

﴿فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فالهزلُ علىٰ هذا الوجه هو ضدُّ الجدِّ أعني المزحَ واللعب.

٤٠. تفيدُ أن كيدَ الكفارِ ومكرَهم في إبطالِ أمرِ الدينِ، وإطفاءِ نور القرآن مستمر، فـ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسولِ ﷺ والقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدِهم الحق، ويؤيدوا الباطل.

٤١. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ من وراءِ كيدِ الكائدين وهو لهم بالمرصاد.

٤٢. تفيدُ أن اللهَ يكيدُ لمن يكيدون لدينهِ ورسولهِ وعبادِه، وكيدُه سبحانه باستدراجِهم من حيث لا يعلمون، والإملاءِ لهم حتىٰ يأخذَهم علىٰ غرةٍ كما قال تعالىٰ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، فهو يستدرجُهم حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة، وفي نسبةِ هذا الفعلِ لله من باب المقابلةِ كقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، وقد اتفقَ السلفُ أنه لا ينسبُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ الإطلاق، ولا يجوزُ أن يشتقَ له منه اسم، وإنما يطلقُ في مقابلِ فعلِ العباد، لأنه في غيرِ المقابلةِ لا يليقُ باللهِ تعالىٰ، وفي معرضِ المقابلةِ فهو في غايةِ العلمِ والحكمةِ والقدرةِ، والكيدُ أصلُه المعاجلةُ للشيءِ بقوة.

٤٣. تفيدُ أن اللهَ يمهلُ ولا يهملُ، وأن عذابَه قريبٌ من المجرمين ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلا ويسيرا فسيعلمون عاقبةَ أمرِهم، حين ينزلُ بهم العقاب، وتصغيرُه للدلالةِ علىٰ التقليلِ، أي مُهلةٍ غيرُ طويلة.

٤٤. فيها ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ بيانٌ لانتصارِ الحق، لأنه يعلمُ بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعفُ وأحقرُ من أن يغالبَ القوي العليم.

٤٥. فيها التهديدُ والوعيدُ للمشركين من خلالِ قوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ

www.Quranonlinelibrary.com

﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم.

٤٦. فيها تسليةُ للرسولِ ﷺ علىٰ أقوالِهم في القرآنِ الراجعةِ إلىٰ تكذيبِ من جاء بالقرآن، أي إنما يدَّعون أنه هزلٌ لقصدِ الكيدِ، ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ تثبيتٌ آخر للرسولِ ﷺ ووعدٌ بالنصر، و﴿كَيۡدٗا﴾ في الموضعين مفعولٌ مطلقٌ مؤكدٌ لعاملهِ وقصد منه مع التوكيدِ تنوينُ تنكيرِه الدال علىٰ التعظيم.

٤٧. فيها أن الذي خلقَ من ماءٍ دافقٍ بلا حولٍ له ولا قوة، يكيد لدينِ من خلقَه من العدم، ومن هو صائرٌ إليه، وهو عالمٌ بسرائرهم، ولا قوةَ له ولا ناصرَ منه، يكيد ومن معه لدفعِ الحق بالباطل، والله يكيدُ لهم فمن الغالبُ؟ فمن تفكر في ذلك علم أن المعركةَ محسومةٌ، فلا يستعجل؛ فإنما هي الحكمةُ من وراءِ الإمهال، ولذلك كانت سنواتٍ ولم يبق في مكةَ معبودٌ سواه جل وعلا.

خامسًا: التناسق الموضوعي في السورة:

أقسمَ تعالىٰ ببدائعِ صنعهِ الدالةِ علىٰ قدرته الباهرة، فأقسمَ بالسماءِ وأعجبِ ما فيها، وهو جنسُ النجومِ المعدةِ للحراسةِ فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ولما كان الطارقُ يطلقُ علىٰ غيرِ النجمِ أبهمَه لتفخيمِ المقسمِ به فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثم زاده تهويلًا بتفسيرِه بعد إبهامهِ مرةً أخرىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، ولما كان في ذكرِه دلالةٌ علىٰ حفظِ السماءِ الذي دلَّ به علىٰ حفظِ القرآن، ذكرَ في جوابهِ حفظَ النفوسِ الذي حُفظَ الكونُ والقرآنُ من أجلِها فقال: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾، لما أخبرَ تعالىٰ أن كلَّ نفسٍ عليها حافظٌ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

يحفظُ أعمالَها أعقبَه بالتنبيهِ علىٰ الحشرِ حيث تجازىٰ كلُّ نفسٍ بأعمالِها فقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ولما نبَّه بالاستفهامِ علىٰ أن هذا أمرًا ينبغي لكلِّ أحدٍ أن يتركَ جميعَ مهامهِ ويتفرغَ للنظرِ فيه، فإنه يُكسبُه السعادةَ الأبديةَ الدائمةَ، وكان الإنسانُ – مع كونهِ ضعيفًا عاجزًا – لا ينفك عن شاغلٍ ومفتِّرٍ، فلا يكاد يصحُ له نظر، تولىٰ سبحانه وتعالىٰ شرحَ ذلك عنه فأجابَ الاستفهامَ بقولهِ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، ولما علمَ بالحفظِ والخلقِ في الأطوارِ المشار إليها أنه خُلقَ لأمرٍ عظيم، وهو الحسابُ، وثبت بالقدرةِ علىٰ ابتدائهِ من هذا الماءِ وبتطويرِه في الحالاتِ المشار إليها بذكر الماءِ المعلومةِ لكلِّ أحدٍ القدرَة علىٰ الإعادةِ قال مؤكدًا ذلك بقولهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾، ولما كان هذا يحركُ السامعَ غايةِ التحريك لأن يقول: متىٰ تكون رجعه له؟ قال مجيبًا له: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وهو يومُ القيامة، ولما كان المانعُ من جزائهِ عند إظهارِ سرائره إما هو نفسُه أو أحدٌ ينصرُه، قال في وصفِ حالهِ في ذلك اليوم: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

ولما اشتملت هذه الجملُ علىٰ وجازتِها علىٰ الذروةِ العليا من البلاغةِ في إثباتِ البعثِ والجزاءِ والوحدانيةِ له سبحانه وتعالىٰ إلىٰ غيرِ ذلك من بحورِ العلوم، فثبت أن القرآنَ كلامُ الله سبحانه وتعالىٰ، وأن كلَّ ما فيه حقٌّ مع منازعتِهم في ذلك كلِّه، اقتضىٰ الحالُ أن الإقسامَ علىٰ حقيقته، فجعل المقسم به علىٰ دليلِ صدقهِ من أدلةِ البعثِ المشاهدةِ في كونهِ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، ولما ذكرَ الأمرَ العلوي بادئًا به لشرفهِ، أتبعُه السفلي فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، ولما كانت هذه كلُّها براهينَ قاطعةً ودلائلَ باهرةً ساطعةً علىٰ حقيقةِ القرآن، وكان من المستبعدِ جدًا طعنهم فيه بعد هذا البيان، قال تعالىٰ منبهًا

علىٰ ذلك بالتأكيد: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾، ولما كان هذا البيان مقتضيًا رجوعَهم عن العناد، وكان ذلك محركًا للسامعِ إلىٰ تعرف ما كان من أمرِهم، بين ما يدل علىٰ بقائِهم علىٰ الإنكارِ والعناد فقال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾، ولما بين كيدَهم بين عاقبةَ كيدهم فقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾، ولما كانت النتيجةُ محسومةً أسدلَ ستارَ المعركةِ بقولِه تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ فهم لا يعجزون، فإنا لا نعجلُ؛ لأنه لا يعجلُ بالعقوبةِ إلا من يخاف الفوت.

سادسًا: خصائصُ السورةِ في عرضِ هداياتها:

١. القسمُ بالطارقِ الذي هو النجم الثاقب، في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

٢. بيانُ حفظِ الله تعالىٰ لكلِّ نفس، في قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

٣. الحديثُ عن المكانِ الذي يخرجُ منه الماءُ الدافق الذي خلقَ منه الإنسان، في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

٤. الحديثُ عن ابتلاءِ السرائر، وحالِ الإنسانِ عند ذلك، في قوله: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

٥. القسمُ بالسماءِ ذاتِ الرجع والأرضِ ذات الصدع، في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾.

٦. الحديثُ عن القرآنِ أنه قولٌ فصلٌ وما هو بالهزل، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

٧. الحديثُ عن كيدِ الكافرين، وكيدُه لهم، والأمرُ بعدمِ استعجالِ عاقبةِ

www.Quranonlinelibrary.com

أمرهم، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

سابعًا: المناسبة بين فاتحتها وخاتمتها:

وقد كانت فاتحتُها في إبطالِ كيدِ الشياطين تجاه القرآنِ من استراقِ السمع، وخاتمتُها في إبطالِ كيدِ الكافرين، وفي فاتحتِها قسمٌ بالسماءِ والطارق، وفي خاتِمها قسمٌ بالسماء ذات الرجع.

ثامنًا: التكاليف الإيمانية والعملية من هدايات السورة:

١. اليقين بحفظ الله تعالىٰ لكل نفس في الوجود، وحفظ أعمالها بواسطة الملائكة الموكلة بذلك، بما ينبغي شكر الله لهذا الحفظ، والتنبه والاستحياء من فعل القبيح.

٢. اليقين بالبعث وقدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ والحساب والجزاء، فإن من خلق الإنسان من عدم؛ قادر علىٰ إعادته.

٣. التفكر في النفس بصورة مستمرة في خلقها وتطورها ومكنوناتها يعرف العبد بحاجته لخالقه، وعظيم نعمه عليه، ويدفعه لتعظيمه ومحبته وتوحيده.

٤. الحرص علىٰ إصلاح البواطن قبل إصلاح السرائر، خوفًا من فضائح يوم القيامة الذي تبلىٰ فيه السرائر ويكون عليها الجزاء.

٥. اليقين بأن حكم الله يوم القيامة نافذ علىٰ عباده ليس هنالك قوة في نفس تدفعه أو قوة خارجة تنصره مما حل به.

٦. اليقين بصدق كل ما أخبر به القرآن في أمور البعث والجزاء وغيره فهو كله حق وصدق وعدل ليس فيه باطل أو كذب أو ظلم.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

٧. اليقين بأن كل كيد يوجه للإسلام وأهله أن عاقبته خسران، وأمر الكفر نهايته وبال، لأن الله من وراء كيدهم ومكرهم يكيد ويمكر لعباده المؤمنين الصادقين.

تمَّ الكلام عن سورة الطارق ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في غرة صفر من عام ١٤٣٦ هـ.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تفسير وهدايات

سـورة الأعلـى

موضوع السورة:

إيجاب التنزيه والتعظيم للأعلى عَزَّ وَجَلَّ

من خلال موضوعين:

- الأمرُ بالتسبيحِ وبيانُ موجباتهِ
- الأمرُ بأداءِ الرسالة وبيانُ موقفِ الناس منها

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مدخل لدراسة السورة:

أولًا: فضلُ السورة:

١ ــ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِــ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، قَالَ: «وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ»(١).

٢ ــ وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْوِتْرِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: (سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ). وَرَفَع بِهَا صَوْتَهُ(٢).

٣ ــ وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَفِي الصُّبْحِ بِأَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ) (٣).

٤ ــ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ حين صلىٰ العشاء الآخر وطول بالناس وشكىٰ بعضهم ذلك للنبي ﷺ فقال: (أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، بَابُ: مَا يُقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، ح رقم (٨٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ح رقم (١٥٣٥٤)، وأبو داود ح رقم (١٤٣٠) والنسائي ح رقم (٤٤٦)، والدارقطني ح رقم (١٦٥٩)، والحاكم ح رقم (٢٤٥٠)، والبيهقي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم (١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، بَابُ: الْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ، ح رقم (٤٦٠).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿يَغْشَىٰ﴾؟)[(١)].

وكثرةُ قراءةِ النبيِّ ﷺ لها يدلُ علىٰ فضلِها وعظمِ معانيها.

ثانيًا: موضوعاتِ السورة:

موضوعُ السورةِ إيجابُ التنزيهِ والتعظيمِ للأعلىٰ سبحانَه وتعالىٰ؛ وجاء الكلام عن ذلك من خلالِ موضوعين:

الموضوعُ الأول: الأمرُ للنبيِّ ﷺ وأمتهِ بالتسبيحِ، وبيانُ موجباتِ ذلك من صفاتهِ جل وعلا (١-٨).

الموضوعُ الثاني: الأمرُ بأداءِ الرسالة التي جاءت لتسبيحهِ جل وعلا، وبيانُ موقفِ الناسِ منها، وبيانُ الأعمالِ التي تؤدي إلىٰ السعادةِ والشقاء (٩-١٩).

ثالثًا: المناسبةُ بين سورةِ الطارقِ والأعلى:

لما نفىٰ عن نفسهِ العجزَ عن إعادةِ الخلقِ في سورةِ الطارق، ونزَّه كلامَه عن الهزل، ونزَّه نفسَه عن كلِّ شوائبِ النقصِ، كاستعجالٍ في أمرٍ من إهلاكِ الكافرين أو غيرِه، جاءَ الأمرُ هنا لرسولهِ والأمةِ تبعٌ له بوجوبِ تنزيههِ تنزيهًا من كلِّ عيبٍ ونقصٍ مطلقًا من خلالِ الأمرِ بتسبيحهِ، ومن خلالِ ما له من عظيمِ الصفاتِ التي علىٰ رأسِها صفةُ الأعلىٰ، ولما بثه في الكونِ من شواهدِ وحدانيتهِ، ولما أنزلَه من عظيمِ آياتهِ المتلوةِ المحفوظة ليس في اللوحِ المحفوظِ فقط، ولا في حفظِ السماءِ عند نزوله، بل حفظَ قلبَ النبيِّ ﷺ الذي أنزلَ عليه عظيمَ آياتهِ التي من قرأها بفهمٍ ذكرته كلُّ آيةٍ منه وجوبَ تعظيمهِ

---

(١) أخرجه أحمد ح رقم (١٤١٩٠)، والنسائي في السنن الكبرىٰ ح رقم (١١٧٧٩)، وابن حبان ح رقم (٢٤٠٠)، وصححه الألباني.

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتنزيهِه، ولذا جاء الأمرُ هنا بعدَ الأمرِ بتسبيحِهِ بالأمرِ بالتذكير به، ولا يتذكرُ به إلا من عرفَ عظمةَ ربه، وزكىٰ نفسهَ بتوحيدِه الذي هو خلاصةُ تعظيمِهِ، ولهجَ لسانُه بذكرِه، وخضعت جوارُحه لعبوديتهِ من خلالِ الصلاةِ وسائرِ ما شرعه من عبادته.

وهي بينت من وجهٍ آخرَ سفه أولئك الذين يكيدون لربِّهم الأعلىٰ، المحيطِ بأعمالِهم، ودقائقِ أنفاسِهم وأحوالهم، الخالقِ المسوي، المقدرِ الهادي، المحيي المميت، فهم ما عرفوا قدرَ ربِّهم جل في علاه، ومن هنا أمرَ نبيَه والأمةَ تبعٌ له أن يمضوا في سبيل تعظيمِهِ وتنزيهِه وتوحيدهِ، غيرُ ملتفتين لهم، ولا لكيدِهم الحقير، الذي نهايتُه تباب، لمن عرفَ عظمةَ ربِّ الأرباب، الذي عرفهم من خلالِ هذه السورةِ بعضًا من عظيمِ قدرتهِ، ودقةِ تقديرِهِ، وعليّ حكمته بما يبين ضلالَ أولئك وجهلَهم وحقارَتهم.

الموضوعُ الأول
الأمرُ بالتسبيحِ وبيانُ موجباتهِ

قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١ - ٨].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿سَبِّحِ﴾: التسبيحُ في اللغةِ التنزيه عن كلِّ ما لا يليقُ بعظمتهِ من النقائص.

٢. ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: الظاهرُ أن التنزيَه يقعُ علىٰ الاسمِ، أي نزهْه عن أن يسمىٰ به غيرُه من صنمٍ أو وثنٍ فيقال له ربٌّ أو إله، أو يُذْكرُ اسمُه بسخريةٍ، وإذا كان قد أمر بتنزيهِ الاسمِ فتنزيهُه جل وعلا عما لا يليقُ به من الشركِ والصاحبةِ والولدِ والشبيهِ والنظير فهو أبلغُ وأحرىٰ. وقيل: سبح ناطقًا باسمِ ربِّك متكلمًا به ذاكرًا اسمه(١).

٣. ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾: صفةٌ للرب، فهو له العلو المطلق، فوقَ كلِّ شيء، وهو القاهرُ لكلِّ شيءٍ، والمرادُ بقولهِ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾: أي: عظم ربَّك الأعلىٰ ونزه -عز اسمه- عن أن يوصفَ بوصفٍ لا يليقُ به.

٤. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: أي خلق كلَّ شيءٍ فسوىٰ خلقَه تسويةً في أحسنِ

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزي (٢/ ٢٧).

الهيئاتِ، ولم يأت به متفاوتًا غيرَ ملتئم، بل جاء خلقُه في إحكامٍ واتساقٍ وأكملِ حال، وجعل له ما به يكون كمالُه ويتمُّ معاشُه، وقيل: خلقَ الإنسانَ فسوىٰ أعضاءَه بأن جعلَها متناسبةً غيرَ متفاوتة، وقيل: جعلَ كلَّ مخلوقٍ مناسبًا لما خُلقَ له حتىٰ يقومَ بالأعمالِ التي تناسبه.

٥. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾: التقديرُ: وضْعُ المقدارِ وإيجادُه في الأشياءِ في ذواتِها وقواها أي: قدّرَ أجناسَ الأشياءِ، وأنواعَها، وصفاتِها، وأفعالَها، وأقوالَها، وآجالَهَا، فهدىٰ كلَّ واحدٍ منها إلىٰ ما يصدرُ عنه، وينبغي له، ويسَّرَه لما خُلقَ له، وألهم ذلك فطرة، فقدرَ خلقَ كلِّ شيء، وهداه إلىٰ إتيانِ ما قُدرَ له وعليه، وقرأ الجمهورُ بالتشديدِ، وقرأها الكسائي وحده بالتخفيف، فاحتملَ أن يكون من القدرِ والقضاء، واحتمل أن يكون من التقديرِ والموازنة بين الأشياء[1].

٦. ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾: أي أنبت العشبَ والكلأَ، وجميعَ صنوفِ النبات الذي ترعاه البهائمُ وغيرُها.

٧.﴿غُثَآءً﴾: الغثاءُ هو النباتُ اليابسُ المتحطم، كالغثاءِ الذي يكون فوقَ السيلِ من النباتِ اليابس.

٨.﴿أَحْوَىٰ﴾: سوادٌ يضربُ إلىٰ خضرة، وإنما سماه أحوىٰ لأن كلَّ أخضرٍ يضربُ إلىٰ السوادِ إذا اشتدت خضرتُه فهو أحوىٰ.

٩.﴿سَنُقْرِئُكَ﴾: أي يا محمد ﷺ القرآن.

١٠.﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: هذا وعدٌ من اللهِ لنبيهِ بحفظِ القرآنِ فلا يقعُ منه النسيان.

١١. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي إلا ما شئنا أن ننسيَكه فإنك تنساه؛ وذلك إذا أرادَ اللهُ تعالىٰ نسخَ شيءٍ من القرآنِ بلفظِهِ فإنه يُنسي فيه رسولَه ﷺ، وقيل: إلا ما

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٦).

www.Quranonlinelibrary.com

شاءَ اللهُ أن تنسىٰ، ثم تذكرُ بعد ذلك، فإذن قد نسي، ولكنه يتذكرُ ولا ينسىٰ شيئًا نسيانًا كليًا. وقيل: معنىٰ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: فلا تترك العملَ إلاَّ ما شاء اللهُ أن تتركه لنسخهِ ورفع حكمه(١).

١٢. ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾: أي السرُ والعلن، ويقال ما في القلبِ وما علىٰ اللسان، أي: يعلمُ ما يجهرُ به العباد وما يخفونه من أقوالِهم وأعمالِهم، لا يخفىٰ عليه شيء.

١٣. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: اليسرىٰ علىٰ وزن فعلىٰ من اليسرِ، ومعناه للأيسرِ، نوفقك للطريقةِ التي هي أيسرُ وأسهل، وقيل: إلىٰ الشريعةِ اليسرىٰ، وهو الإسلامُ الذي لا حرجَ فيه ولا عسرَ بل هو سمحٌ سهل. وقال مقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: نهوّن عليك عمل الجنة». وقيل: نهوّن عليك الوحي حتىٰ تحفظَه وتعملَ به، والأولىٰ حملُ الآيةِ علىٰ العموم، أي: نوفقك للطريقةِ اليسرىٰ في الدينِ والدنيا، وفي كلِّ أمرٍ من أمورِهما التي تتوجه إليك(٢).

ثانيًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ الأمرَ من اللهِ تعالىٰ لرسولهِ محمد ﷺ، وأمتُه تابعةٌ له بأن ينزه اسمَ ربهِ عن أن يسمىٰ به غيرُه، أو أن يذكرَ في مكانٍ قذر، أو أن يذكرَ بعدمِ إجلالٍ واحترامٍ وإكبارٍ وخشوعٍ وتعظيم، كمن يذكرُه بسخريةٍ أو لعب، أو وضعَه في غيرِ مواضعِه كنقشِ الثوب أو الفراشِ الممتهن، أو أن يُذكرَ في الأماكنِ غيرَ الطاهرة، أو تفسرُ أسماؤُه بما لا يصحُ ثبوتُه في حقهِ سبحانه،

(١) فتح القدير لمحمد الشوكاني (٥/ ٤٢٤).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٤٢٤).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ويدخلُ فيه أن يذكرَ تلك الأسماءَ عند الغفلةِ وعدمِ الوقوف علىٰ معانيها وحقائقها، لأن التسبيحَ ليس هو مجردُ ترديدِ لفظِ سبحان الله، بل هو التمجيدُ والتنزيُه واستحضارُ معاني الصفات الحسنىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

٢. فيها وجوبُ تنزيهِ اللهِ تعالىٰ عن كلِّ ما لا يليقُ بعظمته؛ لأن تنزيهَ الاسمِ مستلزمٌ لتنزيهِ المسمىٰ، وتنزيهِ اللهِ تعالىٰ يكون بنفي الشريكِ عنه والصاحبةِ والولدِ والشبيهِ والنظير، ونفي كلِّ نقصٍ عنه قولًا واعتقادًا، وقد جاء الأمرُ بتسبيحِ اللهِ في آياتٍ كثيرةٍ منها قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

٣. تفيدُ الحثَّ علىٰ الإكثارِ من تسبيحِ الله تعالىٰ باللسانِ بقولِ العبد «سبحان ربِّي الأعلىٰ»، ويشملُ ذلك استحضارَ الناطقِ معاني ألفاظِ التسبيحِ إذ المقصودُ من الكلامِ معناه، وبتظاهُرِ النطقِ مع استحضارِ المعنىٰ يتكررُ المعنىٰ علىٰ ذهنِ المتكلم، ويتجددُ ما في نفسِه من تعظيمِ لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

٤. تفيدُ أن التسبيحَ باللسانِ لابد فيه من ذكرِه بالأسماءِ الحسنىٰ التي أمرَ بذكرِه بها، فلذلك أوقعَ التسبيحَ علىٰ الاسم ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ويؤيدُه ما

وردَ عن عن سعيدِ بن جبير عن ابنِ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ النبيّ ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: (سبحانَ رَبّي الأعلىٰ)(١)، ولهذا الذين يذكرون الله بغيرِ أسمائهِ قد ضلوا ضلالًا مبينًا.

٥. فيها بيانٌ لسرعةِ استجابةِ النبيِّ ﷺ لربه، فقد كان رسولُ الله ﷺ يقرأُ هذا الأمر، ثم يعقبُ عليه بالاستجابةِ المباشرة، قبلَ أن يمضيَ في آيات السورة، وقد ورد أنَّ النبيّ ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: (سبحانَ رَبّي الأعلىٰ)، وقد جاءت أدلة كثيرة في فضل التسبيح.

٦. فيها مشروعيةُ قولِ «سبحان ربي الأعلىٰ» عند قراءةِ هذه الآية: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ.

٧. فيها وجوبُ التسبيحِ بها في السجود في كلِّ سجدةٍ من الصلاةِ، سبحان ربي الأعلىٰ ثلاثا فأكثر، كما جاء عن عقبة بن عامر الجهني يقول: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: (اجْعلُوهَا في رُكوعِكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، فقال: (اجعلوها في سُجُودِكم)(٢).

٨. فيها بيانُ مكانةِ ومنزلةِ النبيِّ ﷺ حيث اضافَه لربوبيتهِ، قال ابنُ عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: «وأما إضافةُ (رب) إلىٰ ضميرِ الرسولِ ﷺ فلتشريفهِ بهذه الإضافة، وأن يكون له حظٌ زائدٌ علىٰ التكليفِ بالتسبيح»(٣).

(١) أخرجه أبو داود ح رقم (٨٨٣)، وأحمد في المسند ح رقم (٢٠٦٦)، والحاكم في المستدرك ح رقم (٩٧٠)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (١/ ٣٩٥)، وصححه الألباني في سنن أبي داود (١/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه أبو داوود ح رقم (٨٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير ح رقم (٨٨٩)، والحاكم ح رقم (٣٧٨٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٤).

٩. تفيدُ أن التسبيحَ هو الزادُ الذي يتزودَ به الدعاةُ في معركتِهم مع الباطل، ولذا هنا أولُ ما أمرَ به النبيُّ ﷺ قبل التذكير بالقرآن التسبيح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]، وقال تعالىٰ عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]، وقال تعالىٰ لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

١٠. تفيدُ إثباتَ صفةِ العلو للهِ تعالىٰ، فالأعلىٰ صفةٌ للربِّ تبارك وتعالىٰ، دالٌ علىٰ علوِّه علىٰ خلقهِ علوًا مطلقًا لم يحدده القرآنُ بشيءٍ معين، «وعلو اللهِ عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة: فإن أكملَ الصفاتِ لله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]. وأما علو الذات: فهو أن اللهَ تعالىٰ فوقَ عبادِه مستوٍ علىٰ عرشه»[(١)]، قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسلف والأئمة يقولون: إن اللهَ فوقَ سماواتهِ مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقهِ، كما دلَّ علىٰ ذلك الكتابِ والسنة، وإجماعُ سلفِ الأمة، وكما علمَ المباينةُ والعلو بالمعقولِ الصريح، الموافقِ للمنقولِ الصحيح، وكما فطرَ الله علىٰ ذلك خلقهِ، من إقرارِهم به، وقصدِهم إياه سبحانه وتعالىٰ جهةَ

(١) تفسير جزء عم لابن عثيمين (ص: ١٤٢).

www.Quranonlinelibrary.com

العلو»(١)، أما أهلُ البدعِ فإنهم لا يثبتون علو الذات، فالخلقُ كلُّه تحته، وهو قاهرٌ له وحاكم فيه.

١١. فيها أنه لما أجري على لفظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صفةُ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ وما بعدها من الصفاتِ الست الدالةِ على كمالِ قدرته، يفيدُ ذلك أنه مستحقٌ للتنزيهِ لصفاتِ ذاته ولِصفاتِ إنعامهِ على الناسِ بخلقِهم في أحسنِ تقويم، وهدايتِهم، ورزقِهم، ورزقِ أنعامهم، للإيماءِ إلى موجبِ الأمرِ بتسبيحِ اسمه بأنه حقيقٌ بالتنزيهِ استحقاقًا لذاتهِ ولوصفه بصفةِ أنه خالقُ المخلوقاتِ خلقًا يدلُ على العلمِ والحكمةِ وإتقانِ الصنع، وبأنه أنعمَ بالهدى والرزقِ اللذين بهما استقامةُ حالِ البشر في النفس والجسد.

١٢. تفيدُ أن إيثارَ هذا الوصف ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في هذه السورة؛ لأنها تضمنت التنويهَ بعظيمِ صفاته، وجليلِ نعمهِ الحسية التي تمثلت في الخلقِ والتسويةِ والتقديرِ والهدايةِ وغيرها، وفي عظيمِ نعمتهِ المعنويةِ التي تمثلت في القرآنِ المحفوظِ في قلبه، الميسرِ بفضلهِ في تلاوتهِ وحفظهِ وفهمهِ والعملِ به، الذي أمر أن يذكرَ به، فكل ذلك يدل على علو شأنه جل وعلا.

١٣. تفيدُ أن جعلَ قولَه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ دعاءَ السجودِ في الصلاةِ إذ وردَ أن يقولَ الساجد: سبحان ربي الأعلى، ليقرن أثرَ التنزيهِ الفعلي بأثرَ التنزيهِ القولي، ولهذا كان الإنسان إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، يتذكر بسفول وجهه -الذي هو أعلى ما في الإنسان- علو ربه.

١٤. فيها أن الأمرَ بالتسبيحِ بصفةِ الأعلى يفيدُ أنه تعالى أعلى وأجل وأعظم من كلِّ ما يصفه به الواصفون، ومن كلِّ ذكر يذكره به الذاكرون،

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧).

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

فجلال كبريائه أعلىٰ من معارِفنا وإدراكاتنا وأصناف آلائه ونعمائه أعلىٰ من حمدنا وشكرنا وأنواع حقوقه أعلىٰ من طاعاتنا وأعمالنا.

١٥ . تفيدُ الحثَّ علىٰ ذكرِه وعبادته، والخضوعِ لجلاله، والاستكانةِ لعظمته؛ لأن التسبيحَ متضمنٌ لذلك كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة:١٥].

١٦ . تفيدُ حسنَ براعةِ الافتتاحِ، لأن الافتتاحَ بأمرِ النبيِّ ﷺ بأن يسبحَ اسمَ ربه بالقول، يؤذنُ بأنه سيُلقي إليه عقبَه بشارةً وخيرًا له؛ وذلك ما جاء في قولِه تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ: ٦]، وقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.

١٧ . فيها أن هذه السورة لما تضمنت من معاني التوحيدِ العظيمة شرعت قراءتُها في الوترِ، فيقرأ في الركعةِ الأولىٰ بالفاتحةِ والأعلىٰ، وفي الثانيةِ بالفاتحةِ والكافرون، وفي ركعةِ الوتر بالفاتحةِ والصمد أو الصمد والمعوذتين، وفي الجمعة، وفي العيد.

١٨ . تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ وحدَه هو الذي أوجدَ المخلوقاتِ من العدم، من سمواتٍ وأرضٍ وما فيهن، وما بينهن، وبحارٍ وأنهارٍ وما فيهما، وغيرِها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وأن غيرَه لا يستطيعون خلقَ ذبابٍ ولو اجتمعوا له، كما قال تعالىٰ في ذلك تعجزًا للعالمين إلىٰ يوم الدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[الحج:٧٣-٧٤].

١٩. تفيدُ أن اللهَ بعد ما امتن علىٰ خلقهِ بالخلق، امتن عليهم بتسويةِ ما خلق، فالخلقُ امتنانٌ بالإيجادِ، والتسويةُ امتنانٌ بالإتقانِ والإحسانِ لما خلق، وحذفَ مفعولُ خلقَ وسوىٰ لقصدِ الإجمال الذي يفيدُ العموم، وهو شأنُ حُذِفَ المفعولِ إذا لم يدل عليه دليل، فالخلقُ والتسويةُ شاملان للإنسانِ وغيرِه قال تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك:٣]، فسوىٰ أجزاءَ كلِّ خلقٍ ومخلوقٍ بما يناسبُه من الأعمالِ التي في جبلتهِ، وحتىٰ ما يرىٰ من اعوجاجٍ في بعضِ الخلق كاعوجاجِ زُبَانَي العقرب من تسويةِ خلقِها لتدفعَ عن نفسِها بها بسهولةٍ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧]، فإحسانُ خلقهِ يتضمنُ تسويتَه وتناسبَ خلقهِ وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسبِ والاعتدال في تحقيقِ ما خلقَ له، قال مقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ «خلقَ لكلِّ دابةٍ ما يصلحُ لها من الخلق»(١)، وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خلق الإنسان مستويا»(٢)، وهذا تمثيل.

٢٠. فيها تذكيرٌ للإنسانِ خاصة بنعمةِ تسويةِ خلقِهِ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ﴾ [التين: ٤]، المستلزم لشكرِه ووجوبِ عبوديتهِ وتنزيهه؛ لأنه بلغَ في التسويةِ كمالَها، فقد جعلَ قامتَه مستويةً معتدلة، وخلقتَه حسنةً جميلةً، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ١٣١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣١٥).

رُوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧-٩]، فهو المميزُ بالعقل، المهيأُ للتكليفِ، فقد خصه من نعمةِ الخلقِ والتسويةِ والتقديرِ والهدىٰ أعلاه بما يستوجبُ شكره في ما نراه من نعمةِ التسوية في جوارحنا وما لا نراه.

٢١. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ الذي خلقَ الخلقَ من العدمِ، وخلقهم في إحكامٍ واتساقٍ يدلُ ذلك علىٰ كمالِ علمهِ وحكمتهِ وقدرته ورحمتهِ ولطفهِ وبره.

٢٢. فيها بيانٌ لمشهدٍ آخرٍ عظيمٍ في ربوبيته لمن تأملَه في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أي قدرَ أجناسَ الأشياءِ، وأنواعَها، وصفاتِها، وأفعالَها، وأقوالَها، وآجالها، وقدرَ لكلِّ شيءٍ شكله، وهدىٰ كلَّ واحدٍ إلىٰ ما يصدرُ عنه وينبغي له، وهداها إلىٰ أداءِ وظائفِها كما قدّرَها لها، ويسرَّه لما خلَقَه له، فقدرَ الأذنين وهداهما للسمع، وقدرَ العينين وهداهما للبصر، وقدرَ الرجلين وهداهما للمشي، وقدرَ اللسان وهداه للنطق، وقدرَ أرزاقَ الخلقِ وأقواتَهم، وهداهم لمعايشِهم إن كانوا إنسا، ولمراعِيهم إن كانوا أنعامًا، وخلقَ المنافعَ في الأشياءِ وهدىٰ الإنسانَ لوجه استخراجِها منها، وقدر لكلِّ حيوانٍ ما يُصلِحه فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، وقدر الأعضاء التناسلية في الحيوانِ وهداها إلىٰ وطءِ الإناث لبقاءِ النسل، وقدرَ أطوار الجنين، وهداه إلىٰ الخروجِ من بطنِ أمه، وقدر لبنَ الأمِ وهدىٰ المولودَ عند وضعه إلىٰ مصِ الثدي، وقدرَ النحلَ وهداها أن تسلكَ السبل التي فيها مراعِيها علىٰ تباينها إلىٰ قوتها، وتأتها ذللا لا تستعصي عليها، ولا تضلُّ عنها وأن تجتني أطيبَ ما في المرعىٰ وألطفَه، وأن تعودَ إلىٰ بيوتِها الخاليةِ فتصبُ فيها شرابا مختلفا ألوانه، فيه شفاءٌ للناس، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون، وهذه الأقوالُ

أمثلة، وحُذِفُ المفعولُ ليفيدَ العموم، فإن هدايةَ الإنسانِ وسائرِ الحيواناتِ إلىٰ مصالحهِ بابٌ واسعٌ فيه عجائبُ وغرائبُ تحتارُ فيها عقولُ العالمين، " وتفصيلُ هذه الجملة مما لا يفي بشرحهِ المجلدات بل العالمُ كلُّه من أعلىٰ عليين إلىٰ أسفل السافلين تفسيرُ هذه الآية وتفصيلُ هذه الجملة »[1] ليس لمن يتأملَه إلا أن يقولَ: (سبحان ربي الأعلىٰ).

٢٣. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ قدرَ الأشياءَ في كتابِ المقادير وهدىٰ كلَّ مخلوقٍ إلىٰ ما قدره له أو عليه ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، فهو طالبٌ له حتىٰ يدركَه في زمانهِ ومكانهِ، وعلىٰ الصورةِ التي قدر عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، قدره في حالهِ، وفي مآلهِ، وفي ذاتهِ، وفي صفاتهِ، فكلُّ شيءٍ له قدرٌ محدود، فالآجالُ محدودة، والأحوالُ محدودة، والأجسامُ محدودة، وكلُّ شيءٍ مقدرٌ تقديرًا، هذا خلقُ الله، شاهدوا معي فقط مشهدًا واحدًا من مشاهد تقديره، قال تعالىٰ عن خلقِ الإنسانِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٧].

٢٤. فيها بيانٌ لما يستوجبُ تسبيحَه وتنزيهه جل وعلا؛ لأنه لما أمرَ بالتسبيحِ فكأن سائلًا يقولُ: الاشتغالُ بالتسبيحِ إنما يكونُ بعدَ معرفةِ الدليلِ علىٰ وجودِ الربِّ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، فذكر أربعةَ

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢٧).

أمورٍ عامةٍ: الخلقُ والتسويةُ، والتقديرُ والهداية، وجعلَ التسويةَ من تمامِ الخلق، والهدايةَ من تمامِ التقدير، فذكرَ الصفاتِ الدالةِ علىٰ استحقاقِ اللهِ تعالىٰ للتنزيهِ، فجاءت الآياتُ في التعريفِ به سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يعظمَ اسمُه، وتعظمَ ذاتُه، وينزه عن الشريكِ والصاحبة والولد.

٢٥. فيها دليلٌ علىٰ نفي الاستطاعة وبيانٌ لعجز الإنسانِ وحاجتهِ لربه، فإن من لا يقدرُ أن يكون خلقًا حتىٰ يخلقَ، لا يقدرُ أن يهتدي بنفسهِ حتىٰ يهدىٰ.

٢٦. تفيدُ أن من أقوىٰ الأدلةِ علىٰ توحيدِ اللهِ الاستدلالَ بالخلقِ والهداية، وهي الطريقةُ المعتمدةُ في القرآن الكريم، كما قال تعالىٰ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء ٧٨]، وقال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعونَ عند ما قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢]،هذا إشارة إلىٰ الخلق، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق ٣-٤] وهذا إشارة إلىٰ الهداية؛ وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرًا؛ لأن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدةُ الإنسانِ لها واطلاعُه عليها أتم وأقوىٰ في الدلالة[1].

٢٧. تفيدُ أن اللهَ تباركَ تعالىٰ وحده هو الذي أنزلَ من السماءِ الماءَ فأنبت به أنواعَ النباتِ والعشبِ والكلأ؛ الذي ترعاه البهائم، وكلُّ حيوان، أي هو القادرُ علىٰ إنباتِ العشبِ لا الأصنامُ التي عبدتها الكفرة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢٦).

ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠].

٢٨. فيها تذكيرٌ لخلقِ جنسِ النبات من شجرٍ وغيره، بعدَ التذكيرِ بخلقِ المتحركاتِ في الكونِ بإرادتها؛ واقتُصرُ علىٰ بعضِ أنواعهِ وهو الكلأُ لأن معاشَ السوائمِ التي ينتفعُ الناس بها. فاللهُ تعالىٰ خلقَ هذه الأرض وقدرَ فيها أقواتَها كذلك لكلِّ حي يدبُ فوقَ ظهرِها أو يختبئ في جوفِها، أو يطيرُ في جوها، وهو مشهدٌ آخر يستوجبُ التسبيح، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت:٩ - ١٠].

٢٩. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ هو الذي ينزعُ مما خلقَه من مرعىٰ صفةَ الحياةِ ويجعلُه هشيما متفرقا يابسا بعدَ الخضرةِ والنضرة كأن لم يغن بالأمس.

٣٠. فيها إشارةٌ من حياةِ النباتِ وجعلِهِ غثاءً أحوىٰ إلىٰ أن كلَّ نبتٍ إلىٰ حصادٍ، وأن كلَّ حي إلىٰ نهاية، بما يذكرُ بقدرتهِ وتقديره للحياة الآخرِة، وهو المناسبُ مع الحديثِ في آخر السورةِ هنا عن الحياة الدنيا والحياة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

٣١. تفيدُ أن الأمرَ بالتسبيحِ، وذكرَ الخلقِ كله بعده، تذكيرٌ آخر بالتسبيحِ الذي هو سمة خلقهِ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]، قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٣٢. فيها أن اللهَ تباركَ وتعالىٰ لما ذكرَ موجباتِ التسبيحِ من خلالِ كونهِ المنظور، نبه بما لا يتمُّ ولا يكتملُ التسبيحُ إلا بتلاوتهِ، وهو القرآنُ الكريم، نورُ الوجود، الذي هدىٰ فيه إلىٰ التسبيحِ الذي يرتضيه ويليقُ به.

٣٣. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ هو الذي علمَ نبيه الكريم القرآنَ وأنزلَه عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

٣٤. فيها بيانُ شرفِ قراءة القرآن، فهو من النعمِ العظيمة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

٣٥. فيها بيانٌ آخرٌ لحفظِ الله تعالىٰ لكتابهِ اضافةً لما سبقَ في البروجِ والطارق، فقوله تعالىٰ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ هذه بشارةٌ من اللهِ تعالىٰ لرسولهِ؛ لأن هذا خبرٌ «والمعنىٰ سنقرئك إلىٰ أن تصيرَ بحيث لا تنسىٰ كقولك: سأكسوك فلا تعرىٰ، أي: فتأمن العرىٰ»[1].

٣٦. تفيدُ أن اللهَ أكرمَ نبيه والأمةَ من ورائهِ، فعصمه من النسيان، فلا ينسىٰ منه شيئًا أراد الله بقاءه وتبليغه، وهذه بشارةٌ كبيرةٌ من اللهِ لعبدِه ورسولهِ محمد ﷺ، حيث علمه علمًا لا ينساه، وأن الله تعالىٰ وحده هو المنزه عن النسيان، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢].

٣٧. تفيدُ أن الأمرَ بيده عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وكل ما نزل عليه من

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢٨).

وحي أو رفعه بتقديره وحكمته، وليس لرسولهِ إلا الحفظُ والتبليغُ كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٥-١٦].

٣٨. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ معصومٌ من النسيانِ فيما أمرَ بتبليغهِ، فإن وقعَ نسيان، فيكون ذلك: إما لما أرادَ اللهُ أن ينسخَه من كلامهِ مما اقتضت حكمته أن ينسيه. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، قال الحسنُ وقتادة وغيرُهما: مما قضىٰ اللهُ نسخَه، وأن ترتفعَ تلاوتُه وحكمُه كقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦]، أو فيما قضىٰ الله أن ينساه ثم يذكره دلالة علىٰ بشريته، ومن هذا ما جاء في البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي سُورَةٍ بِاللَّيْلِ فَقَالَ: (يَرْحَمُهُ اللهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا) (١).

٣٩. تفيدُ أن عدمَ نسيانهِ لما أنزلَه اللهُ عليه من الوحي معجزةٌ خصه اللهُ بها، وهي دليلٌ علىٰ المعجزةِ من وجهين، الأولُ: أنه كان رجلًا أميًا فحفظه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، بابُ: نِسْيَانِ القُرْآنِ، وَهَلْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا، ح رقم (٥٠٣٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، بابُ: الْأَمْرِ بِتَعَهُّدِ الْقُرْآنِ، وَكَرَاهَةِ قَوْلِ نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَجَوَازِ قَوْلِ أُنْسِيتُهَا، ح رقم (٧٨٨).

لهذا الكتابِ المطول من غيرِ دراسةٍ ولا تكرارٍ ولا كتابةٍ خارقٌ للعادةِ فيكون معجزًا. الثاني: أن هذه السورة من أوائلِ ما نزلَ بمكةَ فهذا إخبارٌ عن أمرٍ عجيبٍ غريبٍ مخالفٍ للعادةِ سيقعُ في المستقبلِ، وقد وقعَ فكان هذا إخبارًا عن الغيبِ فيكون معجزًا.

٤٠. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ لما تكلمَ عن النسخِ الذي يعني رفعَ الحكمِ وتبديلَه ذكرَ بعلمهِ حتىٰ يطمئن العبدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ أعلمُ بمصالحِ العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ.

٤١. تفيدُ أن اللهَ بشَّر رسولَه ﷺ في هذه السورةِ ببشارتين عظيمتين الأولىٰ أنه حفظَ قلبه من النسيان بأن جعله لا ينسىٰ، والثانية: أنه ييسره لليسرىٰ، ومن ثمَّ ما خيرَ رسولُ اللهِ ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

٤٢. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ يعلمُ ما ظهرَ وما بطنَ من الأمورِ التي لا يعلمُها غيرُه جل وعلا، فيعلمُ ما يظهرُ من أفعالِ العبادِ وأقوالِهم وما يخفىٰ من أحوالهم.

٤٣. تفيدُ أن اللهَ عليمٌ بما يصلحُ عباده، وهذا من مستلزماتِ علمهِ بالجهرِ وأخفىٰ، فلذلك يشرعُ ما يشاء، ويحكمُ بما يريد، فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ كأن هذا تعليلًا لما سبقَ من الحفظ والاستثناء.. فكلُّها ترجعُ إلىٰ حكمةٍ يعلمُها من يعلمُ الجهرَ وما يخفىٰ، ومن يطلعُ علىٰ الأمرِ من جوانبه جميعا، فيقررُ فيه ما تقتضيه حكمتُه المستندةُ إلىٰ علمهِ بأطرافِ الأمر جميعا.

٤٤. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ أكرمَ نبيه فهونَ عليه عملَ الجنة، وهون عليه الوحي حتىٰ يحفظَه ويعملَ به، ويسرَ عليه جميعَ أموره.

٤٥. تفيدُ أن طريقةَ النبيِّ ﷺ ومنهجَه وهديه وشرعَه هو أيسرُ الطرقِ

للدين والدنيا ومن هنا كان الأنسانُ حيثما نظرَ في هذه الشريعةِ السمحةِ وجدَ اليسرَ ومراعاة الطاقةِ البشرية، والحالاتِ المختلفة للإنسان، والظروف التي يصادفها في جميع البيئاتِ والأحوال هو سمتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨]، فالحمد الله الذي جعل اليسرَ في ما شرعه الله إلينا، وأراد بنا اليسر في كلِّ تشريعه، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

٤٦. تفيدُ أن اللهَ ﷻ إذا أرادَ بعبدِه خيرا يسرَ عليه الأعمالَ التي توصلُه الجنة قال مقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ «نهونُ عليك عملَ أهلِ الجنة» وهو معنىٰ قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا ونيسرك لأن تعملَ خيرا[1]. و«اليسرىٰ» عملُ الخير.

٤٧. تفيدُ أن الميسر لأمورِ العبادِ في الدنيا ويومَ المعاد هو الله تعالىٰ وحده.

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٤٠١).

الموضوع الثاني
الأمرُ بأداءِ الرسالة
وبيانُ موقفِ الناس منها

قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى
﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ
ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٩ – ١٩].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

بعدَ أن ثبَّت اللهُ رسولَه ﷺ فتكفلَ له بدفعِ ما خافَه من ضعفٍ في أداءِ الرسالةِ علىٰ وجهها، ووعدَه بتيسيرِ أمرِه أعقبَ ذلك بأنْ أمَرَه بالتذكيرِ والاستمرارِ عليه، تقويةً لعزمِهِ، وشحذًا لنشاطهِ؛ لأن التذكيرَ يقتضي تكميلَ الناقصين وهدايةَ الجاهلين، فلما كملَه في نفسهِ بالتزكي والحفظِ والتيسير، حثه علىٰ تكميلِ وتزكيةِ غيره.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. ﴿فَذَكِّرْ﴾: أي عظ بالقرآن.

٢. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: قال الواحديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن نفعت أو لم تنفع؛ لأن النبيَّ ﷺ بُعثَ مبلِّغًا للإعذار والإنذار، فعليه التذكيرُ في كلِّ حالٍ، نفعَ أو لم ينفع،

ولم يذكر الحالةَ الثانية كقوله تعالىٰ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]»(١).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ قولَه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ للتنبيهِ علىٰ أشرفِ الحالين، وهو: وجودُ النفعِ الذي لأجلهِ شرعت الذكرىٰ، والمعلقُ بإن علىٰ الشيءٍ لا يلزمُ أن يكون عدمًا عند عدمِ ذلك الشيء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١] فإن القصرَ جائزٌ عند الخوفِ وعدمه، وقيل: «إن» بمعنىٰ «ما»، أي: فذكر ما نفعت الذكرىٰ»(٢).

٣. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: أي: يتركُها جانبًا فلا يلتفت إليها.

٤. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: هو الشديدُ الشقوة، والشقوةُ والشقاء في لسانِ الشرعِ الحالةُ الناشئةُ في الآخرةِ عن الكفرِ من الإهانةِ والتعذيب، فالأشقىٰ: هو الكافرُ لأنه أشدُّ الناسِ شقاءً في الآخرةِ لخلودِه في النارِ.

٥. ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: أي: العظيمةُ الفظيعة؛ لأنها أشدُّ حرًا من غيرِها. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النارُ الكبرىٰ نارُ جهنم»(٣)، وهي نارُ الآخرة، والنارُ الصغرىٰ نار الدنيا؛ لأن نارَ الدنيا مهما عظمت فهي صغيرة.

٦. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾: أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة فيها راحة.

٧. ﴿أَفْلَحَ﴾: أي فازَ وظفرَ بالبغيةِ بأن نجا من النار، ودخل الجنة.

٨. ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي: تطهرَ بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ بعدَ التخلي عن الشركِ والمعاصي.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٤٧٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٢٣١)، وانظر: زاد المسير في علم التفسير (٩/ ٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ٢٠).

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (١٤/ ٢١٩).

٩. ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾: أي في كلِّ أحايينهِ عند الأكلِ، والشربِ، والنومِ، وفي الصلاةِ وخارجِ الصلاة من تسبيحٍ وتحميدٍ وتهليلٍ وتكبير.

١٠. ﴿فَصَلَّىٰ﴾: أي: الصلواتُ الخمس والنوافلُ من رواتبَ وغيرها.

١١. ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾: الإيثارُ: اختيارُ شيءٍ من بين متعدد، أي: تقدمون وتفضلون وتختارون الدنيا علىٰ الآخرة.

١٢. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾: أي ما ذكرَه اللهُ في هذه السورة، وقيل: من قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في جميعِ كتب الأولين أن الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ»(١).

١٣. ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: و(الصحف): جمعُ صحيفةٍ علىٰ غيرِ قياس؛ لأن علىٰ القياسِ جمعَه صحائف، ولكنه مع كونهِ غيرِ مقيس هو الأفصح كما قالوا: سُفُن في جمعِ سفينة، ووجه جمع الصحف أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت له صحف، وأن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت له صحف كثيرة، وهي مجموع صحف أسفار التوراة.

١٤. ﴿وَمُوسَىٰ﴾: أي توراته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثالثًا: الهدايات المستفادة من الآيات:

٤٨. تفيدُ الأمرَ بوعظِ الناس وتذكيرِهم بآياتِ اللهِ وشرعهِ الذي أنزلَه وأرشدَ العبادَ إلىٰ طريقِ الخيرِ وشرائعِ الدين من خلاله، كلَّما وجدَ الإنسانُ فرصةً للتذكير، ومنفذًا للقلوب، ووسيلةً للبلاغ، والذكرىٰ لن تعدمَ من ينتفعُ بها كثيرا كان أو قليلا في الجملة. ولن يخلو جيلٌ وأرضٌ ممن يستمعُ وينتفع.

٤٩. تفيدُ أنه إن لم تنفع الذكرىٰ، بأن كان التذكيرُ يزيدُ في الشر، أو ينقصُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٣٤).

من الخير، لم تكن الذكرىٰ مأمورًا بها، بل منهيًا عنها، ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ما دامت الذكرىٰ مقبولةً، والموعظةُ مسموعة، سواءً حصلَ من الذكرىٰ جميعَ المقصودِ أو بعضَه، وهذا مأخوذ من مفهومِ المخالفةِ.

٥٠. تفيدُ أن من ذُكِّرَ وبُيِّنَ له الحقُ بجلاءٍ فاتبعَ هواه وأصرَ علىٰ العصيانِ فالأولىٰ عدمُ الانشغال به، كما قال تعالىٰ لرسولهِ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

٥١. تفيدُ أن الناسَ ينقسمون من الذكرىٰ قسمين: منتفعون وغيرُ منتفعين، وهي دليلٌ علىٰ تفاوتِ المنفعةِ بالذكر، وهي للمؤمنِ ليست كما للكافر، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

٥٢. تفيدُ أن الداعيةَ ينبغي أن يسلكَ الأسلوبَ الذي من خلالهِ تنفعُ الذكرىٰ، لأن حصولَ النفعِ والسعي إليها مطلوب، ولذا أمرَ اللهُ في الدعوةِ بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥٣. فيها بيانُ صفةِ من ينتفعُ بالذكرِ في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: يخشىٰ الله تعالىٰ، فإن خشيةَ اللهِ تعالىٰ هي التي توجبُ للعبدِ الانكفاف عن المعاصي والسعي في الخيرات، كما قال تعالىٰ في وصفِ عبادِ الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]، فمن يخشىٰ اللهَ ويخافه هو الذي إذا ذكرَ ووعظَ بآياتِ اللهِ اتعظ وانتفع، لأنه علمَ أن للوجودِ إلهًا خلقَ فسوىٰ، وقدر فهدىٰ، وهو لن يتركَ الناسَ سدىٰ، ولن يدعَهم هملا فلا بد من محاسبتِهم علىٰ الخيرِ والشر، ومن ثم فهو

يخشىٰ. فإذا ذُكِّرَ ذَكَرَ، وإذا بُصِّر أبصر، وإذا وعظ اعتبر.

٥٤. تفيدُ أن المؤمنَ إذا سمعَ مذكرًا ينبغي أن يسعىٰ إليه، ولا يبتعدُ عنه ويتجنبُه، حتىٰ لا يكونَ ممن قال اللهُ تعالىٰ عنه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

٥٥. تفيدُ أن الذي يرفضُ الذكرىٰ ويبتعدُ عنها هو الكافرُ الذي مصيرُه الشقاء في الدارين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾، فلا يسمعُ لها ولا يفيد منها.

٥٦. فيها أن مقابلةَ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ بـ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ تؤذن بأن ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ من شأنه أن لا يخشىٰ، فهو سادرٌ في غرورِه، منغمسٌ في لهوه، فلا يتطلبُ لنفسه تخلصًا من شقائه.

٥٧. تفيدُ أن علامةَ الخشيةِ الاقتداء، وعلامةَ الشقاء التجنبُ والانتهاءُ والابتداعُ والإباءُ.

٥٨. تفيدُ أن الإعراضَ عن الذكرىٰ سببٌ للشقاء، فهو ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الذي تتمثلُ فيه غايةُ الشقاوةِ ومنتهاها، فهو الأشقىٰ في الدنيا بروحهِ الخاوية الميتةِ القلقةِ المتكالبةِ علىٰ حطام الدنيا، والأشقىٰ في الآخرة بسوء ما قدم.

٥٩. فيها بيانُ عاقبةِ من يعرضُ عن الوحي فإن مصيرَه أن يصلىٰ بالنارِ الكبرىٰ في الآخرة.

٦٠. فيها بيانُ عظمةِ نار الآخرة بالنسبةِ لنار الدنيا، فقد وصفَها بالنار ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾، أي: الكبرىٰ بحجمها، والكبرىٰ بشدتِها، والكبرىٰ بمدتِها، والكبرىٰ بهول ما فيها.. كما جاء عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّهَا لَكَافِيَةٌ

يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا حَرًّا فَحَرًّا)[1] وهذا الوصفُ للتهويلِ والإنذارِ.

٦١. فيها بيانُ حالِ أهلِ النار بأن الانسان لا يموتُ فيستريحُ مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياةً يسعدُ بها، فهم يعذبون عذابًا أليمًا، من غيرِ راحةٍ ولا استراحة، حتىٰ إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧].

٦٢. تفيدُ أن نفيَ الضدين، وهما الحياةُ والموت يفيدُ شدةَ ما هم فيه من العذابِ؛ لأن ترددَ حالِه بين الحياة والموت، وهو في عذابٍ واحتراقٍ أشدُّ ممّا أفاده أنه في عذابِ الاحتراق، فالاحتراقُ واقعٌ، وقد زيدَ فيه درجةٌ أنه لا راحةَ منه بموت ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي حياةً خالصةً من الآلام.

٦٣. تفيدُ أن القرآنَ مثاني ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، لأنه لما ذكرَ وعيدَ من أعرضَ عن النظرِ والتأملِ في دلائلِ اللهِ تعالىٰ أتبعَه بالوعدِ لمن تزكىٰ ويطهرُ من دنسِ الشرك.

٦٤. تفيدُ أن أساسَ الفلاحِ تحقيقُ التوحيد، فإنه تعالىٰ لما لم يذكر في الآيةِ ما يجبُ التزكي عنه علمنا أن المرادَ هو التزكي عما مرَ ذكرُه فيما مضىٰ؛ وهو الكفر؛ ولأن الاسمَ المطلقَ ينصرفُ إلىٰ المسمىٰ الكامل، وأكملُ أنواعِ

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم (٧٣٢٧)، والترمذي ح رقم (٢٥٩٠)، وابن ماجة ح رقم (٤٣١٨)، والدارمي ح رقم (٢٨٨٩)، وقال الألباني صحيح لغيره في سنن الترمذي (٤/ ٧١٠).

التزكية هو تزكيةُ القلبِ عن ظلمةِ الكفر، فوجبَ صرفُ هذا المطلق إليه، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: معنىٰ تَزَكَّىٰ قولُ: «لا إله إلا الله»[1]، فأصلُ التزكي هو التوحيدُ والاستعدادُ للأعمالِ الصالحةِ التي جاء بها الإسلام ويجيء بها. فمن أعظمِ أسبابِ الفلاحِ تطهيرُ النفسِ من الشركِ بالتوحيدِ، ومن المعاصي بالطاعةِ، والعملِ بشرائع الإسلام. ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فازَ وربحَ من طهرَ نفسَه ونقاها من الشركِ فعبدَ اللهَ مخلصًا له الدين، ويتزكىٰ في دينهِ من الابتداعِ فيعبد اللهَ علىٰ مقتضىٰ شريعةِ النبي ﷺ في العقيدة، والقول، والعمل. ويتزكىٰ في معاملةِ الناس بتنقيةِ قلبهِ من الغلِ والحقدِ والعداوةِ والبغضاء، وكلِّ ما يجلبُ العداوةَ والبغضاءَ بين المسلمين يتجنبه، ويفعلُ كلَّ ما فيه المودةُ والمحبة.

٦٥. فيها إثارةٌ لهممِ المعرضين عن الذكرِ للالتحاقِ بالذين خشوا فأفلحوا، وذلك من خلال الإتيان بلفظِ ﴿أَفۡلَحَ﴾ الذي يجمعُ معنىٰ الفوزِ والنفع؛ وذلك هو الظفر بالمبتغىٰ من الخير، والإتيان به ماضي للتنبيهِ علىٰ المحققِ وقوعُهُ من الآخرة، واقترانه بحرف ﴿قَدۡ﴾ لتحقيقهِ وتثنيته.

٦٦. تفيدُ أن المرءَ ينبغي أن يبذلَ استطاعتَه في تطهيرِ نفسهِ وتزكيتها ﴿تَزَكَّىٰ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، فمادةُ التفعلِ تفيدُ التكلفَ وبذلَ الجهد.

٦٧. فيها أن تقدمَ التزكّي علىٰ ذكرِ اللهِ والصلاةِ؛ لأنه أصلُ العملِ بذلك كلِّه فإنه إذا تطهرت النفسُ أشرقت فيها أنوارُ الهدايةِ فعلمت منافعَها، وأكثرت من الإقبالِ عليها، فالتزكية: الارتياضُ علىٰ قبولِ الخير والمراد تزكّىٰ بالإيمان.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٢٣٦).

٦٨. تفيدُ الحثَ علىٰ الإكثارِ من ذكرِ اللهِ باللسان، مثلُ قول لا إله إلا الله، وقول الله أكبر، وسبحان الله، ونحو ذلك ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ أي: اتصفَ بذكرِ اللهِ، وانصبغَ به قلبُه، ويعني أيضًا ذكرَ اسمِ اللهِ تعالىٰ بالتعبدِ له، ويدخلُ في ذكرِ اسمِ اللهِ الوضوء، فالوضوءُ من ذكرِ اسمِ الله، أولًا: لأن الإنسانَ لا يتوضأ إلا امتثالًا لأمر الله. وثانيًا: أنه إذا ابتدأ وضوءَه قال: بسم الله، وإذا انتهىٰ قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين.

٦٩. تفيدُ الحثَّ علىٰ المحافظةِ علىٰ الصلواتِ الخمسة، وكلِّ الصلواتِ الأخرىٰ من العيدِ وغيرها. وتفريعُ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ علىٰ ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ يفيدُ أن الذكرَ يبعثُ علىٰ تعظيمِ الله تعالىٰ والتقربِ إليه بالصلاةِ التي هي خضوعٌ وثناء.

٧٠. تفيدُ البشارةَ لكلِّ عبدٍ مؤمنٍ طهرَ نفسَه بالإيمانِ وصالحِ الأعمال، وذكرَ اسمَ ربهِ في كلِّ أحايينهِ، عند القيامِ من النومِ، وعند الوضوءِ بعدَه، وفي الصلاةِ وبعدها، وعند الأكلِ والشربِ، وعند اللباسِ وغيرِها، فلا يخلو من ذكرِ اللهِ ساعة، فصلىٰ الصلواتِ الخمسَ والنوافلِ بالفلاح الذي هو النجاةُ من المرهوبِ، والظفرُ بالمرغوبِ المحبوب. والمرادُ هنا النجاةُ من النارِ، ودخولُ الجنةِ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾.

٧١. تفيدُ أن هذه الآياتِ جمعت مراتبَ أعمالِ المكلفِ الثلاثةِ التي بها يكون الفوزُ والفلاح، فأولُها إزالةُ العقائدِ الفاسدةِ عن القلب، وهي المرادُ بالتزكيةِ في قوله ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، وثانيها استحضارُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ بذاتهِ وصفاتهِ وأسمائهِ ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، وثالثُها

الاشتغالُ بخدمتهِ بالإقبالِ علىٰ طاعتهِ وعبادتهِ وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ والصلاةُ تشيرُ إلىٰ العبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتثالٌ يأتي بعدَه ما يشرعُ من الأعمال.

٧٢. فيها بيانُ حالِ العبادِ من الآخرةِ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث يقدمون الاهتمامَ بأمورِها علىٰ الآخرة، ويختارون نعيمَها المنغصَ المكدرَ الزائلَ علىٰ الآخرة.

٧٣. فيها النهي عن إيثارِ الحياةِ الدنيا بالعنايةِ الفائقةِ بأمورِها، والسعي الدائمِ لها، والانهماكِ في لذاتِها الفانيةِ مع تركِ الآخرة، وفعلِ ما به يكون الفلاحُ فيها، فحبُ الدنيا وإيثارُها علىٰ الآخرةِ رأس كلِّ خطيئة، وأساسُ كلِّ بلوىٰ.

٧٤. تفيدُ أن من قدمَ أعمالَ الدنيا علىٰ الآخرةِ فقد آثرَ الحياةَ الدنيا.

٧٥. فيها الترغيبُ في الآخرةِ لما لها من خصوصيةِ الفضلِ والدوام، فهي أفضلُ في نفسِها وأدوم، وخير في نوعِها، وأبقىٰ في أمدِها ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فهي خيرٌ من الدنيا في كلِّ وصفٍ مطلوب، وأبقىٰ لكونها دارَ خلدٍ وبقاء، فالآخرةُ مشتملةٌ علىٰ السعادةِ الجسمانيةِ والروحانية والدنيا ليست كذلك، والدنيا لذاتُها مخلوطةٌ بالآلامِ والآخرةُ ليست كذلك، والدنيا نعيمُها فانٍ والآخرة نعيمها باقٍ، فالمؤمنُ العاقلُ لا يختارُ الأردأ علىٰ الأجودِ، ولا يبيعِ لذة ساعة، بحسرةِ الأبد.

٧٦. تفيدُ أن إيثارَ الدنيا علىٰ الآخرةِ بعد أن علمنا أنها الهابطةُ العاجلةُ حماقةٌ وسوءُ تقدير. لا يقدمُ عليهما عاقلٌ بصير، فإن إيثارَ جانبِ الدنيا علىٰ الآخرة، والتوجه إلىٰ تحصيلِ منافعِها، والاهتمامَ بها اهتمامًا زائدًا علىٰ الاهتمامِ بالطاعات ليس من صفاتِ المؤمن العاقل. قال عرفجة الأشجعي:

«كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية، فقال لنا: أتدرون لم آثرنا الحياةَ الدنيا علىٰ الآخرة؟ قلنا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضرت، وعُجِّلَ لنا طعامُها وشرابُها ونساؤها ولذاتُها وبهجتُها، وأن الآخرةَ نُعِتت لنا، وزويت عنّا فأحببنا العاجلَ وتركنا الآجل»(١).

٧٧. فيها التزهيدُ في الدنيا، والترغيبُ في الآخرة لفناءِ الدنيا وبقاءِ الآخرة. قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كانت الدنيا من ذهبٍ يفنىٰ، والآخرةُ من خزفٍ يبقىٰ لكان الواجبُ أن يؤثرَ خزفٌ يبقىٰ علىٰ ذهبٍ يفنىٰ. قال: فكيف والآخرة من ذهبٍ يبقىٰ، والدنيا من خزف يفنىٰ»(٢).

٧٨. تفيدُ أن نعيمَ الآخرةِ دائمٌ لا انقطاعَ له أصلًا، وما كان باقيًا لا يعادلُ بما يفنىٰ بوجهٍ من الوجوه، فمن علم ذلك - وهو أمرٌ لا يجهل - اشتغلَ بما يحصلُ الآخرة، وفي ذكرِ الإيثارِ والدنو أولًا للتنفيرِ والحثِ علىٰ الترك، وفي ذكرِ الخيرِ والبقاءِ ثانيًا من بابِ الترغيبِ وليحثَ علىٰ الأخذِ، وسرُ ذلك أنه لا يؤثرُ الدنيء إلا دنيء.

٧٩. تفيدُ أن الذمَ الواردَ لا يفيدُ ترك الدنيا، وإنما هو ذمٌ لمن أخذَها وآثرها علىٰ الآخرة، والإفادةُ من منافعِ الدنيا مع عدمِ إهمالِ أسباب النجاة في الآخرة فذلك مَيدانٌ للهمم وليس ذلك بمحلِ ذم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

٨٠. تفيدُ أن اللهَ تعالىٰ لما ذكرَ ما به فلاحُ النفسِ وتزكيتها، ذكرَ بما فيه شقاءُ النفسِ وتكدرِها، ولما زهدَ في الدنيا رغب في الآخرة.

---

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٤٠٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ٢٤).

٨١. تفيدُ أن أسبابَ الفلاحِ السابقةَ هي وصيةُ اللهِ للأولين والآخرين حيث تتابعت كتبُ الله في بيانها. ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللذين هما أشرفُ المرسلين سوىٰ النبيِّ محمد ﷺ، فهذه أوامرُ في كلِّ شريعة، لكونها عائدةً إلىٰ مصالحِ الدارين، وهي مصالحُ في كلِّ زمانٍ ومكان.

٨٢. فيها بيانٌ لعظمِ ما جاء في هذه السورة، فقد يكون المشارُ إليه بلفظِ ﴿هَٰذَا﴾ جميعَ السورةِ؛ وذلك لأن السورةَ مشتملةٌ علىٰ التوحيدِ والنبوةِ والوعيدِ علىٰ الكفرِ بالله، والوعدِ علىٰ طاعةِ الله تعالىٰ، وقد يكون المشارُ إليه بهذه قولَه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إشارةٌ إلىٰ تطهيرِ النفسِ عن كلِّ ما لا ينبغي من العقائدِ الفاسدة، والأخلاقِ الذميمة.

٨٣. تفيدُ أن توافقَ الكتبِ السماويةِ دليلٌ أنها وحي اللهِ وكتبهِ أنزلها علىٰ رسلهِ عليهم السلام.

٨٤. تدلُّ علىٰ أن في القرآنِ مما في الصحفِ الأولىٰ، كما قال تعالىٰ في سورة النجم: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم:٣٦-٤١]، وفي حديث البخاري: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ)(١).

٨٥. فيها بيانٌ لبلاغة القرآن حيث جاء الكلامُ علىٰ أسلوبِ الإجمالِ والتفصيل ليكون لهذا الخبرِ مزيدُ تقريرٍ في أذهانِ الناس فقوله: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدلٌ من (الصحف الأولىٰ). والمرادُ بالأوليةِ في وصفِ الصحفِ سبقُ الزمانِ بالنسبةِ إلىٰ القرآن لا التي لم يسبقها غيرها..

---

(١) صحيح البخاري في كتاب: الأدب، باب: إذا لم تستح فاصنع ما شئت ح رقم (٥٧٦٩).

٨٦. فيها ما يرغبُ لما جاء في هذه السورة؛ لأن ما مضت عليه السنون، ومرت علىٰ قبولِه الدهورُ تكون النفسُ أقبلَ للإذعانِ له، وأدعىٰ إلىٰ إلزامِه، وأفادَ مع القدمِ أن المنزلَ عليه ﷺ ليس بدعًا من الرسلِ عليهم الصلاة والسلام؛ بل هو علىٰ منهاجِهم، فردُ رسالتِهِ من بينِهم لا يقولُ به منصف، لا سيما وقد زادَ عليهم في المعجزاتِ وسائرِ الكرامات.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما أمرَه سبحانه وتعالىٰ في آخرِ سورة الطارقِ بالإمهالِ وعدمِ الاستعجال الذي هو منزهٌ عنه لكونه نقصًا، ونزَه كلامَه عن الهزل، أمرَ أكملَ خلقهِ رسولَه المنزلُ عليه هذا القرآن ﷺ بتنزيهِ اسمه؛ لأنه وحده العالمُ بذلك حقَ علمه، فقال تعالىٰ له: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، ولما ذكرَه بربوبيتهِ بكمالِ نعمهِ عليه، وهو موجبٌ لتسبيحهِ ذكرَه بما له من الصفاتِ العلا التي هي كذلك من أعظمِ موجبات التسبيحِ بوصفِ: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، ولما ذكرَه بأعظمِ صفاتِ ذاتهِ الموجبةِ لتسبيحه، ذكرَه بأعظمِ أفعالهِ التي تدلُ علىٰ كمالهِ الموجبِ لتسبيحهِ فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.ولما كانت دلائلُ التوحيدِ تارةً بالنفسِ، وتارةً بالآفاق، ونبه بآياتِ النفس، فلم يبق إلا آياتُ الآفاق، وكان النباتُ من أدل آياتهِ المخلوقةِ علىٰ البعثِ قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، ولما كان إيباسُه وتسويدُه بعدَ اخضرارِه ونموه في غايةِ الدلالةِ علىٰ تمامِ القدرة، وكمالِ الاختيار بمعاقبةِ الأضداد علىٰ الذاتِ الواحدة قال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾.

ولما تكلمَ عن الهدايةِ العامةِ الموجبةِ لتسبيحه، تكلمَ عن هدايتهِ

الخاصة التي لا يتمُّ التسبيحُ بالصورةِ التي يريدُها اللهُ إلا به قال: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، ولما كان سبحانه وتعالىٰ ينسخُ من الشريعةِ ما يشاءُ بحسبِ المصالحِ تخفيفًا بهذه الأمة، قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، ولما كان الفاعلُ لهذه الأمورِ كلِّها لا سيما الإقراءُ والحكمُ علىٰ ما يقرأ بأنه لا ينسىٰ إلا ما شاء منه، لا يكون إلا محيطَ العلمِ بكلِّ شيء، قال تعالىٰ مصرحًا بذلك: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾، ولما ذكرَ ما أنزلَه عليه أشارَ إلىٰ يسرِه وسماحته، وأنه سبحانه وتعالىٰ لا يقيمُه في شيءٍ بنسخٍ أو غيره إلا كان هو الأيسرَ والأرفق له ولأمتِهِ فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

ولما كملَ نبيه ﷺ في نفسِهِ بتنزيهِهِ وتزكيته، وهيأه سبحانه وتعالىٰ لحفظِ دينه، ويسرَه له غايةَ التيسير، وكان ثمرةُ الرسالةِ والإقراءِ له هو انتفاعُه في ذاته، وانتفاعُ من أُرسِلَ إليهم قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، ولما أمرَه بالتذكيرِ لكلِّ أحد، قسمَ الناسُ له إلىٰ قسمين: قسمٌ يقبلُ العلاج، وقسمٌ لا يقبلُه، فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾، ولما ذكرَ وصفَه الذي أوجبَ له العملَ السيئ، ذكرَ جزاءَه فقال: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

ولما بينَ سببَ الشقاءِ ومصيرَهم، بين ما به يكون الفلاحُ والفوز، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ولما كان الكثيرُ من الناسِ لا يفعلون ما به يكون فلاحُهم به، بين سببَ شقائهم وصدِّهم وإعراضِهم وغفلتهم وما صرفهم عن التذكير والتطهير فقال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وتتركون الآخرة، والحال ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ولما كانت هذه النتيجة - التي هي الفلاحُ بالتزكية وما تبعها - خلاصةَ الكتبِ المنزلة، وصفها ترغيبًا

فيها وتأكيدًا عليها فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، ولما كان ذلك عامًا خصَّ من بينه تعظيمًا لقدرِ هذه الموعظة أعظم الأنبياء الأقدمين فقال مبدلًا عنه: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

خامسًا: المناسبةُ بين فاتحةِ السورة وخاتمتها:

قد حثَّ اللهُ تعالىٰ في آخرِها علىٰ التزكي، وهو التطهرُ من الأدناس الذي هو تنزيه النفسِ عن شوائبِ النقصِ الذي يعتريها، وكان في إتيانهِ والتذكيرِ به إعلامٌ بأن اللهَ تعالىٰ لم يخلقهم عبثا، ولن يتركهم سدىٰ؛ لأن ذلك من العبث الذي هو من أكبرِ النقائص، وهو سبحانَه منزهٌ عن جميعِ شوائبِ النقص، فكان أولُها في تنزيهِ الرب، وآخرُها في تنزيهِ النفس مما علق بها من آثارِ الذنوب والمعاصي، فرجع بذلك آخرُها علىٰ أولِها، وكان تنزيهُ الرب سبحانه وتعالىٰ وتنزيه النفس غايةُ معولِها ومنتهىٰ مقصدها.

كما أن التسبيح الذي أمر به في أولها هو أعظم ما تتحقق به التزكية التي حث عليها في أخرها.

سادسًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. الأمرُ بالتسبيحِ باسمه الأعلىٰ فيها دون غيرِه، وبيانُ موجباتِ التسبيح.

٢. الكلامُ عن الخلقِ والتسويةِ، والتقديرِ والهداية ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

٣. الكلامُ عن اخراجِ المرعىٰ، وجعله غثاءً أحوىٰ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾.

٤. الكلامُ عن حفظِ النبيِّ ﷺ للقرآن وعدم نسيانه إلا ما شاء الله، وتيسيره لليسرىٰ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

٥. الأمرُ بالتذكيرِ عند ما تكون الذكرىٰ نافعة ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٦. بيانُ موقفِ الناسِ من الذكرىٰ ومصيرِ كلِّ فريق ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

٧. وصفُ نارِ الآخرة بالكبرىٰ، وبيانُ حالِ أهلِها؛ لأنه لا يموت الواحدُ منهم ولا يحيىٰ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

٨. بيانُ أسبابِ الفلاح بثلاثةِ أمور ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

٩. الترغيبُ في الآخرةِ بوصفِها أنها خيرٌ وأبقىٰ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

١٠. بيان أن هذه الموعظة في الصحفِ الأولىٰ، صحف إبراهيم وموسىٰ، لتربط حاضر هذه الأمة بماضيها من الأمم السالفة الماضية علىٰ درب الهدىٰ والنور، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

١١. حملُ بشارتين لرسول الله ﷺ حفظ قلبه لهذا القرآن، وتيسير أموره، وجعل دينه في غاية من السماحة واليسر.

سابعًا: التكاليف الإيمانيةُ والعمليةِ من هدايات السورة:

١. الإكثارُ من التسبيحِ باسمهِ الأعلىٰ، خاصةً عند قراءةِ هذه الآية وفي السجود مع معرفة موجبات التسبيح.

٢. اليقين بكمال علمه جل وعلا في كل ما قدره وأنزله من شرع ووحي،

وأن القرآن أداه النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كما سمعه.

٣. تنزيه اللهِ تبارك وتعالىٰ عن كلِّ ما لا يليقُ به قولًا وفعلًا واعتقادًا.

٤. التذكيرُ بالقرآن، مع التركيزِ علىٰ أهلِ الخشية.

٥. إدراك المرء أن من علامات الشقاء تجنب الذكرىٰ.

٦. الإيمان بالنار وشدتها، وأن أهلها لا يستطيعون أن يحييوا حياة كريمة، يهانون فيها ولا يموتون.

٧. العملُ علىٰ تحقيقِ التوحيد والتزكي به وبالعملِ الصالح.

٨. الإكثارُ من ذكرِ الله تعالىٰ في كلِّ الأحوال.

٩. المحافظة علىٰ الصلاة في ظاهرها وباطنها ووقتها.

١٠. عدمُ إيثارِ الدنيا، وتقديمِ أمورِها علىٰ أمور الآخرة.

تمَّ الكلام عن سورة الأعلى ولله الحمد والمنة

ببلد الله الحرام في غرة ربيع الأول من عام ١٤٣٦ هـ.

تفسير وهدايات

سـورة الغاشية

موضوع السورة:

الحديثُ عن الغاشيةِ وما يغشى الناس فيها

من خلال موضوعين:

- بيان أحوال المكذبين والمؤمنين يوم الغاشية
- بيان أدلة البعث، وعاقبة من تولىٰ وكفر

مدخل لدراسة السورة:

أولًا: فضلُ السورة:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِــ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وَ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ قَالَ: «وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ»[(١)].

ثانيًا: موضوعاتِ السورة:

موضوعُ السورةِ الحديثُ عن الغاشيةِ وما يغشىٰ الناس فيها، وقد جاء الكلام عن ذلك من خلالِ الحديثِ عن موضوعين:

الموضوعُ الأول: بيانُ أحوالِ المكذبين والمؤمنين في ذلك اليوم، الآيات من (١-١٦).

الموضوعُ الثاني: بيانُ بعضِ أدلةِ البعثِ، وحثُّ الرسولِ للتذكيرِ بها، وبيانُ عاقبةِ من تولىٰ وكفر، الآيات من (١٧-٢٦).

ثالثًا: المناسبةُ بين سورةِ الأعلى والغاشية:

لما زهَّدَ تباركَ وتعالىٰ في آخرِ سورة «الأعلىٰ» عن الدنيا، ورغَّبَ في الآخرةِ بأنها خيرٌ وأبقىٰ، وأنها هي وصيتُه في الصحفِ الأولىٰ، جاء الحديثُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، بَابُ: مَا يُقْرَأُ فِي صَلاَةِ الْجُمُعَةِ، ح رقم (٨٧٨).

هنا عما رهَّبَهم به ورغَّبَهم فيه، وهو الحديثُ عن الغاشية، وبيان ما فيها من عاقبةٍ للمكذبين والمؤمنين، مع بيان بعضِ الأدلةِ والبراهين عليها.

ولما أمرَ فيما قبلَها بالتذكيرِ لمن تنفعُه الذكرىٰ، وبينَ موقفَ الناسِ منها، ومصيرَ كلِّ فريقٍ منهما، أمرَ هنا كذلك بالتذكرة، وبينَ أن هذه مهمةُ رسولِهِ، وبينَ عاقبةَ من تولىٰ عنها وكفر.

ولما كان الكلام في سورة الأعلىٰ عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية جاء الكلام هنا للنظر والتفكر فيما خلق.

الموضوعُ الأول

بيانُ أحوالِ المكذبين والمؤمنين يوم الغاشية

قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ
٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ
إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا
رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢ فِيهَا سُرُرٞ
مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:
١ - ١٦].

أولًا: معاني الكلمات:

١. ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾: أي: قد جاءك.

٢. ﴿حَدِيثُ﴾: الحديثُ الخبرُ المتحدَّثُ به.

٣. ﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: أي: القيامة، وسميت بالغاشيةِ؛ لأنها تغشىٰ جميعَ الخلقِ بأهوالها، والغاشيةُ هي المجللة.

٤. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: أي: ذليلةٌ، لما رأت من سوءِ العاقبة.

٥. ﴿نَّاصِبَةٞ﴾: من النصبِ بمعنىٰ التعب.

٦. ﴿تَصۡلَىٰ﴾: تردُ وتدخلُ وتنصلي هذه الوجوه بها.

٧. ﴿حَامِيَةٗ﴾: أي: حارةٌ شديدةُ الحر.

٨. ﴿ءَانِيَةٖ﴾: أي: بلغت أناهَا، أي: منتهاه من الحرارةِ والغليان.

٩. ضَرِيعٍ: أي: أخبثُ وأنتنُ طعامٍ، وضريعُ الدنيا نبتٌ يقالُ له الشِبْرق، لا ترعاه الدوابُ لخبثِه، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الضريعُ نبتٌ يقال له الشبرقُ»[(١)] يسميه أهلُ الحجازِ الضريعُ إذا يبسَ، وهو سمٌ قاتل، وهو طعامُ أهلِ النار، وضريعُ الآخرةِ تحديدُه بشيءٍ معينٍ يحتاجُ إلىٰ دليل، وليس بين ما في الدنيا والآخرة إلا الأسماء.

١٠. يُسۡمِنُ: والسِمَنُ، بكسر السين وفتح الميم: وفرةُ اللحمِ والشحمِ للحيوان يقال: أسمنه الطعامُ، إذا عادَ عليه بالسِمَن.

١١. وَلَا يُغۡنِي: والإغناءُ: الإكفاءُ ودفعُ الحاجة.

١٢. نَّاعِمَةٞ: أي: متنعمةٌ يظهرُ عليها نضرةُ النعيمِ وحسنهِ.

١٣. لِّسَعۡيِهَا: والمراد بالسعي: العملُ الذي يسعاه المرءُ ليستفيدَ منه.

١٤. رَاضِيَةٞ: والرضا: ضدُ السخط، أي هي حامدةٌ ما سعته في الدنيا من العملِ الذي هو امتثالُ ما أمرَ اللهُ به، وما جاء عن رسولهِ محمدٍ ﷺ.

١٥. عَالِيَةٖ: أي: رفيعةٌ بهية، وهي عاليةٌ مكانًا وقدرًا.

١٦. لَٰغِيَةٗ: أي لغوًا من الكلامِ، وهو القولُ الباطلُ، وما لا فائدةَ منه.

١٧. جَارِيَةٞ: أي: سارحةٌ لا تنقطع.

١٨. سُرُرٞ: جمعُ سرير، وهو ما يُجلسُ ويضطجعُ عليه، فيسعُ الإنسانَ المضطجع.

١٩. مَّرۡفُوعَةٞ: أي: مرتفعةُ القدرِ والسمك.

٢٠. وَأَكۡوَابٞ: جمعُ كُوبٍ بضم الكاف، وهو له ساقٌ ولا عروةَ له.

٢١. مَّوۡضُوعَةٞ: معدةٌ مرصدةٌ بين أيديهم لمن أرادَها من أربابِها بأطيبِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٨/ ٣٨٥).

الشراب لا ترفعُ من بين أيديهم.

٢٢. ﴿وَنَمَارِقُ﴾: جمعُ نُمرقة، وهي الوسائد.

٢٣. ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾: الواحدةُ إلىٰ جنبِ الأخرىٰ للاستنادِ إليها والاتكاءِ عليها.

٢٤. ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: الزرابي: البسطُ الفاخرة.

٢٥. ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾: منتشرةٌ علىٰ الأرضِ بكثرة؛ وذلك يفيدُ الكثرة.

ثانيًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. تفيدُ حسنَ وقوةَ أسلوبِ القرآن في لفتِ نظرِ الإنسان، فإن الخطابَ بأسلوبِ الاستفهامِ مستعملٌ هنا لتنبيهِ السامعِ وتحريكِهِ إلىٰ تلقي الخبرِ عند استماعِهِ وتوجيهِ فكرِهِ إليه، وأنه من الأحاديثِ التي من حقِّها أن تتناقلَها الرواة، ويحفظَها الوعاة من كلِّ حاضرٍ وباد. فقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ بمعنىٰ: هل أتاك نبأُ الغاشية، وخبرُها العظيم، وحديثُها المهولُ المخيف.

٢. تفيدُ أن الغاشيةَ من أسماءِ يومِ القيامة، وسميت بذلك بما يدلُ علىٰ هولِها وعظمِتها؛ لأنها تغشىٰ الناسَ وتعمهم.

٣. تفيدُ أن النبيَّ ﷺ لا يعلمُ من الغيبِ إلا ما اطلعَه اللهُ عليه، فهو لم يكن يعلمُ تفصيلَ ما في الآخرةِ لولا أن أخبرَه ربُّه بذلك.

٤. تفيدُ شدةَ ذلك اليومِ وهوله، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]، وكما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا

وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:١-٢].

٥. تفيدُ حالَ الناسِ في ذلك اليوم، وأنهم ينقسمون إلىٰ قسمين: قسمٌ وجوُهُم يومئذٍ خاشعة تصلىٰ نارًا حامية، وقسمٌ وجوُهُم يومئذٍ ناعمة، لسعيها راضية.

٦. تفيدُ حالَ الكفارِ في يومِ القيامةِ وما يكونون عليه من ذلٍّ وخشوعٍ لما أصابَهم من فضيحةٍ وخزي، ويطلقُ الخشوعُ علىٰ المذلةِ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورىٰ:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

٧. تفيدُ بلاغةَ القرآن من خلالِ التعبيرِ بالوجهِ عن أصحابهِ؛ لأن حالةَ الوجوه تنبىٰءُ عن حالةِ أصحابِها، إذ الوجهُ عنوانٌ عما يجدُه صاحبُه من نعيمٍ أو شقاوةٍ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧]، كما يقال: خرجَ بوجهٍ غيرَ الوجهِ الذي دخلَ به، فالحزنُ والسرورُ إذا استحكما بالمرءِ ظهرَ أثرُهما علىٰ الوجه.

٨. فيها بيانُ مصيرِ أعمالِ الكفارِ، وكل من لا يؤسسُ عملَه علىٰ الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ

ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

٩. تفيدُ أن التعبَ والنصبَ في العبادةِ إذا لم يقم علىٰ التوحيدِ والإخلاصِ والمتابعةِ لا ينفعُ صاحبَه مهما بذلَ من جهد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، فهي عملت لغيرِ الله، ونصبت في غيرِ سبيله، عملت لنفسِها ولأولادها، وتعبت لدنياها ولأطماعِها. ثم وجدت عاقبةَ العملِ والكدِّ المحزنةِ.

١٠. تفيدُ جزاءَ من يعملون دونَ إيمانٍ صحيح، أو هدي قويم في ذلك اليوم، قال تعالىٰ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾

١١. فيها بيانُ شدةِ عذابِ الكفارِ في قولِه تعالىٰ: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدةُ الحر، تحيطُ بهم من كلِّ مكان، قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

١٢. تفيدُ الإخبارَ عن شرابِ أهلِ النار، وأنهم يسقون من عينٍ قد بلغت في الحرارةِ منتهاها: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وهو مع حرِّه نتنُ الرائحة كما قال تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧]، وهو يكبُّ مع شرابِه علىٰ رؤوسِهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠].

١٣. فيها بيانٌ لطعامِ أهلِ النار، وأنه من شرِ الطعامِ وأبشعِه وأخبثِه، فهو قبيحُ الشكلِ، خبيثُ الطعم، نتنُ الرائحة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة:٥١-٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣].

١٤. فيها بيانٌ لسوءِ طعامِ أهلِ النار، إذ لا يحصلُ به المقصود، ولا يندفعُ به المحذور ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وذلك أن المقصودَ من الطعامِ أحدُ أمرين: إما أن يسدَّ جوعَ صاحبِهِ، ويزيلَ عنه ألمه، وإما أن يسمنَ بدنَه من الهزال، وهذا الطعامُ ليس فيه شيءٌ من هذين الأمرين، بل هو طعامٌ في غايةِ المرارةِ والنتنِ والخسة نسأل الله العافية.

١٥. تفيدُ أن الجوعَ والعطشَ هو من بعضِ عذابِ أهلِ النار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

١٦. فيها تصويرٌ لشدةِ العذاب في الآخرةِ، لأن هذه الأوصافَ جيء بها لتصورِ أقصىٰ ما يمكنُ تصورُه من الألم، الذي يجتمعُ فيه الذلُ، والنصبُ، والاصطلاءُ بالنارِ الحامية، والشرابُ من العينِ الآنية، والتغذي بالضريعِ الذي لا يسمنُ ولا يغني من جوع، ولكنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ مما يقعُ في تصورنا وأفظعُ كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦].

١٧. تفيدُ أن القرآنَ مثاني، فلما ذكرَ حالَ الأشقياءِ ثنىٰ بذكرِ حالِ السعداء، ليقارنَ العاقلُ بين المصيرين والحالين.

١٨. فيها بيانُ حالِ وجوهِ أهلِ السعادة في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرةُ النعيم، فنضرت أبدانُهم، واستنارت وجوهُهم، وسروا غايةَ السرور لما وجدوه من الراحةِ والرفاهية.

١٩. تفيدُ أن النعيمَ يحصلُ لأهلِ الجنةِ بعد فضلِ اللهِ بسعيهم.

٢٠. فيها بيانُ عظمِ ثواب المتقين، لأن الرضا بالسعي يدّلُ علىٰ الرضا بالثوابِ ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمالِ الصالحة ﴿رَاضِيَةٞ﴾ إذ وجدت ثوابَه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصلَ لها كلُّ ما تتمناه.

٢١. تفيدُ أن السعيدَ من يرضىٰ عملَه في الآخرة، ولا يحصلُ ذلك إلا لمن بذلَ وسعَه في طاعةِ ربه، أما غيرُه فتجده في حسرةٍ وندم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

٢٢. تفيدُ أن الرضا الذي يجدُه المؤمنُ عن سعيِه، وعن جزائهِ من أعظمِ النعيم، فهو رضِي لما رأىٰ رضا الكريمِ جل وعلا عنه، ومن ثم يقدمُ القرآنُ هذا اللونَ من السعادةِ علىٰ ما في الجنةِ من رخاءٍ ومتاعٍ لعظمِ أثرِه في سرورهم ونضارتهم.

٢٣. فيها كأن هؤلاء كان سعيُهم في الدنيا كلِّها للآخرةِ، فهم راضون عن سعيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢)، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٩]، وهكذا ينبغي أن تكونَ حياةُ المؤمن

سعيًا إلىٰ مرضاته.

٢٤. تفيدُ أن أهلَ السعادةِ ينعمون ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعةٍ لكلِّ أنواعِ النعيمِ، ﴿عَالِيَةٍ﴾ فهي عاليةٌ في ذاتها، وعاليةٌ في درجاتها، وعاليةٌ في مقامها، يشرفون منها علىٰ ما أعد اللهُ لهم من الكرامةِ، كما قال تعالىٰ عن أصحابِ اليمين: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢١-٢٤].

٢٥. تفيدُ أن أهلَ الجنةِ لا يسمعون كلمةَ لغوٍ تنغصُ سعادتَهم، ولا كلمةً نابيةً تقلقُ راحتَهم، وإنما يسمعون الكلمَ الطيب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٣-٢٤].

٢٦. فيها إشارة إلىٰ بيانِ أثرِ الكلام في الإسعادِ والشقاء.

٢٧. فيها بيانُ سلامةِ صدورِ أهلِ الجنةِ ولطفِهم وطيبِهم وتوادهمِ وأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾، فضلا عن الكلامِ المحرم، بل كلامُهم كلُّه كلامٌ حسنٌ نافع، فالتعبيرُ يفيدُ الودَ والرضا والسمر بين الأحباء.. وهذه وحدها نعيم وسعادة.

٢٨. فيها تنبيهٌ علىٰ أن الجنةَ دارُ السعادةِ الكاملة؛ لأن النفوسَ فيها تخلصت من النقائصِ كلِّها، فلا يكون فيها إلا ما فيه السمو الخُلُقي في القولِ والعمل.

٢٩. فيها بيانُ حالِ أعينِ الجنة السارحةِ دون أخدود، التي يفجرونَها ويصرفونها كيف شاءوا، وأنىٰ أرادوا وهي تجري بألذِ أنواعِ الشراب ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وهو يجمعُ إلىٰ الري الجمال ومتعةُ النظرِ والنفس.

٣٠. فيها بيانُ حالِ سُررِ أهلِ الجنةِ العاليةِ الناعمةِ، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي مرتفعةٌ في ذاتِها، وبما عليها من الفرشِ اللينةِ الوطيئة، ولما كان الارتفاعُ عن الأرضِ مأخوذًا في مفهومِ السررِ كان وصفَها بـ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ لتصويرِ حُسنِها، ومرفوعةٌ ليرىٰ الجالسُ عليها جميعَ ملكهِ وما نعم به وما شاءَ اللهُ، ومرفوعةٌ في القدر؛ لأن الارتفاعَ يوحي بالنظافةِ كما يوحي بالطهارةِ.

٣١. فيها بيانُ شرابِ أهلِ الجنةِ، المعدِّ بأطيبِ أنواعِ الشرابِ وألذه ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحتَ طلبِهم واختيارهم.

٣٢. تفيدُ الإخبارَ بما في الجنةِ من الأثاث ووسائل الراحة ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائدَ من الحريرِ والإستبرقِ وغيرِهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوسِ والاتكاءِ عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوَها، ويصفوَها بأنفسهم، و﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، وهي البسطُ الحسان، المملوءةُ بها مجالسُهم من كلِّ جانب.

٣٣. فيها بيانٌ لكمالِ نعيمِ الجنة حيثُ وصفَها في ذاتها، وهو كونُها عالية، وثُني ببيانِ حسنِ سكانِها فنزَّههم عن نقائصِ مجامعِ الناس، وهو اللغو، ثم ثلَّث في وصفِ محاسنِها ببيانِ محاسنِ أثاث قصورِها وما يجري فيها من عيونٍ تكملُ جمالَها.

٣٤. فيها ما يحثُ العبدَ وينشطُه ويشوقُه، ويقوي عزيمتَه علىٰ الجدِّ

والاجتهادِ في الباقياتِ الصالحات لما سمعَ عن عاقبةِ المتقين، وما أعده اللهُ لهم في الآخرةِ من التشريفِ والتكريمِ والتقدير.

٣٥. فيها عظمُ المقارنةِ بين المصيرين، فقد قوبلت صفاتُ وجوهِ أهل النار بصفاتِ وجوه أهل الجنة، فقوبلت صفاتُ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، ﴿عَامِلَةٌ﴾، ﴿نَّاصِبَةٌ﴾، بصفاتِ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، وقوبلَ قولُه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ بقولِهِ: في ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، وقوبلَ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ بقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وقوبلَ شقاءُ عيشِ أهل النار الذي أفاده قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، بمقاعدِ أهلِ الجنة المشعرةِ بترف العيشِ من شرابٍ ومتاع.

٣٦. تفيدُ أن نعيمَ الجنةِ أعظمُ مما نتصورُه من خلالِ ما ندركُه من معاني هذه الصفات، لأن هذه الأشياءَ تذكرُ لتقريبِ نعيمِها إلىٰ مداركنا، أما الحقائقُ مختلفةٌ تمامًا، ولهذا قال تعالىٰ بعد ما وصفَ لنا الجنةَ في كتابه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]، ولهذا تفيدُ تلك الأوصافُ السابقةُ أقصىٰ ما يمكن تصورُه من اللذةِ والحلاوةِ والمتاع، وهو ما يمكن تذوقُه ما دمنا هنا حتىٰ يكرمَنا اللهُ بفضلِهِ ورضاه هناك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، بَابُ: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ح رقم (٣٢٤٤)، ومسلم في كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا ح رقم (٢٨٢٤).

ثالثًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

بدأ تعالىٰ السورةَ بما يدلُّ علىٰ هولِ الآخرةِ فقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، ولما هولَ أمرَها عمومًا، زادَ في التهويلِ بما ذكرَ من أحوالِ الناسِ فقسمَهم إلىٰ شقي وسعيد، وبدأ بالشقي لأن المقامَ لإنذارِ المؤثرين للحياةِ الدنيا، فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، ولما كان العذابُ لا يكونُ إلا علىٰ ما يكرهُه المعذب، دل علىٰ ذلك فقال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾، ولما كان في الحرِّ أحوجُ شيءٍ إلىٰ ما يبردُ باطنَه، قال: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾، ولما ذكرَ ما يُسقونه أتبعَه ما يطعمُونه فقال: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾، ولما حصرَ أكلَهم في هذا، بين قبحَه وسوءَه فقال: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾.

ولما ذكرَ حالَ الأشقياءِ، أتبعه بحالِ السعداء، وبدأ بما يدلُّ علىٰ سعادتِهم مطلقًا فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ ثم بينَ سببَ ذلك النعيم فقال: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾، ولما ذكرَ السعيَ أتبعه بثوابِه فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾، ولما وصفَ المكانَ وصفَ الحالَ لبيانِ كمالِ النعيم، فقال: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾، ولما وصفَ الجنةَ بأولِ ما يعتبرُ فيها وهو عدمُ المنغص، أتبعه بما يطلبُ بعدَه وهو تناولُ الملذات، ولما كان الأكلُ قد فهمَ من ذكرِ لفظِ الجنة، ذكرَ المشروبَ لذلك، ولدلالتهِ إذا كان جاريًا علىٰ زيادةِ حسنِ الجنة قال: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾، ولما لم يبق بعدَ الأكلِ والشربِ إلا الاتكاء، قال: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾، ولما كان المستريحُ يحتاجُ إلىٰ تكرارِ الشربِ قال: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾، ولما كان من هو بهذهِ المثابةِ يحتاجُ إلىٰ المساندِ والفرشِ الزائدة قال تعالىٰ: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾.

رابعًا: التساؤلات التدبرية:

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيل قال: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٦]، فكيف وجهُ الجمعِ بينهما، والجوابُ من وجوه:

أحدها: أن الضريعَ والغِسلين واحد.

والوجه الثاني: أن هذا لقومٍ وذاك لقومٍ آخرين.

والوجه الثالث: أن الغسلينَ طعامٌ لا ينفعُ ولا يغني من شيءٍ فوضعَ الضريعُ موضعَ ذلك، والله أعلم[١].

(١) () تفسير القرآن العظيم السمعاني (٥/ ٤٣٩).

الموضوعُ الثاني
أدلة البعث، والحث على التذكير بها، وبيان عاقبة من تولى وكفر

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٦].

أولًا: المناسبة بين الآيات:

لما بيَّن الغاشيةَ، وقسمَ الناسَ فيها إلىٰ قسمين: الأشقياءُ والسعداء، ووصفَ أحوالَ الفريقين، ردَّ علىٰ المنكرين من خلالِ دعوتِهم للنظرِ في دلائلِ قدرتهِ من خلالِ أعظمِ خلقهِ فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بما يدلُّ علىٰ كمالِ قدرتهِ علىٰ المعادِ وغيرِه.

وقيل: لما نعت اللهُ تعالىٰ في هذِه السورة ما في الجنةِ عجبَ من ذلك أهلُ الكفرِ وكذبوه، فذكَّرهم اللهُ تعالىٰ بما صنعَه لهم في الدنيا من المخلوقاتِ العجيبة، الكثيرةِ المنافع، فلما صنعَ لهم ذلك في الدنيا، صنعَ لأهلِ الجنة فيها ما صنع(١).

---

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٤١٠).

وقال قتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرَ اللهُ تعالىٰ ارتفاعَ سُرُرِ الجنةِ وفُرُشِها، فقالوا: كيف نصعدُها فأنزلَ الله تعالىٰ هذه الآية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾»[1]، فالإبلُ عالية ويسهلُ الصعودُ عليها.

ثانيًا: معاني الكلمات:

١. أَفَلَا يَنظُرُونَ : أي: نظرُ اعتبارٍ وتفكر، والمرادُ بالنظرِ هنا: نظرُ العينِ، المفيدُ الاعتبارَ بدقائقِ المنظور

٢. ٱلْإِبِلِ : اسمُ جمعٍ للبُعران لا واحد له من لفظه.

٣. إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ: أي خلقًا بديعًا معدولًا به عن سننِ سائرِ المخلوقات.

٤. وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ: أي فوقَ الأرضِ بلا عمدٍ ولا مستند.

٥. وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ: أي علىٰ وجهِ الأرضِ نصبًا ثابتًا لا يتزلزل.

٦. سُطِحَتْ : بسطت، والسطحُ: بسطُ الشيء.

٧. فَذَكِّرْ : أي: عظ يا محمد.

٨. بِمُصَيْطِرٍ : أي: قاهرٌ متسلط، والمصيطرُ علىٰ قراءة الصاد: المُجبِرُ المُكْرِه.

٩. ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ : وهو أن يدخلَه نارَ جهنم.

١٠. إِيَابَهُمْ : يقال آبَ يؤوبُ أَوْبًا وإِيَابًا إذا رجع.

١١. إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم : أي: جزاءهم.

(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٤١٠).

ثالثًا: الهداياتُ المستفادةُ من الآيات:

١. فيها حضٌ وتوجيهٌ للعبادِ إلىٰ النظرِ والتدبرِ والتفكرِ في مخلوقاتِ اللهِ الدالةِ علىٰ قدرتهِ، وعظمتهِ، وعلمهِ، وحكمتهِ، ووحدانيته.

٢. تفيدُ أن الاستفهامَ من أساليبِ القرآنِ البليغة في التقريعِ والتوبيخ، وذلك لتقريرِ أمرِ البعث، والاستدلالِ عليه بأبلغِ أسلوب.

٣. تفيدُ الحثَّ علىٰ تعميقِ النظرِ والتدبرِ في هذه المخلوقات؛ لأن تعديتَه بحرف ﴿إِلَى﴾ تنبيهٌ علىٰ إمعانِ النظر ليشعرَ الناظرُ بما في المنظورِ من الدقائق، فإن قولَهم نظرَ إلىٰ كذا أشدُّ في توجيهِ النظرِ من نظرَ كذا، لما في ﴿إِلَى﴾ من معنىٰ الانتهاءِ حتىٰ كأنَّ النظرَ انتهىٰ عند المجرورِ بـــ ﴿إِلَى﴾ انتهاءِ تمكنٍ واستقرارٍ.

٤. فيها أن هذا النظرَ هنا قُيِّدَ بحالاتٍ مهمة، وكيفياتٍ محددة تدلُّ علىٰ دقائقِ هيئات خَلقها، وهي موضعُ الاعتبارِ الدقيق، فقد قُيّد فعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بــ: ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾، و﴿كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾.

٥. فيها الحضُّ علىٰ النظرِ في خلقِ الإبل، لما فيها من العجائبِ والغرائبِ التي لا يوجدُ في غيرِها من مخلوقاتِ العالمِ من الدوابِ المسخرةِ للإنسانِ كلِّها لا في الخيلِ ولا في الفيلة، ولا في أي حيوانٍ آخر، فقد اجتمعَ فيها ما تفرقَ من المنافعِ في غيرِها، من أكلِ لحمها، وشربِ لبنها، والحملِ عليها، والتداوي بأبوالِها، والتنقلِ عليها إلىٰ البلادِ البعيدِة، وهي زينةٌ وجمال، ومع ما فيها من منافعَ كثيرة، فهي سهلةُ الكلفة، تصبرُ علىٰ العطش أيامًا عديدةً، طيعةٌ لمن يقودها، تنهضُ وهي باركةٌ بالأحمالِ الثقيلةِ، فلا شيء من الحيوان جمع

هذه الخصال، وكان اجتماعُ هذه الخصالِ فيه من العجائب؛ بل كلُّ واحدٍ من هذه الخصالِ أفضلَ من الحيوانِ الذي لا يوجدُ فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبةً سقت فأروت الكثير، وإن جعلت مأكولةً أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبةً أمكن أن يقطعَ بها من المسافاتِ المديدةِ ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وإن جعلت حمالةً استغلت بحملِ الأحمالِ الثقيلة التي لا يستقلُ بها سواها، ومنها أنها مع كونِها في غايةِ القوة علىٰ العملِ مباينةً لغيرِها في الانقيادِ والطاعةِ، فيقودُها الصبي الصغير، فهذه الصفاتُ الكثيرةُ الموجودةُ فيها توجبُ علىٰ العاقلِ أن ينظرَ في خلقتِها وتركيبِها، ويستدلُ بذلك علىٰ وجودِ الصانعِ الحكيمِ سبحانه، وقد وجَّه القرآنُ النظرَ إليها مع غيرِها في معرض امتنانهِ تعالىٰ عليهم في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١ - ٧٣]. وقال في خصوصها: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٥-٧]، ومن هنا حثَّ تعالىٰ للنظرِ إلىٰ خلقِها وتكوينها، وكيف خلقت علىٰ هذا النحو المناسبِ لوظيفتِها، المحققِ لغايةِ خلقها، المتناسقِ مع بيئتِها ووظيفتِها جميعًا! إنهم لم يخلقوها. وهي لم تخلق نفسَها، فلا يبقىٰ إلا أن تكونَ من إبداعِ المبدعِ المتفرد بالخلقِ جل في علاه، فهي تدلُ عليه، وتقطعُ بوجوده؛ كما تدلُّ علىٰ قدرتهِ وعلمهِ وحكمتهِ وحسنِ تدبيره وتقديره.

٦. فيها الحضُّ إلىٰ النظرِ والتفكرِ في خلقِ السماء، كيف رفعها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ

عن الأرضِ هذا الرفعَ العظيمَ بغيرِ عمدٍ ترىٰ، وبدونِ فطورٍ أو تشققٍ علىٰ تطاولِ زمنها، ثم إلىٰ ما خلقَه فيها من بدائعِ الخلق، من الشمسِ والقمرِ والكواكب، وعلَّقَ بها منافعَ الخلق، وأسبابَ معايشِهم، وجعل في رفعِها من البهجةِ والجمالِ ما فيها كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها. فلابد لها من رافعٍ ومبدع، ومعلومٌ أن خلقَ السماءِ والأرضِ من آياتِ اللهِ الدالة علىٰ البعث كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

٧. فيها الحثُّ إلىٰ النظرِ والتفكرِ في الجبالِ كيف وضعت وضعًا ثابتًا راسيًا لا اضطرابَ فيه، وجعلت أوتادًا للأرضِ، منصوبةً كالأعلام، يهتدي بها الساري، ويلجأُ إليها الخائف، ويقصدُها المتنزه، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٣٢-٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥].

فخلقُ الجبالِ بهذه الصورةِ العظيمةِ مع ما أودع فيها من المنافعِ الكثيرة من أكبرِ الشواهدِ علىٰ قدرةِ بارِيها وفاطِرِها وعلمِهِ وحكمتهِ ووحدانيته، والجبالُ عند العربي بصفةٍ خاصة ملجأٌ وملاذ، وأنيسٌ وصاحب، ومشهدُها والتأملُ فيها يوحي إلىٰ النفسِ الإنسانيةِ بصفةٍ عامةٍ جلالًا واستهوالًا. حيث يتضاءلُ الإنسانُ إلىٰ جوارِها، ويخشعُ لجلالِ خالقِها ويلين، ويسبحُ بحمدِه، ويخضعُ لعظمتهِ.

٨. فيها الحضُّ إلىٰ النظرِ والتفكرِ في خلقِ الأرضِ كيف مدت مدًّا واسعًا، وسهلت غايةَ التسهيلِ ليستقرَّ العبادُ علىٰ ظهرِها، ويتمكنوا من حرثِها وغرسِها والبناءِ عليها، وسلوكِ طرقِها، والانتفاعِ بما في ظاهرِها، وما في باطنِها، والناسُ لم يسطحوها كذلك، فقد سطحت قبل أن يكونوا هم.. أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءَها، ويسألون: من سطحَها ومهدَها هكذا للحياة تمهيدًا؟ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧ - ٨].

٩. فيها بيانُ الأدلةِ علىٰ البعثِ والجزاءِ بالنظرِ إلىٰ موجباتِ الإيمانِ؛ لأن توجيهَ النظرِ إلىٰ تلك المذكوراتِ الأربع للوقوفِ علىٰ دلائلِ قدرتهِ علىٰ البعثِ، الإقرارِ له بالوحدانيةِ والألوهية، نتيجةً لإثباتِ ربوبيته تعالىٰ لجميعِ خلقه.

١٠. تفيدُ أهميةَ استصحابِ المكوناتِ البيئية في توجيهِ الخطاب، فهذه الآيات الأربع مع أنها من أبرزِ معالمِ الخلقِ، فهي تجمعُ البيئةَ العربيةَ من كلِّ أطرافِها، والمرء إنما يستدل له بما تكثرُ مشاهدته له، فخوطبوا بما هو حاضرٌ في عقولهم وواقعهم، قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكرَ الله تعالىٰ هذه الأربعُ وهي: الإبل والسماء والأرض والجبال وخصها بالذكر من بين سائر الأشياء؛ لأن الأعرابي إذا ركبَ بعيرَه وخرجَ إلىٰ البريةِ ينظرُ فلا يرىٰ إلا بعيرَه الذي هو راكبُه والسماءَ التي فوقه، والأرضَ التي تحته، والجبالَ التي هي نصبُ عينه»[١].

(١) تفسير القرآن العظيم، السمعاني (٥/ ٤٣٧).

١١. تفيدُ أن الأمرَ بتوجيهِ النظرِ إلىٰ خلقِ الإبل، ونصبِ الجبال، ورفعِ السماء، وتسطيح الأرض هو نظرٌ قد لا ينتهي إلىٰ إدراكِ كنهها وحقيقتها، لكنه سيؤدي إلىٰ نتائجهِ في إقامةِ الحجةِ عليهم، وفي كل عصرٍ سيدركون من وراءِ نظرهم إلىٰ ما تحتار فيه عقولُهم.

١٢. فيها بيانٌ لمكانةِ العقلِ ودورهِ في الوصول للهدايةِ من خلالِ التفكرِ والنظرِ.

١٣. تفيدُ الحثَّ علىٰ التذكيرِ بالغاشيةِ، وبنعمِ الله، ودلائلِ توحيده في الخلقِ علىٰ الدوامِ مهما كان الإعراضُ والتولي، فقالَ له: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ ولا يهمَّنَّك كونُهم لا ينظرون ولا يذكرون.

١٤. فيها بيانُ أهميةِ الذكرىٰ ودورِها في الإصلاحِ، وأنها لأهميّتِها انتدب - اللهُ تباركَ وتعالىٰ - لها الأنبياءَ والرسل.

١٥. فيها بيانٌ لمهمةِ الرسولِ ومن يقومون بواجبِ الدعوة، وهي التذكيرُ دون إكراهٍ أو إجبارٍ لأحدٍ، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨].

١٦. تفيدُ أن هدايةَ القلوبِ لله تعالىٰ وحده دون سواه، هو الذي يصرفُها كيف يشاء، وليس لرسولهِ ولا لغيرِه إلا هدايةُ الدلالةِ والإرشاد، فهذه وحدها هي التي يملكونها بفضلِ الله ورحمته، وأن الداعي إلىٰ اللهِ تعالىٰ مهمتُه الدعوة دون هدايةِ القلوبِ التي اختص اللهُ نفسَه بها.

١٧. تفيدُ أن الرسولَ ومن معه عندما يقومون بواجبِ البلاغِ والتذكير ليسوا مسؤولين عن جحودِ من جحد، ولا كفرِ من كفر، أو مكلفين بالسيطرِة عليهم، وخلقِ الإيمانِ والهداية في قلوبهم.

١٨. تفيدُ أنه لا إكراه في الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا يكرَه أحدٌ في الدخولِ فيه، ولكن من دخلَ أُلزِمَ بشرائعهِ، فهنالك حريةٌ في اختيارِ الدين، ولكن لا حريةَ في التدين، بل يجبُ لمن دخلَ الدينَ أن يلتزمَ بشرائعه.

١٩. تفيدُ أن الجهادَ الذي كتبَ بعد ذلك، وجاءَ في السورِ المدنية لم ينسخ هذا الحكم، لأن الجهادَ ما جاءَ لحملِ الناسِ علىٰ الإيمان؛ إنما شرعَ لإزالةِ العقباتِ من وجهِ الدعوةِ، لتبلغَ إلىٰ الناسِ، فلا يمنعوا من سماعِها، ولا يفتنون عن دينِهم إذا سمعوها.

٢٠. فيها بيانُ عاقبةِ ومصيرِ المعرضين عن دعوةِ اللهِ، الكافرين برسالةِ النبيِّ ﷺ، فإن مصيرَهم العذابُ الأكبرُ في جهنم وبئس المصير.

٢١. تفيدُ أن مرجعَ الخلقِ جميعًا إلىٰ اللهِ سبحانه وتعالى مهما طالت الأعمارُ، وامتدت الحياةُ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ أي رجوعهم إلينا لا إلىٰ غيرنا.

٢٢. تفيدُ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ هو المحاسبُ لجميعِ الخلقِ علىٰ ما أسلفوا في حياتِهم الدنيا يوم القيامة، لأنه هو وحدُه العليمُ بالظواهرِ والبواطن، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٢٣. فيها الإشارةُ إلىٰ الجزاءِ الذي بسببهِ كان الحسابُ.

٢٤. فيها تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأن من تولىٰ وكفر سوف نجزيهم الجزاء

اللائق بهم، فلا يضرُّكُ إعراضُهم ولا توليهم.

٢٥. فيها تخويفٌ لأولئك الذين تولوا وأعرضوا حيث خصهم اللهُ بالحساب مع أن حسابَه عامٌّ لجميعِ الخلائق، كما خصَّهم بالعذابِ الأكبرِ بعده.

رابعًا: التناسق الموضوعي بين الآيات:

لما أنهىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحديثَ عن أحوالِ الأشقياءِ والسعداء، وكانوا ينكرونَ ذلك غايةَ الإنكارِ، دعاهم للنظرِ في الدلائلِ والبيناتِ من خلالِ الاستفهام الذي جيء به للتوبيخِ والإنكار، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ أي: المنكرون لقدرتهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ البعثِ وما يكون بعدَه من جنةٍ ونارٍ في آياتِ اللهِ المبثوثةِ في الكون، وخصَّ منها أقربَها ملامسةً لحياتِهم فقال: ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ولما ذكرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظمَ المخلوقاتِ المتحركة في الأرضِ، أتبعَه بأعظمِ المخلوقاتِ المرفوعة، فقال: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، ولما ذكرَ العالي من الحيوانِ الملابس للإنسان، والعالي من الأكوانِ البعيدَ عن الإنسان، أتبعه بالعالي من الأعراضِ الثابتة، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ولما كان الخفضُ لا يكون إلا بخافضٍ قاهرٍ كما أن الرفعَ كذلك برافعٍ قادرٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ولما دلَّ بما ذكرَ عن عجائبِ صنعهِ من خلالِ أنواعِ المخلوقاتِ بما يدلُ علىٰ كمالِ قدرتهِ علىٰ كلِّ شيء، وكان الإعراضُ عن الإيمانِ بعدَ البيناتِ ظاهرًا سببُه العنادُ خاطبَ رسولَه بما يقوِّي عزمَه في رسالتِهِ ومهمته، ويخفف عنه أثرَ إعراضهم، فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، ولما نفىٰ عنه تبعية توليهم بيَّن عاقبةَ إعراضِهم فقال: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾، ولما بينَ عاقبةَ إعراضِهم، بينَ أن ذلك لا يكون إلا بعدَ الموتِ والإيابِ والحساب، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

خامسًا: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

ذكرَ في خاتمتِها الإيابَ والحساب، وذلك يكونُ في يومِ الغاشيةِ التي ينقسمُ فيها الناسُ إلىٰ قسمين: قسمٌ في دارِ هوان، وقسمٌ في دارِ أمان، بهذا فقد تعانقَ خاتمتُها بفاتحتها.

سادسًا: خصائص السورة في عرض هداياتها:

١. البدءُ بالسؤالِ للرسولِ ﷺ بقولهِ تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾.

٢. الحديثُ عن الوجوهِ الخاشعةِ العاملةِ الناصبةِ التي تصلىٰ نارًا حامية وتسقىٰ من عينٍ آنية، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾.

٣. الكلامُ عن الضريعِ وبيانُ وصفهِ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

٤. الكلامُ عن الوجوهِ الناعمةِ التي لسعيِها راضية، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

٥. الكلامُ عن السررِ المرفوعةِ، والأكوابِ الموضوعة، والنمارقِ المصفوفة، والزرابي المبثوثة، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

٦. الدعوةُ للنظرِ والتفكرِ في خلقِ الإبل، ورفعِ السماء، ونصبِ الجبال، وسطحِ الأرض، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

٧. بيانُ أن النبيَّ ﷺ مذكرٌ وليس بمسيطر، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

٨. بيانُ عاقبةِ من تولىٰ وكفر، ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

٩. الكلامُ عن تكفلهِ جل وعلا بالإيابِ والحساب ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

سابعًا: التكاليفُ العمليةُ من هدايات السورة:

١. اليقينُ بالآخرةِ، ومعرفةُ هولها، والاستعدادُ لها بالعملِ الصالح.

٢. تأسيسُ جميعِ الأعمالِ علىٰ الإيمانِ الصحيحِ والإخلاصِ والمتابعة.

٣. بذلُ الوسعِ في عبادةِ اللهِ حتىٰ يرضىٰ العبدُ عن سعيهِ في الآخرة.

٤. النظرُ والتفكرُ في خلقِ الإبلِ، ورفعِ السماء، ونصبِ الجبال، وبسطِ الأرض.

٥. التذكيرُ بالآخرةِ وما فيها من نعيم وجحيم، ونعم الله تعالىٰ، ودلائلِ توحيده في الناسِ بصورة مستمرة بما يدفع للعمل بالخير وترك الشر، والصبر علىٰ الحق.

٦. الاستعدادُ لحسابِ اللهِ تعالىٰ عند الإيابِ إليه.

٧. سؤالُ اللهِ تعالىٰ الجنةَ، والنجاةَ من النارِ.

تمَّ الكلام عن سورة الغاشية ولله الحمد والمنة
ببلد الله الحرام في ٢٤ ربيع الثاني من عام ١٤٣٦ هـ.

تم بحمد الله

الجزء الأول من تفسير وهدايات جزء عم

المحتوى

مقدمة كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى .. ٥
مقدمة الكتاب.. ٩

تفسير وهدايات سورة النبأ.................................. ١٩

مدخل لدراسة السورة.. ٢١
الموضوعُ الأول: اختلافُ الناسِ في البعثِ وبيانُ أدلتِهِ وبراهينِهِ ٢٣
الموضوع الثاني: بيانُ ما يسبقُ القيامةَ من أحداثٍ، ومصيرُ الطغاةِ والتقاة فيه.. ٣٨
الموضوع الثالث: وصفُ بعضِ أحوالِ اليومِ الآخر ٥٤

تفسير وهدايات: سورة النازعات ٦٧

مدخل لدراسة السورة.. ٦٩
الموضوع الأول: التأكيدُ على البعث، مع بيانِ بعضِ أهواله، وما يعتري الناس فيه ٧١
الموضوع الثاني: الحديثُ عن مصرعِ الطغاةِ المكذبين من خلالِ قصةِ موسى ﷺ وفرعون ٨٠
الموضوع الثالث: بعض آيات الله الكونية الدالة على قدرته على كلِّ شيء... ٩٤
الموضوع الرابع: مصيرُ العبادِ يوم البعث الذي منتهى علمه عند الله تعالى .. ١٠٠

تفسير وهدايات سورة عبس...................................١١١

مدخل لدراسة السورة.................................١١٣
الموضوعُ الأول: بيانُ كيفيةِ التعاملِ مع من يخشى ومن استغنى ١١٥
الموضوع الثاني: بيانُ ابتداءِ خلقِ الإنسانِ واعادتهِ ١٣٣
الموضوعُ الثالث : بيانُ طعامِ الإنسانِ وما فيه من تدبير ١٤٢
الموضوعُ الرابع : بيانُ حالِ المنذرين من يخشى ومن استغنى في الآخرة ..١٥١

تفسير وهدايات : سورة التكوير ١٦١

مدخل لدراسة السورة.................................١٦٣
الموضوعُ الأول: بيانُ كيفيةِ وقوعِ البعث وبيانُ حالِ الإنسانِ مع عمله ..١٦٥
الموضوع الثاني: بيانُ حقيقةِ القرآن الذي أخبرَ بالبعث ١٧٦

تفسير وهدايات سورة الانفطار ١٩٥

مدخل لدراسة السورة.................................١٩٧
الموضوع الأول: بيانُ ما يقعُ يومَ القيامةِ وتوبيخُ المغرورين المكذبين ١٩٨
الموضوع الثاني: جزاء الأعمال في يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئا ..٢٠٩

تفسير وهدايات سورة المطففين..............................٢١٥

مدخل لدراسة السورة.................................٢١٧
الموضوع الأول: التحذير الشديد من التطفيف وبيان عاقبته ٢١٩
الموضوع الثاني: بيانُ جوانبَ من عاقبةِ الفجارِ المكذبين في يوم الدين ٢٢٨
الموضوعُ الثالث: بيانُ بعضِ نعيمِ الأبرارِ المصدقين في يوم الدين ٢٣٨
الموضوع الرابع: استهزاءِ الكفارِ بالمؤمنين في الدنيا وانعكاسِ الحالِ عليهم يوم القيامة ٢٥٠

تفسير وهدايات سورة الانشقاق ٢٦١

مدخل لدراسة السورة.................................٢٦٣

الموضوع الأول: بيانُ بعضِ أحداث الساعة وحالِ العباد عند توزيع الكتب .. ٢٦٥
الموضوع الثاني: بيانُ اختلافِ أحوالِ العباد والجزاءِ على الأعمال ... ٢٧٥

تفسير وهدايات سورة البروج ٢٨٩
مدخل لدراسة السورة ٢٩١
الموضوعُ الأول: الحديثُ عن نموذجٍ من الثباتِ وهم أصحابُ الأخدود .. ٢٩٣
الموضوعُ الثاني: تهديدُ المشركين بذكرِ بعضِ صفاتِهِ وأفعاله تعالى ... ٣٠٥

تفسير وهدايات سورة الطارق ٣٢١
مدخل لدراسة السورة: ٣٢٣
الموضوعُ الأول: إثباتُ إمكانيةِ البعثِ بالحديث عن خلق الإنسان ... ٣٢٦
الموضوع الثاني: إثبات البعث من خلال بيان صدقِ القرآنِ الكريم ٣٣٦

تفسير وهدايات سورة الأعلى ٣٤٧
مدخل لدراسة السورة ٣٤٩
الموضوعُ الأول: الأمرُ بالتسبيحِ وبيانُ موجباتهِ ٣٥٢
الموضوع الثاني: الأمرُ بأداءِ الرسالة وبيانُ موقفِ الناس منها ٣٦٩

تفسير وهدايات سورة الغاشية ٣٨٥
مدخل لدراسة السورة: ٣٨٧
الموضوعُ الأول: بيانُ أحوالِ المكذبين والمؤمنين يوم الغاشية ٣٨٩
الموضوعُ الثاني: أدلة البعث، والحث على التذكير بها، وبيان عاقبة من تولى وكفر ٤٠١